جان زيغلر

إمبراطورية العار

ترجمة

الأب الياس زحلاوي

تأليف جان زيغلر

إمبراطورية العار

ترجمة الأب الياس زحلاوي

2014

« في إمبراطوريّة العار، الذي تحكمه الندرة المنظمة، لم تعد الحرب حالة طارئة، بل هي حالة دائمة. هي لم تعد تشكّل حالة مرضيّة، بل هي القاعدة. وهي لم تعد تعني كسوف العقل، بل هي مبرر وجود هذه الإمبراطورية.

فإنّ سادة الحرب الاقتصادية قد أخضعوا الكرة الأرضيّة، لتخطيط محكم. يهاجمون السلطة النظاميّة للدول، ويشككون في السيادة الشعبية، ويفسدون الديمقراطية، ويدمّرون الطبيعة، ويحطّمون البشر وحريّاتهم.

إنّ النظام العالمي، الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، الذي بثّته الرأسمالية النهّابة، ليس قاتلاً وحسب، إنه أيضاً نظام عبثي، إذ هو يقتل، ولكنه يقتل دون ضرورة.

هذا النظام يجب أن يواجَه بمقاومة جذريّة!

وإنّ كتابي هذا يريد أن يكون سلاحاً في هذه المعركة! »

2014

إمبراطورية العار

تأليف جـــان زيغــلر

ترجمة الأب الياس زحلاوي

جـان زيغلـر

إمبراطورية العار

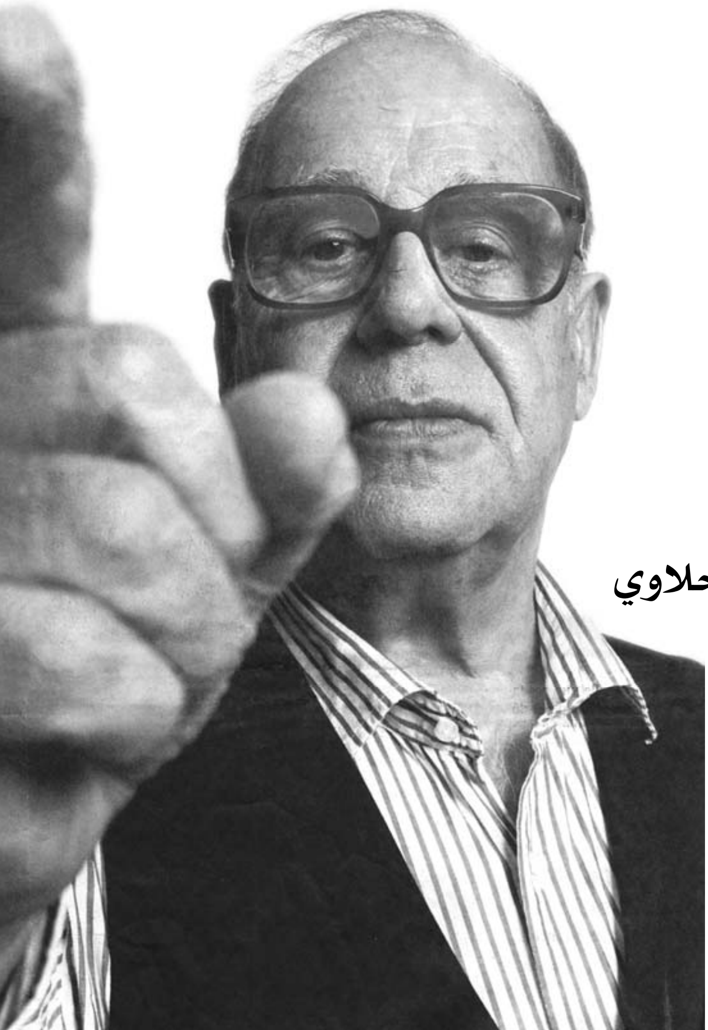

ترجمة

الأب الياس زحلاوي

حقـوق الطبــع محفوظـة للمؤلف

الطبعـة الأولى

2014

تنفيذ.................................

بمثابة تقديم

هل لي أن أقدّم مؤلف هذا الكتاب؟

قد يكون معروفاً على نطاق العالم، في أوساط الباحثين والسياسيين والدبلوماسيين، لأنه كان منذ شهر أيلول عام 2000، وعلى مدى سنوات كثيرة، مقرراً خاصاً للأمم المتحدة في شؤون حق التغذية.

إلا أن لديه ما يثير الدهشة حتى الإعجاب.

إنه صوت غربي ومسؤول، فريد حقاً، لأنه، على ما احتله بالأمس من مركز مرموق في هيئة الأمم المتحدة، وعلى ما يمثله اليوم من مركز مرجعي في نطاقي التدريس الجامعي والبحث العلمي، في سويسرا وطنه، وسواها من بلدان الغرب، ينتهج في مؤلفاته الكثيرة، أسلوب التنديد الصريح والهادئ والموثق، بالنظام الغربي الراهن، في وجهيه، السياسي منه والاقتصادي، ويدعو إلى يقظة عالمية، علمية وفكرية وسياسية واجتماعية، يريد لها أن تذهب في اتساع وعمق، كي يأتي يوم تطيح فيه بهذا النظام الذي لا يني يصفه بالمفترس والمتوحش، وتُحِلّ محله نظاماً إنسانياً وعالمياً، يعيد إلى هيئة الأمم المتحدة، المتحللة والمنهارة، جدارتها في قيادة العالم كله، على أسس ثابتة من الحق والقانون والمساواة والكرامة.

أسأل الله - وعالمي العربي كله، والعالم الإسلامي بجميع دوله، يغوصان في الضياع والخواء والموت - أن يمنّ عليهما، في هذا الزمن الخارج على كل زمن، بقامات فكرية وإنسانية، بحجم قامة "جان زيغلر"!

دمشق في 2014/9/20

مقدمة

كان الليل قاتماً، والقمر غائباً. وكانت الريح تندفع بسرعة فاقت المائة كيلومتر في الساعة. كانت الأمواج تشرئبّ إلى عشرة أمتارٍ، ثم تهبط في صخب مروّع فوق المركب الخشبي الهشّ، الذي كان قد غادر الشواطئ الموريتانية، قبل عشرة أيام، وعلى متنه مائة وواحد وعشرون لاجئاً أفريقياً.

وكانت المعجزة عندما قذفت العاصفة بالمركب على صخور ساحل "الميدانو"، فوق جزيرة صغيرة من أرخبيل جزر الكناري.

وقد وجد حرس الشاطئ الإسباني، في هذا المركب، فضلاً عن الناجين المخبولين، جثث امرأةٍ وثلاثة فتيان، كان الجوع والعطش قد قضيا عليهم.

في الليلة ذاتها، رسا مركبٌ صغيرٌ على مسافةٍ قريبةٍ من هذا الساحل، في موقعٍ يُدعى "الهييرو"، وكان على متنه ستون رجلاً، وسبعة عشر طفلاً، وسبع نساء. وكانوا أشبه بهياكل عظمية تحتضر، فما أن بلغت الشاطئ، حتى انهارت.[1]

وفي الفترة عينها، جرت مأساةٌ أخرى، ولكن، هذه المرة، في البحر الأبيض المتوسط: فعلى مسافة (150) كم من جزيرة مالطا، رصدت طائرة مراقبة تابعة لمنظمة تُدعى "فرونتكس" (FRONTEX)[2]، مركباً ينوء بثلاثةٍ وخمسين راكباً، هائماً فوق البحر - ربما بسبب عطل في المحرك - تتقاذفه الأمواج. وقد تبين لأجهزة التصوير في الطائرة، أنّ فيه نساء وأطفالاً صغاراً. وفي الحال، بلّغ قائد الطائرة السلطات المالطية بالأمر.

ورفضت هذه السلطات التدخل، متذرّعةً بأنّ المركب يتوجّه نحو "منطقة البحث والنجدة، الليبية". فتدخلت السيدة "لورا بولديني"

(Laura BOLDINI)، وهي مندوبة الهيئة العليا لشؤون اللاجئين في الأمم المتحدة، وطلبت من سلطات مالطا المسارعة إلى إرسال مركب نجدة. وكانت حجّتها: "في فترة سابقة، حدث لمراكب أن تهيم على وجهها في البحر المتوسط، مدة عشرين يوماً"[3].

عبثاً.

لم يتحرك أحدٌ في أوروبا.

وفُقِد كل أثر لهؤلاء اللاجئين.

وقبل ذلك بأسابيع، كان مركبٌ يزدحم فيه قرابة مائة لاجئ أفريقي، يدفعهم الجوع لمحاولة بلوغ جزر الكناري، قد غرق في المحيط، مقابل سواحل السنغال. ولم ينجُ منه إلا اثنان فقط.[4]

وفي يوم 2005/5/28، كان جنود إسبانيّون، قد قَتَلوا رمياً بالرصاص، خمسةَ شبّانٍ أفارقة، كانوا يحاولون تسلّق الجدار المكهرب، والمكلّل بالأسلاك الشائكة، الذي يحيط بمحميّة "سويتا" (Ceuta) في الغرب. وبعد ذلك بثمانية أيام، قُتل أيضاً ستّة شبّانٍ أفارقةٍ آخرون، رمياً بالرصاص، في ظروف مماثلة.[5]

وهناك الآلاف من الأفارقة، بينهم نساء وأطفال، ينصبون خيامَهم إزاء حواجز مقاطعتي "ميليلا" (Melilla) و"سويتا" (Ceuta)، في صحراء الريف الحارقة. إلا أن رجال شرطة المغرب يردّون الأفارقة، بأمر من المسؤولين في "بروكسيل"، إلى الصحراء الكبرى.

دون ماء ودون غذاء.

ثمة مئاتٌ، وربما آلاف منهم، يموتون وسط صخور الصحراء ورمالها[6].

ما هو عدد الأفارقة الشبّان الذين يتركون كلّ عامٍ بلدانَهم، وهم يعرّضون حياتَهم للخطر، كي يحاولوا بلوغ أوروبا؟ تقدّر أعدادهم كلّ عامٍ بما يقارب المليونين، الذين يسعون للدخول بطرق غير مشروعة، إلى أراضي الاتحاد الأوروبي. كما يقدّر أنّ ما يقارب الألفين منهم

يموتون في البحر الأبيض المتوسط، وما يماثلهم في الأطلسي. أما هدفهم فهو تجاوز مضيقَ جبل طارق، انطلاقاً من المغرب، أو بلوغ جزر الكناري، انطلاقاً من موريتانيا أو السنغال.

وفقاً للحكومة الإسبانية، فإنّ (47.685) مهاجراً غير نظامي، بلغوا شواطئ إسبانيا عام 2006. ويجب أن نضيف إليهم (23.151) مهاجراً غير نظامي بلغوا الجزر الإيطالية أو جزيرة مالطا، انطلاقاً من الجماهيرية العربية الليبية أو تونس. وهناك مَن يحاولون بلوغَ اليونان أو ساحل إيطاليا الأدرياتيكي، مروراً بتركيا أو مصر.

يقول السيد "ماركو نيسكالا" (Markku NISKALA)، الأمين العام للاتحاد العالمي لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر:

« إنّ الصمت يغلّف هذه الأزمة على نحو مطلق. فلا يكفي ألا يكون هناك من يمدّ يد المساعدة لهؤلاء الناس الواقعين في أقصى ضيق، بل ليس ثمة أي منظمة تُجري حتى الإحصائيات الكفيلة بالكشف عن هذه المأساة اليومية ».[7]

إنّ الهرب بطريق البحر، للاجئين الأفارقة الجياع، قد مهّد له ظرفٌ خاص: إنه التدمير المتسارع الوتيرة، لجماعات الصيادين المتواجدين على شواطئ الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط. وذلك يعود إلى أن الدول الأفريقية تبيع حقوق الصيد للمشاريع الأجنبية. فإنّ "البواخر- المعامل"، اليابانية والكندية والبرتغالية والفرنسية والدانماركية الخ... تجتاح المياه الإقليمية. فيفقد الصيادون كلّ شيء، ويغرقون في البؤس واليأس، والعجز حيال اللصوص، فيبيعون مراكبَهم بأثمانٍ بخسة إلى عبّارين محتالين، أو هم يحاولون العبور بأنفسهم. إلا أنّ هذه المراكب، التي أُنشئت للصيد طوال الساحل في المياه الإقليمية، لا تصلح عموماً للإبحار في عرض البحر.

في أفريقيا، يعيش ما يقارب المليار من البشر. وما بين عام 1972 وعام 2002، ارتفع عدد الأفارقة الذين يعانون النقص من سوء التغذية على نحو متواصل وخطير، من (81) مليوناً إلى (203) ملايين.

لماذا؟

إنّ أسبابَ هذا الوضع متعدّدة. ويعود أهمّها إلى السياسة الزراعية المشتركة داخل الاتحاد الأوروبي.

إنّ الدول المصنّعة داخل الاتحاد الأوروبي، دفعت لمزارعيها ومربّي المواشي لديها عام 2006، أكثر من (350) مليار دولار، بصفة معونات للإنتاج والتصدير.

إنّ الاتحاد الأوروبي على نحو خاص، يسعى في أفريقيا إلى إغراق الأسواق بمنتوجاته الزراعية، بصفاقةٍ لا ترحم.

فينجم عن ذلك خصوصاً التدمير المنتظم للمنتوجات الزراعية الأفريقية الحيوية.

لنتخذ مثالاً على ذلك، أكبر سوق للمواد الاستهلاكية اليومية في أفريقيا الغربية، وهي المسمّاة "ساندانغا" (SANDANGA)، التي تشكل عالماً صاخباً، ملوّناً، دافقاً بالروائح، رائعاً، يقع في قلب "داكار".

تستطيع ربّة المنزل أن تشتري فيها، بحسب المواسم، الخضار والفواكه البرتغالية والفرنسية والإسبانية والإيطالية واليونانية الخ... بما يعادل ثلث أو نصف ثمن المنتوجات المحلية المماثلة.

وعلى بعد بضعة كيلومترات منها، وتحت شمسٍ حارقة، يعمل الفلاح مع زوجته وأولاده، حتى خمسة عشرة ساعةً يومياً... دون أن يتوفّر له بالمقابل أيّ نصيب في الحصول على الحد الأدنى اللائق.

في أفريقيا 52 بلداً أفريقياً، منها 37 بلداً زراعياً على نحو شبه كامل.

قلةٌ هم الناس الذين يعملون في الأرض، بقدر ما يعمل الفلاحون الأفارقة، وفي ظروفٍ تضاهي بصعوبتها ظروفَهم، في السنغال ومالي وبوركينا فاسو وكيفو.

إنّ سياسة أوروبا الرامية إلى إغراقهم بمنتوجها الزراعي، تدمّر حياتَهم وحياة أولادهم.

إنّ الاتحاد الأوروبي، كي يحمي أوروبا من لاجئي المجاعة، قد أقام تنظيماً عسكرياً شبه سري، يحمل اسم "فرونتكس" (FRONTEX).

إن هذه المنظمة تدير شؤون "الحدود الخارجية لأوروبا"، أي الحدود الواقعة خارج القارة الأوروبية.

إنّها تمتلك بواخر للمطاردة في عرض البحر، سريعة ومسلحة، وحوّاماتٍ قتاليّةً، وأسطولاً من طيّارات المراقبة، مزوّدة بكاميرات بالغة الحساسيةً وخاصّةً بالليل، ورادارات، وأقمار صناعيّة، ووسائل متطوّرة جداً للمراقبة الإلكترونية البعيدة المدى.

وتمتلك "فرونتكس" أيضاً، فوق التراب الأفريقي، "معسكرات استقبال"، حيث يُكدَّس لاجئو الجوع، القادمون أيضاً من أفريقيا الوسطى، الشرقية أو الجنوبية، من التشاد، وجمهورية الكونغو الديمقراطية، وبوروندي، والكامرون، والحبشة، والمالاوي، وزمبابويه الخ...

كثيراً ما يكون هؤلاء اللاجئون في الطريق عبر القارّة، منذ سنة أو سنتين، يتدبّرون العيش كيفما كان، يجتازون الحدود ويحاولون الاقتراب تدريجياً من الساحل. وعندها يقعون في قبضة رجال الفرونتكس، أو في قبضة مساعديهم المحليّين، المكلّفين بمنعهم من الوصول إلى مرافئ المتوسط أو الأطلسي.

ونظراً للمدفوعات الضخمة التي تقدّمها "فرونتكس" للحكومات الأفريقية، فإنّ القلّة منها ترفض إقامة هذه "المعسكرات".

وحدها الجزائر صانت شرفها.

فلقد قال الرئيس عبد العزيز بوتفليقا: "إننا نرفض هذه المعسكرات. ولن نكون أبداً سجّاني إخوتنا".

بغيضٌ هو دهاء المسؤولين في بروكسيل: فهم من جهة، ينظّمون المجاعة في أفريقيا، ومن جهة ثانية، يَصِمون بالإجرام لاجئي الجوع.

هذا الوضع، لخّصته السيدة "اميناتا تراوريه" (Aminata TRAURÉ)، على النحو التالي:

« إنّ الوسائل البشرية، والماليّة والتكنولوجيّة، التي تستخدمها أوروبا بدولها السبعة والعشرين، ضدّ موجات الهجرة الأفريقية، هي، في الواقع، وسائل حربٍ فعليّة ونظاميّة، بين هذه القوّة العالمية، وشبّان أفارقة، عزّل، من الريف والمدن، انتُهكت حقوقُهم في التربية والمعرفة الاقتصادية، وفي العمل والتغذية، في بلدانهم الأصليّة، في انتظار التغيير. إنّهم ضحايا قراراتٍ وخياراتٍ اقتصاديّةٍ ضخمة، ليسوا في أيّ حالٍ بمسؤولين عنها، وها هم يُطرَدون بلا حقوق، ويُهانون، إذا ما حاولوا أن يجدوا مخرجاً لهم في الهجرة. إنّ القتلى والجرحى والمعاقين، الذين خلّفتهم الأحداث الدامية في "سويتا" و"مليلا"، عام 2005، كما أنّ آلاف الجثث التي تخلّفها الأمواج كلّ شهر، على شواطئ موريتانيا وجزر الكناري و"لامبيدوزا" أو سواها، كلّهم ضحايا الهجرة القسرية والمُجرَّمة ».[8]

في شهر حزيران من عام 2007، عقد مجلس حقوق الإنسان دورتَه العادية الرابعة، في قصر الأمم في جنيف.

يوم الإثنين 11 حزيران: درس المجلس اقتراحاً بمنح لاجئي الجوع حقّهم في ألاّ يُبعَدوا بصورة مؤقّتة.

دعوني أوضّح: يجب أن نميّز بدقّة بين اللاجئين الاقتصاديّين ولاجئي الجوع. فاللاجئون الاقتصاديّون أناسٌ يهاجرون بدافع "الحاجة".

أمّا لاجئو الجوع فهم يهربون بدافع "الضرورة".

إنّ حالة الضرورة مفهومٌ معروفٌ جداً في الحقّ الدولي، وفي معظم الحقوق الوطنيّة.

مثلاً: سيارة إسعاف تسير بأقصى سرعة لتصل في أقرب وقت إلى جريح، وهي، إذ تفعل، تخالف واحدةً أو عدداً من قواعد السير، فهي تفعل ذلك بدافع "الضرورة". وإنّ مخالفتها لقانون السير تعتبر لاغيةً وغيرَ مهمّة.

كذلك هو حال لاجئي الجوع: إنّ البرنامج الغذائي العالمي يعيّن، شهراً بعد آخر، مناطق في الأرض، لم يعد البقاء فيها ممكناً، بفعل كوارث طبيعيّة (مثل الجفاف أو الجراد الخ...) أو بشريّة.

إنّ حال الضرورة يمكن التأكد منها موضوعيّاً.

إنّ الجائع، يضطرّ من أجل بقائه، لاجتياز الحدود. وهو يفعل ذلك في مخالفة للقانون. وإنّ خروجه على القانون يُعتبر لاغياً، بسبب حال الضرورة، التي هو فيها.

حتى الساعة، ليس بين أدوات الحقّ العالمي ما يُجيز "تبرئة" لاجئ الجوع. وإنّ شرعة الأمم المتحدة لحماية اللاجئين، الصادرة عام 1951، لا تمنح حقّ اللجوء إلا لمن يُضطهدون لأسباب عرقيّة، دينيّة أو سياسيّة. وإنّ هذه المعايير خاضعة للتحديد.

أما الشرعة من أجل حماية المهاجرين، التي تعود أدواتها إلى مكتب العمل العالمي (وليس إلى المندوب السامي للأمم المتحدة من أجل اللاجئين)، فليس في نصوصها ما يُجيز تبرئةَ لاجئي الجوع.

إنّ الهيئة الوحيدة المخوّلة لإصدار القوانين، هي مجلس الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، المؤلّف من 47 دولة عضواً فيه، تنتخبُها الهيئة العامة في نيويورك، وفق نسبةٍ محدّدةٍ لكلّ قارّة، لمدّة ثلاث سنوات، قابلة للتجديد.

يوم الإثنين 2007/9/11، الساعة 18، كانت القاعة الثانية

والعشرون من البناء الشرقي الملحق بقصر الأمم، تغصّ بحضور مشحون. وكان في جدول أعمالها، اقتراح بإحداث قانونٍ للّجوء المؤقّت، لصالح لاجئي الجوع.

باسم الاتحاد الأوروبي، رفضت السيّدة "انكه كونراد" (Anke KONRAD) معالجة الموضوع[9].

في إمبراطوريّة العار، التي تحكمها سياسة التجويع المنظّم، لم تعد الحرب حالةً طارئةً بل هي حالةٌ دائمةٌ، وهي لا تشكّل وضعاً مَرَضياً، بل وضعاً طبيعيّاً. وهي لم تعد تعني كسوفَ العقل، بل هي مبرّر وجود هذه الإمبراطوريّة.

فإنّ سادة الحرب الاقتصاديّة قد أخضعوا الكرة الأرضيّة، لتخطيطٍ محكم. فهم يهاجمون السلطة النظاميّة للدول، ويشكّكون في سيادة الشعوب، ويفسدون الديمقراطيّة، ويدمّرون الطبيعة، ويحطّمون البشر وحريّاتِهم.

أما مرتكزهم الفلسفي، فهو تعميم هذا الاقتصاد، ودسّ "يدهم الخفيّة" التي تحرّك السوق، فيما الزيادة القصوى في الأرباح هي قاعدتهم العمليّة. إني أسمّي هذه الفلسفة وهذه الممارسة عنفاً بنيويّاً.

إنّ الدَّين والجوع هما سلاحا التدمير الشامل، اللذين يستخدمهما سادة الأرض، ليستعبدوا الشعوب، ويسرقوا قوّة عملهم وموادّهم الأولى وأحلامهم...

إنّ كوكبَنا يضمّ (192) دولةً، منها (122) تقوم في نصفه الجنوبي، ويتجاوز مجموع ديونِها الخارجية (2100) مليار دولار.

إنّ للديون الخارجية فعلَ حبلِ المشنقة. إنّ جوهرَ القطع النادر، الذي يكسبه أحد بلدان العالم الثالث بفضل صادراته، يُستخدَم في تسديد قسم من فوائد الدَّين.

وإنّ مصارف الشمال الدائنة تمتصّ الدماء كالعلَق. فيُصاب البلد المديون بالوهن.

ويَحُول الدَّين دون الاستثمار الاجتماعي المجدي، في الرّيّ والبنى التحتيّة الطرقيّة، والمدرسيّة والصحيّة، وبأولى حجّةٍ في الصناعة أيّة كانت.

أمّا البلدان الأكثر فقراً، فما من تطوّرٍ دائمٍ ممكنٍ بالنسبة إليها.

إنّ المجزرة اليومية التي يسبّبها الجوع، تتواصل في رتابة جليديّة. ففي كلّ خمس ثوانٍ، يموت من الجوع طفلٌ دون العاشرة. وفي كلّ أربع دقائق، هناك مَن يُصاب بالعمى، نتيجةَ افتقارِه إلى فيتامين A.

في عام 2006، أصيب (854) مليون إنسان - أي بنسبة واحد إلى ستّة من سكان الأرض - بنقصٍ في التغذية، خطيرٍ ودائمٍ، فيما كانوا عام 2005، (842) مليوناً.

إنّ تقرير الغذاء العالمي، الصادر عن منظمة الغذاء العالميّة، الذي يعطي هذه الأرقام، يؤكّد أنّ الزراعة العالميّة تستطيع، في وضعها الراهن من تطوّر قواها الإنتاجية، أنّ تغذّي بصورة طبيعية (أي بواقع 2700 حريرة يومية للفرد البالغ) 12 مليار إنسان.

نحن اليوم نبلغ 6.2 مليار إنسان على الأرض.

النتيجة: ليست هناك أيّة حتميّة. وكلّ طفلٍ يموت جوعاً، هو يُقتل قتلاً.

إنّ النظام العالمي، الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، الذي بنته الرأسماليّة السارقة، ليس قاتلاً وحسب، بل هو أيضاً عبثي.

إنّه يقتل، ولكنّه يقتل دونما ضرورة.

يجب أن يواجَه بمقاومة جذريّة.

وإنّ كتابي هذا يريد أن يكون سلاحاً في هذه المعركة.

أين الرجاء

إنّه في رفض الإنسان رفضاً مدروساً، التسليم الدائم بعالم يغذّي فيه بؤس الغالبيّة، ويأسها واستغلالها وجوعها، الرفاه النسبي لأقليّة، بيضاء بصورة عامة، وهي في الغالب، لا تدرك الحقيقة.

إنّ الأوامر الأخلاقيّة قائمةٌ في كلّ واحد منّا.

يتوجّب علينا إيقاظها، وحشد المقاومة وتنظيم المعركة.

أنا هو الآخر، والآخر هو أنا. وإنّ اللاإنسانيّة التي أُنزِلها بغيري، تدمّر الإنسانية فيّ.

كتب "كارل ماركس" يقول:

"يتوجّب على الإنسان الثوريّ أن يكون قادراً على سماع نموّ العشب".

ما بين 5 و7 حزيران (يونيو) عام 2007، عُقِد اجتماع رؤساء دول وحكومات أقوى ثماني دول في العالم، في منتجع "هايليغندام" (Heiligendamm)، بألمانيا، على بحر البلطيق.

وُضعت شبكةٌ معدنيّةٌ ضخمةٌ في البلطيق، وأُقيم جدارٌ، وأسلاكٌ شائكةٌ امتدّت على مسافة 12 كيلومتراً. وكان هناك سبّاحون مقاتلون، وباخرةٌ حربيّةٌ أميركيّةٌ، وحوّامات آباتشي السوداء، و(16000) شرطي، وفرقٌ من جنود النخبة والقنّاصة، اتّخذت مواقعَها فوق أسطح جميع القرى المجاورة. كلّ ذلك من أجل حماية منتدى الثمانية.

وكان يتابع الحدث خمسة آلاف صحفيّ، قَدِموا من العالم أجمع، وأقاموا في بلدة "كوهلنبورن" (Kühlenborn) المجاورة.

وفي "هايليغندام" (Heiligendamm)، حاول كلّ من فلاديمير بوتين، وأنجيلا مركل، وجورج بوش ونيقولا ساركوزي، أن يتصرّفوا بوصفهم "سادة الأرض".

إنّها محاولةٌ خجول، تداني السخف.

في شهر حزيران (يونيو) عام 2006، فرضت أقوى 500 شركة عالميّة، رقابتَها على أكثر من 52٪ من النتاج العالمي الخام، أي على جميع الثروات (رؤوس أموال، خدمات، بضائع، براءات brevets، الخ...) المنتجة في عام واحد على الأرض.

كانت أفريقيا في قلب المناقشات.

كانت أهم نقطتين في جدول الأعمال، تتعلّقان، من جهة، "بضمان الاستثمارات الخاصة"، ومن جهة ثانية، "بمجموع حماية البراءات (brevets)".

ولم تكن كلمة "جوع" مدرجةً في جدول أعمال "هايليغندام".

وكانت، خلف الجدار، تمتدّ فوق أرض "مكلنبورغ" الرملية، وعلى امتداد النظر، الخيم والملاجئ المرتجلة لمقاومي منتدى الثمانية.

كنّا أكثر من 150.000 شخص، قَدمنا من 41 بلداً، ونمثّل عدداً لا حصر له من الحركات الاجتماعيّة والكنائس والنقابات. وطوال مدّة القمّة، عُقدت 120 حلقة، ونقاشاتٌ عامّة، وأمسياتٌ ليليّة. ونوقشت مواضيع الديون، ولاجئي الجوع، والحقّ في ماء الشرب، والصراع ضدّ النباتات المعدَّلة جينياً، ونقل المشاريع من بلدانها، والتمييز في رواتب النساء، واستقلال المصارف المركزيّة، والسكن غير الصحي، وضرب الزراعة في بلدان العالم الثالث، والإرهاب، والتنظيم العالمي للتجارة، والخصخصة القسرية للقطاعات العامة.

يقول فكتور هوغو: "تريدون مساعدة الفقراء... أريد إلغاء البؤس".

إنّ ضميراً جماعياً جديداً، وأُخوّةً خفيّةً ضخمةً، وعدداً لا يُحصى من بؤر المقاومة المحليّة (التي ستُنظّم في المستقبل)، كلّ ذلك أخذ يذرّ قرنَه.

إنّ مجتمعاً مدنيّاً وكونيّاً، جديداً، يبرز من تحالف جميع هذه الضمائر المستيقظة.

وهو يحمل رجاءً بعالم مدعو للعدالة والتعقّل والسعادة.

إنّ مآل الصراع ليس بمضمون.

ولكن ثمّة يقينٌ قائمٌ، يشير إليه "بابلو نيرودا" (Pablo NERUDA) في ختام "النشيد العام":

« يستطيع أعداؤنا أن يقطعوا جميع الورود.

ولكنهم، أبداً، لن يكونوا سادة الربيع ».[10]

جان زيغلر

جنيف - أيلول (سبتمبر) 2007

أضواء

عام 1776، عُيّن "بنجامان فرانكلين" أوّل سفيرٍ في فرنسا، للجمهوريّة الأميركيّة الفتيّة. كان له من العمر سبعون عاماً. وقد وصل إلى باريس في 21 كانون الأول، عن طريق مدينة "نانت" (NANTES)، بعد رحلةٍ طويلةٍ وخطيرةٍ على متن الباخرة "ريبريزال" (REPRISAL).

وأقام العالِم الكبير في بيتٍ متواضعٍ في منطقة "باسي" (PASSY). وأخذ المخبرون الصحفيون بسرعة كبيرة، يترصّدون كلّ حركاته وسكناته.

وكتب مراسل "الغازيت" (La Gazette): "ما من أحد يدعوه "سيّد"... والكلّ إذ يتوجّه إليه، يخاطبُه بكلّ بساطةٍ بعبارة: "دكتور فرانكلين... كما لو كانوا تصرّفوا مع أفلاطون أو سقراط". وقال آخر: "لم يكن "بروتيه" (Protée) في نهاية المطاف إلاّ إنساناً. وكذلك هو بنجامان فرانكلين... ولكن يا لهم من رجال[11]".

كان "فولتير" (Voltaire) في الرابعة والثمانين، وما كان عملياً ليخرج قط من منزله، إلا أنه مضى إلى الأكاديمية الملكية ليستقبل "بنجامان فرانكلين" استقبالاً حافلاً.

كان "بنجامان فرانكلين" قد صاغ مع "توماس جيفرسون" (Thomas Jefferson)، إعلان استقلال الولايات المتحدة، الموقّع يوم 1776/7/4، في "فيلادلفيا"، فجلب له ذلك فوراً، في الدوائر الثورية والصالونات الأدبية بباريس، شهرةً واسعةً. ما الذي جاء في هذا الإعلان؟ فلنُعِد قراءة مقدّمته:

« نعتبر الحقائق التالية صريحة الجلاء في ذاتها: جميع الناس خُلِقوا

متساوين. والخالق منحَهم حقوقاً لا تُمسّ، أوّلها: الحقّ في الحياة، الحقّ في الحريّة، الحقّ في السعادة. [...]

"إنّ البشر، في سعيهم إلى التمتّع بهذه الحقوق، وهبوا أنفسَهم حكومات، تعود شرعيّة السلطة فيها إلى تأييد المحكومين [...] وعندما تبتعد حكومةٌ ما، أياً كان شكلها، عن هذه الأهداف، يعود للشعب الحقّ في استبدالها أو إلغائها، ومن ثمّ إقامة حكومةٍ أخرى، يؤسّسها على هذه المبادئ، وينظّمها وفقَ الشكل الذي يرى فيه ضمانةَ أمنه وسعادتِه ».

كان مقهى "بروكوب" (Procope)، الواقع في قلب الحيّ اللاتيني، المكان المفضل لدى الثوّار الشبّان. وكانوا يعقدون فيه اجتماعاتهم، وينظّمون احتفالاتهم. وكان "بنجامان فرانكلين" يتناول فيه الطعام بين حينٍ وآخر، بصحبة الحسناء مدام "بريون" (Brillon).

ذات مساءٍ، بادره محامٍ شاب يدعى "جورج دانتون" (Georges DANTON)، بنبرة صوت عالية: "العالم ليس سوى ظلم وبؤس. فأين هو العقاب؟ أما إعلانك، فليس له، كي يكون مطبّقاً، أي سلطة، لا قانونيّة، ولا عسكرية..."

أجابه "فرانكلين": "يا للخطأ! فخلف هذا الإعلان، تقوم سلطةٌ هائلةٌ، أبديةٌ: إنها سلطة العار!".

يقول "قاموس روبير الصغير" (Le Petit Robert) عن العار: "إنه خزيٌ مُذِلّ. [...] شعورٌ قاسٍ بالدونيّة، باللاجدارة أو بالإذلال إزاء الآخر، بالمهانة في نظر الآخرين (شعور بالخزي). [...] شعورٌ بالانزعاج يستبدّ بالوجدان".

إنّ هذا الشعور وهذه المشاعر التي يثيرها، يعرفها جيّداً جياعُ حيّ "بيلا بوركو" (Pela Porco)، في مدينة "السلفادور" البرازيليّة:

"يتوجّب عليّ أن أقهر شعوري بالعار، كي أستطيع أن أنبشَ في الحاويات".

وإن لم يستطع الجائع أن يقهر شعوره بالعار، فهو يموت جوعاً.

في المدرسة، يحدث لأطفالٍ برازيليّين أن يسقطوا من الإعياء، بسبب الأنيميا. وفي ورشات العمل، يحدث أن يتهاوى العمال من افتقارهم إلى الغذاء. وفي مدن الصفيح، في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينيّة، هذه المدن التي أطلقت عليها الأمم المتحدة عبارة "مساكن غير صحيّة"، وحيث يعيش 40٪ من سكان العالم، فإنّ الجرذان تزاحم ربّات البيوت على مؤونة العائلة الهزيلة. إنّ الشعور بالدونيّة يعذّب السكان.

إنّ جموع الجياع التائهين في حارات المدن الكبرى، في آسيا الوسطى وأفريقيا السوداء، يعانون، هم أيضاً، من الشعور بالعار.

إنّ الشعور بالخزي يمنع العاطل عن العمل من الدخول بأسماله الرثّة إلى الأحياء الراقية، حيث قد يتسنّى له، مع ذلك، أن يجد عملاً يغذّيه ويغذّي أسرته. إنّ الشعور بالعار يمنعه من التعرّض لأنظار المارّة.

في أحياء الصفيح في شمال البرازيل، درجت الأمّهات، مساءً، على عادة وضع الحصى في طناجر تغلي ماؤها فوق النار، وهنّ يقلن لأطفالهنّ الباكين من الجوع: "سيكون الطعام جاهزاً قريباً..."، وهنّ يرجون في هذه الأثناء أن يستسلم الأطفال للنوم. هل مَن يدرك الشعور بالعار الذي يجلد الأمّ إزاء أطفالها المتضوّرين جوعاً، وهي تعجز عن إطعامهم؟

إنّ "إدمون كايزر" (Edmond KAISER)، في صباه، أفلت من شرطة "فيشي" (VICHY) ومن الاعتقال. وعندما أصبح محقّقاً عسكريّاً في جيش الجنرال "لوكلير" (Leclerc)، اكتشف في مقاطعة الألزاس، ثم في ألمانيا، هول المعتقلات النازيّة، فآثر العيش في "لوزان" (Lausanne)، حيث أسّس منظمة عالميّة لمساعدة الطفولة، سمّاها "أرض البشر" (Terre des Hommes). وقد توفّي في الثانية والثمانين، على عتبة الألفيّة الجديدة، في أحد المياتم في جنوب الهند[12].

وقد كتب ادمون كايزر:

« لو كان لنا أن نرفع غطاء العالم، لكان صراخه دحر السماء والأرض. ذلك بأنّ ما من أحدٍ، لا في السماء ولا في الأرض، ولا بين البشر، قد أدرك حقّاً الحجم المرعب لبؤس الأطفال، ولا ثقل القوى التي تطحنهم.[13] »

إنّ الكثيرين من الغربيّين، المطلعين على نحوٍ تامّ، على آلام الجياع الأفارقة أو العاطلين عن العمل في باكستان، لم يعودوا، في أعماقهم، يستطيعون أن يتحمّلوا إلاّ بصعوبة، تواطؤهم اليومي مع نظام عالمي يأكل البشر. وهم يشعرون، نتيجة ذلك، بالخجل، الذي يحلّ محلّه على الفور، شعورٌ بالعجز. إلاّ أنّ قلّةً منهم يجدون - على مثال ادمون كايزر - شجاعة مواجهة هذا الواقع القائم. وهنا لكم يغري الإنسان، كي يسكّن اضطراب الوجدان لديه، أن يلجأ إلى تفسيرات تسويغيّة!

ويقال ببساطة إنّ الشعوب المثقلة بالديون في أفريقيا، هي شعوبٌ "كسولة"، "فاسدة"، "غير مسؤولة"، عاجزة عن بناء اقتصاد مستقلّ، إنّهم "شعوب ولدت في الديون"، وهي بالتالي عاجزة عن الإيفاء بها. وأمّا الجوع، فكثيراً ما يستعين بعضهم بالمناخ ليفسّروه... في حين أن الظروف المناخية في القسم الشمالي من الأرض - حيث يشبع الناس - لا تُقارن من حيث قسوتها، بما هي عليه في القسم الجنوبي منها، حيث يَنفُق الناس من سوء التغذية والجوع.

ولكن الخجل يسكن السادة أيضاً. فإنّ هؤلاء على بيّنةٍ تامّة من نتائج أعمالهم: فثمّة تدمير العائلات، وعذاب العمال القليلي الأجور، الذي يداني الاستشهاد، ويأس الشعوب غير المنتجة. كلّ ذلك ليس بخافٍ عليهم.

بل هناك مؤشّرات تشهد على ما ينتابهم من انزعاج. من ذلك مثلاً أنّ "دانيال فاسيلا" (Daniel VASELLA)، أمير "نوفارتيس"

(Novartis)، وهي الشركة السويسريّة العملاقة في صناعة الأدوية، قد بنى في "سنغافورا" "معهد نوفارتيس للأمراض الاستوائية"، الذي يتوجّب عليه أن ينتج، بكميّات محدودة، أقراصاً ضدّ الملاريا، وهي دواءٌ سيُباع بثمنٍ كلفته في البلدان الفقيرة.

وإنّ سيّد شركة "نستله" (NESTLÉ)، وهو "بيتر برابيك - لومات" (Peter Brabech-Lemathe)، يسلّم كلاً من عمّاله البالغ عددهم (280.000)، والعاملين في ستّة وثمانين بلداً، "كتاب توصيات"، خطّه بيده، وهو يُملي عليهم ضرورة السلوك على نحوٍ إنساني و"خيّر"، حيال الشعوب التي يستغلّونها.

ويرى "عمانوئيل كانت" (E. KANT) أنّ الشعور بالخجل، ينجم عن الشعور بانعدام الشرف. وهو يعبّر عن التمرّد إزاء سلوك، ووضع، وأعمال، وغايات مذلّة، سافلة، دنيئة، تتعارض مع "الشرف الناجم عن كون الإنسان إنساناً". وهو، إذ يعبّر عن العار بمجمل معانيه، يعتمد تعبيرين يستحيل ترجمتُهما عمليّاً باللغة الفرنسيّة (die schande) و(die scham). إنّي خجلٌ (Cham) من الإهانة النازلة بغيري، والحالّة، في الوقت نفسه، بشري، بوصفي إنساناً (Schande).

إنّ إمبراطورية العار يحدّها أفق الذلّ الحالّ بكلّ إنسان، من جرّاء ألم البشر.

في ليلة الرابع من شهر آب عام 1789، ألغى النوّاب الذين كانوا يؤلّفون الجمعيّة الوطنيّة، نظام الإقطاع في فرنسا. والحال، أنّنا اليوم نعيش عودةَ الإقطاع على نطاق العالم. ولقد عاد السادة المستبدّون. والإقطاعيّات الجديدة الرأسماليّة تملك الآن سلطة لم يُتِح لأيّ إمبراطور، ولأيّ ملكٍ، ولأيّ بابا أن يملكَها قبلها.

إنّ أقوى الشركات الرأسماليّة الخمسمائة الخاصّة، والعابرة للقارّات في العالم - في نطاق الصناعة والتجارة والخدمات والمصارف - كانت،

عام 2006، تسيطر على 52٪ من الناتج العالمي الخام، وبعبارةٍ أوضح، أكثر من نصف الثروات الناتجة في عامٍ واحدٍ على كوكبنا.

أجل، إنّ الجوع والبؤس وسحق الفقراء، قد بات أفظع من أيّ وقت مضى.

إنّ اعتداءات 11 أيلول عام 2001 في نيويورك، وواشنطن وبنسلفانيا، قد أحدثت تسريعاً مأساويّاً في عمليّة إعادة الإقطاع إلى العالم. ولقد كانت الفرصة التي أتاحت للمتسلّطين الجدد، أن يستولوا على العالم، وأن ينهبوا دون منازع، مصادر ضروريّة لسعادة البشريّة، وأن يدمّروا الديمقراطيّة.

إنّ آخر سدود الحضارة توشك أن تنهار. والقانون الدولي يحتضر. ومنظمة الأمم المتحدة، وأمينها العام، في وضع سيّئ ومدان. والبربريّة المتسلّطة على العالم تتقدّم بخطواتٍ عملاقةٍ. ولقد وُلد هذا الكتاب من قلب هذا الواقع الجديد.

إنّ الشعور بالعار هو أحد العوامل المكوّنة للأخلاق. وهو لا ينفصل عن ضمير الهويّة الذاتيّة، التي تكوّن بدورها الشخص البشري. فإذا ماجُرِحتُ، وإذا ما كنتُ جائعاً، وإذا كنتُ - في جسدي وفي فكري - أعاني مذلّة البؤس، أشعر بالألم. وإذا ما شاهدت الألم الحالّ بإنسان آخر، أشعر، في وجداني، بشيء من ألمه. وهذا الألم يثير بدوره لديّ تعاطفي، ويستنهضني في اندفاعة تضامنٍ، ويُثقلني أيضاً بالخجل، فأتحفّز للعمل.

وأنا أعرف، بحدسي، بتفكيري، بإحساسي الأخلاقي، أنّ لكلّ إنسان حقّاً في العمل، في الغذاء، في الصحة، في المعرفة في الحريّة وفي السعادة.

وإذا كان وعي الهويّة الذاتيّة، يسكن كلّ إنسان، وبالتالي أيضاً المتسلّطين على العالم، فكيف تُراهم يتصرّفون على هذا النحو المدمّر؟

كيف لنا أن نفسّر مقاومتهم، على مثل هذا النحو من اللامبالاة، والوحشيّة والخبث، التطلّعات الطبيعيّة إلى السعادة؟

لقد سقطوا في هذا التناقض الأساسي: أن تكون إنساناً، ولا شيء سوى إنسانٍ، أو أن تغتني وتسيطر على الأسواق، وتمارس جميع السلطات، وتصبح السيّد. وهم يعلنون حالة الطوارئ، باسم الحرب الاقتصاديّة، التي يشنّونها باستمرارٍ على منافسيهم المفترضين. ويقيمون نظاماً استثنائيّاً، خارجاً على الأخلاق العامّة، ويعلّقون أحياناً، ربّما على مضض، الحقوق الإنسانيّة الأساسيّة (التي تؤيّدها جميع شعوب الأرض) والقواعد الأخلاقيّة (التي تؤكّدها مع ذلك الأنظمة الديمقراطيّة)، والمشاعر العاديّة (التي لم يعودوا يمارسونها إلاّ ضمن العائلة أو مع أصدقائهم).

وإذا ما أعربتُ عن تعاطفٍ، وإذا ما أبديتُ تضامناً مع غيري، فإنّ منافسي سيستغلّ على الفور ضعفي هذا، وسيدمّرني. فأجدني، بالتالي، على مضض، وفي خجلٍ مقهورٍ، مضطرّاً، في كلّ لحظةٍ من النهار والليل، وأيّاً كانت الكلفة البشريّة التي سأدفعها، لأن أمارس السعي وراء أكبر كسبٍ من الأرباح والمصالح، ولأن أضمن أعظم قدرٍ من المرابح، في أقصر وقتٍ ممكنٍ، وبأقلّ كلفةٍ ممكنةٍ.

إنّ الحرب الاقتصاديّة الدائمة، المزعومة، تقتضي تضحياتٍ، مثلها مثل كلّ حربٍ. إلاّ أنّ هذه تبدو خاضعةً لبرنامجٍ دقيقٍ بحيث لا تُعرف لها نهاية.

إنّ العديد من النظريّات والإيديولوجيّات التافهة، تشوّش وجدان الرجال والنساء الطيّبين في الغرب. ولهذا السبب، يرى الكثيرون منهم أنّ نظام العالم الراهن والمفترس، نظامٌ لا يمكن تغييرُه. وإنّ هذا الاعتقاد ليمنعُهم من أن يترجموا شعور الخجل القابع في أعماقهم، إلى أفعال تضامنٍ وتمرّد.

من هنا كان الرهان الأول على تدمير هذه النظريّات.

إنّ رسالة الثوار التاريخيّة، كما رسمها "ثوار" عام 1793، تقوم على

القتال من أجل عدالة اجتماعيّة عالميّة. فيترتّب عليهم أن يوقظوا حالات الغضب الكامنة، وأن يحرّضوا هوى المقاومة الديمقراطيّة الجماعيّة. ويتوجّب إعادة العالم إلى قوامه، فيكون رأسه في الأعلى، وأقدامه في الأسفل. ولا بدّ من أن تُسحَق يد السوق الخفيّة. فالاقتصاد ليس ظاهرةً طبيعيّةً. وهو ليس سوى أداةٍ، يجدر بنا أن نضعَها في خدمة هدفٍ وحيدٍ: البحث عن السعادة الجماعيّة.

وإنّه ليسع إنسان العالم الثالث، المسكون بالعار، المجبول بشعور الدونية القهّار، وبعدم جدارته، إذ يكتشف أنّ الجوع والدَّين ليسا حتميّين، أن يزداد وعياً وينهض. فإنّ الجائع والعاطل عن العمل والذليل، إذ يعاني من شعوره بالذلّ، يزدرِد عارَه، طالما هو يعتقد أنّ وضعَه لا يمكن تغييرُه. وهو يتحوّل إلى مقاتلٍ، ومتمرّدٍ، وثائرٍ، لحظةَ يشرقُ الأمل، وتتكشّف الشروخ في الحتميّة المزعومة. وعندها تصبح الضحيّة صانعةَ مصيرِها. وإنّي لأرمي من وضع هذا الكتاب، إلى تحريك هذه السيرورة.

لقد كان "بنجامان فرانكلين" و"توماس جيفرسون"، هما أوّل من عبّر عن حقّ الإنسان في البحث عن السعادة. وقد استعاد "ثوار" "جاك رو" (Jacques ROUX) هذا المطلب، فبات المحرّك الأكبر للثورة الفرنسيّة. وكانوا يرون أنّ فكرة السعادة الفرديّة والجماعيّة، تختزل مشروعاً سياسيّاً، شاؤوا له أن يُطبَّق على نحوٍ فوري وملموس.

ما هي العقبات التي تحول اليوم دون تحقيق حقّ الإنسان في البحث عن السعادة؟ كيف لنا أن نفكّك هذه العقبات؟ كيف يُفتح الطريق واسعاً أمام البحث عن السعادة الجماعيّة؟ إن هذا الكتاب يحاول الإجابة عن هذه الأسئلة.

هوذا مخططه:

لقد أدخلت الثورة الفرنسيّة قطيعةً جذريّةً في تاريخ الأفكار العام.

وترجمت سياسيّاً المبادئ الفلسفيّة لعصر الأنوار، وللعقلانيّة المحرّرة. وإنّ بعض أبطالها الرئيسيّين، ولا سيّما منهم "الثوار"، قد رسموا آفاق جميع المعارك القائمة آنذاك والآتية، من أجل العدالة الاجتماعيّة الكونيّة. فإنّ القسم الأول، وهو بعنوان: "في حقّ السعادة"، يترك لهم الكلام. إلاّ أنّ هذا القسم يصف أيضاً حركة إعادة الإقطاع الحالية على نطاق العالم، التي تقوم بها الشركات الرأسماليّة الخاصة والعابرة للقارّات، كما هو يصف نظام العنف البنيوي الذي تنشئه، والقوى التي لا تزال خفيّةً، التي تنتصب في وجهها. ثمّة قسمٌ هامٌّ فيه يعالج احتضار القانون.

ويطرح القسم الثاني التصوّر العام لعلاقات السبب والنتيجة، بين الدَّين والجوع، وهما سلاحا تدميرٍ شاملٍ، يُستخدمان ضد أضعف الشعوب! الجوع؟ يسعنا أن نقهرَه خلال فترةٍ وجيزةٍ، إذا ما فُرِضت بعض الإجراءات على مَن يستخدمون هذين السلاحين.

إنّ الشعبَ الأثيوبي، الذي يعاني من مجاعةٍ مزمنةٍ، ومن انهيارٍ في سعر مادّة التصدير الوحيدة - حبّة القهوة - الذي يستطيع أن يحوّله إلى قطعٍ نادرٍ، يتألّم، ولكنه ينظّم نفسه. وفي الطرف الآخر من العالم، في البرازيل، بدأت ثورةٌ صامتةٌ مسيرتَها: فإنّ هذا البلد، الذي يعاني هو أيضاً من سوء تغذية مزمنٍ، يصيب قطاعاً واسعاً من سكانه، ومن دَينٍ ساحقٍ، قد أخذ يصنع أدواتٍ غيرَ معهودةٍ من أجل تحرّره. وإني لأخص هذه المحاولات غير المألوفة في الصراع والمقاومة، بالقسمين الثالث والرابع منه.

إنّ الشركات الخاصّة، العابرة للقارّات، التي تملك أعظم ما عرفته البشريّة من تكنولوجيا ورساميل ومخابر، تشكّل العمود الفقريّ لهذا النظام الظالم والقاتل. وإني لأسلّط الضوء في القسم الخامس من كتابي هذا، على أحدث ممارساتهم.

إنّ المعركـة وليـدةُ المعرفـة، والمعركـة تلـد الحريّـة والظـروف الماديّـة للبحث عـن السـعادة. إنّ تـدمير النظـام العـالمي المفـترس هـو مـن شـأن الشعوب. ولقد كتب "ريجيس دوبريه" (Régis Debray):

« إنّ مهمّة المثقّف هي التعبير عمّا هو قائمٌ. فليس له أن يُغري، بل أن يُسلِّح ».

ولنصـغِ أيضـاً إلى "غراكـوس بـابوف" (Gracchus Babeuf)، الـذي ألقـى هـذا الخطـاب، في أعقـاب مجـزرة سـاحة "الشـان دو مـارس" (Champ-de-Mars):

« أيّها الدهاة، إنكم تدّعون أنه لا بدّ من تجنّب الحرب الأهليّة، وأنّه لا يجوز أن نلقي بين أبناء الشعب نارَ الخلاف. فهل من حربٍ أهليّةٍ تثير الغضب، أكثرَ من تلك التي تضع جميع القتلة من جهةٍ، وجميع الضحايا العزّل من جهةٍ ثانيةٍ؟

ولنبدأ المعركة في سبيل الهدف العظيم، هدف المساواة والملكيّة!

وليهدِمِ الشعب جميعَ المؤسّسات البربريّة السابقة. وأمّا حرب الغـني ضدّ الفقير، فلتكفّ عن اتخاذ طابع الشجاعة المطلقة من جهةٍ، والجبانـة المطلقة من جهةٍ أخرى. أجل، أكرّر قولي، إن جميع الشرور قـد بلغـت ذروتها، ولم يعد بوسعها أن تتفاقم. ولا يمكن إصلاحها إلا "بثورة شاملة.

وإني لأريد أن أساهم في تسليح الضمائر، في سبيل هذه الثورة ».

مراجع المقدمة

1 راجع صحيفة "البابيز"، مدريد، 2007/5/13 – كانت تلك الليلة، ليلة الجمعة 11 إلى السبت 2007/5/12.

2 هي منظمة أمنية دولية، مهمتها مراقبة وحماية حدود أوروبا.

3 ذكرت في صحيفة "ليبيراسيون" الفرنسية، باريس، في 2007/5/27.

4 صحيفة "لوكوربيه" (Le Courrier) الصادرة في جنيف، في 2006/12/10.

5 منظمة العفو الدولية – 2005/10/6.

6 منظمة حقوق الإنسان، 2005/10/13.

7 صحيفة "منبر جنيف" (LA TRIBUNE de GENÈVE) 2006/12/14.

8 "اميناتا تراوريه"، مداخلة في المؤتمر الاجتماعي العالمي، نيروبي، 2007/1/20.

9 من الأول من كانون الثاني (يناير) إلى 30 حزيران (يونيو) عام 2007، كانت ألمانيا هي التي ترأس الاتحادالأوروبي.

10 بابلو نيرودا، "النشيد العام"، 1954.

11 ذكر ذلك (H. W. BRANDS) في كتاب "الأميركي الأول. حياة وزمان بنجامان فرانكلين"، نيويورك، Random House, Anchor Books، عام 2002، ص 258.

12 كان قد مضى إلى هناك، كما قال لي إبان لقائنا الأخير، "ليعزي الصغار". وفي ذلك اليوم، قد أضاف يقول: "لم تعد لي القدرة على تغيير أوضاعهم!".

13 ادمون كايزر. "ملف أسود/أبيض. لوزان. دار نشر (Sentinelles) عام 1999.

القسم الأول

الحق في السعادة

I- شبح الحرية

كان صيف عام 1792، في باريس، على أقصى قدرٍ من البؤس. فالجوع يحوم في ضواحيها. وكان قصر الملك، المسمّى "التويلوري" (TUILERIES) يسكن مخيّلات الجياع. وكانت الشائعات تسرح وتمرح. فثمّة جبالٌ من الخبز وتلالٌ من اللحم، تتكدّس في القصور الملكية...

خلال ليلة التاسع إلى العاشر من شهر آب، شعشعت الأنوار في "أوتيل دو فيل" (Hôtel de Ville). والحركة فيه كانت على أشدّها. وكان النوّاب يفدون إليه من جميع الأحياء وجميع الضواحي. إنّهم يتشاورون، ويتفاوضون، وها هم يعلنون مع الفجر التمرّد العام في باريس. لقد حُلّت البلديّة القديمة لمدينة باريس.

وأُلغي الحرسُ الوطنيّ، إذ قُتِل قائدُه العام "ماندا" (MANDAT)، وحلّ محلّه "سانتير" (SANTERRE).

وقرّر المتمرّدون الهجوم على قصر "التويلوري". فتوجّه نحوه فصيلان من النساء والرجال، مسلّحان بالبنادق، والمعاول والخناجر، وقد أحاطت بهم مجموعاتٌ من الثوار. وقَدِم الفصيل الأوّل من ضاحية "سانت أنطوان"، القائمة على ضفّة نهر السين اليمنى، بينما قَدِم الثاني من الضفّة اليسرى.

كان المدافعون عن القصر الذي كان شبه خالٍ، مائةً وواحداً وسبعين من المرتزقة السويسريّين. فقُتلوا جميعاً حتى آخرهم.

واستولى السارقون على كنوزه - من أثاثٍ وألبسةٍ وأواني الموائد الخ... التي اكتشفوها في القصر، ومضوا بها. وعندما أطلّت طلائعهم، وقد حملوا غنائمهم على ظهورهم، عند ضفاف "السين"، أوقفهم رجال الميليشيات، وكانوا في معظمهم "يعقوبيّين"، وشنقوهم على أعمدة المصابيح. فالنهب والمساس بالملكيّة الخاصّة، حتى لو كانت ملكيّة الملك، على بغضهم الكبير له، يُعاقَبان بالموت. وقد تجلّت من خلال هذا الحادث المتعلّق بحفظ النظام، قيمةً مركزيّةً - هي احترام الملكيّة الخاصّة، احتراماً مطلقاً - التي كان يتناقلها وجدان الطبقة الجديدة الصاعدة، طبقة البورجوازيّة التجاريّة والصناعيّة الأولى. ولقد قُيّض لها سريعاً أن تحتكر الثورة.

ولسوف يقاوم بعد فترةٍ وجيزةٍ، هذه البورجوازيّة الديمقراطيّة، "الكَلِبون" (les enragés)، الذين كان يقودهم الكاهن "جاك رو" (J. ROUX). ولنصغِ إلى "جاك رو":

« إنّ الحريّة ليست سوى شبحٍ فارغٍ، عندما تستطيع طبقةٌ من الرجال أن تجوّع الطبقة الأخرى، دونما عقابٍ. والمساواة ليست سوى شبحٍ فارغٍ، عندما يستطيع الغني، بواسطة الاحتكار، أن يمارس حقّ الحياة والموت، على شبيهه. والجمهوريّة ليست سوى شبحٍ فارغٍ، عندما تفعل الثورة المضادّة فعلها، يوماً بعد يومٍ، في أسعار المبيعات، التي لا يتسنّى لثلاثة أرباع المواطنين أنّ يطالوها، دون أن يذرفوا الدموع. »

وفي موقع آخر:

« إنّ الأرستقراطيّة التجاريّة، وهي أشدّ قسوةً من أرستقراطيّة النبلاء والكهنة، تمارس لعبةً قاسيةً باجتياحها الثروات الفرديّة وكنوز الجمهوريّة. ومع ذلك فنحن نجهل مدى تجاوزاتهم، لأنّ أسعار البضائع ترتفع على نحوٍ مرعبٍ، ما بين الصباح والمساء. أيّها المواطنون

المنتدبون، لقد آن الأوان كي نضع حدّاً للصراع القاتل، الذي يشـنّه الأنانيّون ضدّ أكثر الطبقات إنتاجاً في المجتمع ».

ولنصغِ إلى "رو" أيضاً:

« يا نوّاب الجبل، ليتكم صعدتم من الطابق الأوّل إلى الطابق الرابع من بيوت هذه المدينة الثائرة، كي تتأثّروا بدموع وأنّات شعبٍ حاشدٍ، لا خبزَ لديه ولا ثيابَ عليه، وقد آلَ إلى هذا الوضـع مـن البـؤس والشقاء، بسبب الاحتيال والاحتكارات، لأنّ القوانين كانت قاسيةً بحقّ الفقير، ولأنها صِيغت من قبل الأغنياء ومـن أجـل الأغنيـاء... يـا للغضب! يا للعار! مَن تراه يصدّق أنّ ممثلي الشعب الفرنسي، الـذين أعلنوا الحربَ على مستبدّي الخارج، كانوا على درجةٍ مـن الجبانـة منعتهم من سحق مستبدّي الداخل؟[1] ».

ما الذي يجنيه أمّيّ من الإعلان عن حريّة الصحافة؟ فليس للجائع ما يجنيه من قانون الانتخاب. ومَن يرى بأمّ العين أسرته تموت من المرض والبؤس، لا يعود يهتمّ بالحريات على صعيد الفكر والتجمّع. إنّ الجمهوريّة لا قيمةَ لها، دون عدالةٍ اجتماعيّة.

ويرجّع "سان جو" (Saint Just) صدى "رو" (Roux):

"لا يمكن للحريّة أن يمارسها، إلا رجالٌ بمأمن من الحاجة".

إنّ حقّ السعادة هو أوّل حقوق الإنسان. يقول أيضاً "سان جو"[2]:

"لن تتوقّف الثورة إلاّ عند اكتمال السعادة".[3]

في "أنغولا"، ليس ثمّة سوى مشفى واحدٍ للمصابين بالحروق، هو مشفى "لوس كيمادوس" (Los Queimados)، في "لواندا" (Luanda). والحال أنّ الاستخدام الكثيف للنابالم، وللقنابل الفوسفوريّة، قد أصاب بالحروق الكثيرين من السكان المدنيّين الذين وُصفوا بالأعداء،

لأنّهم كانوا يؤيّدون منظمة "الأونيتا"، وهي إحدى الحركات المسلّحة المناهضة للسلطة القائمة، طوال ثمانيةَ عشرَ عاماً من الحرب الأهليّة.

إنّ مشفى "لوس كيمادوس" يستقبل وسطيّاً كلّ عامٍ، قرابة (780) طفلاً دون العاشرة. وإنّ أربعين بالمائة منهم يموتون فور وصولهم، نظراً لخطورة حروقهم. وإنّ ما يحلّ بهم من عذابٍ يبلغ حدّاً يستحيل معه تغيير ضماداتهم. ولكن الإنتانات تتفاقم، إذا لم تغيّر الضمادات.

إنّ أقراص "الباراسيتامول" والمورفين، وكذلك التقنيّات الجراحيّة القليلة الكلفة، هي أهمّ العلاجات المستخدمة ضدّ الآلام التي تسبّبها الحروق. إلاّ أنّ هذه الأدوية وهذه التقنيّات، لا تتوفّر في أنغولا. وهكذا فإنّ أكثر من (500) طفلٍ ماتوا ما بين عام 2002 و2006، وسط آلامٍ فظيعة.[4]

في كلّ مكانٍ على وجه الأرض، تكيّف الشركات الدوائية الكبرى، أسعارَها مع الوضع الاقتصادي العملي. والحال أنّ معظمَ البلدان في أفريقيا السوداء، لا تملك سوى سوقٍ داخليّة محدودة جدّاً: فإنّ الغالبيّة الساحقة من السكان تفتقر إلى الموارد. ولذلك فإنّ الشركات الدوائيّة الكبرى تؤثر تكييفَ أسعارِها مع القوة الشرائيّة للطبقة الحاكمة الرقيقة المحلية. فهم يفضّلون بيعاً متدنيّاً، ولكن بأسعار عالية.

إنّ عائلات الأطفال المحروقين، بما أنّها لا تشكّل سوقاً جديرةً بهذا الاسم، وتفتقر بالكليّة إلى القدرة الشرائيّة، لن يتسنّى لها بالطبع أن تحصلَ على هذه الأدوية الضروريّة. أما الدولة الأنغوليّة، فمن العبث توقّع المساعدة منها: إنّها في ما يشبه الإفلاس.

هناك ما يقارب خمس مليارات إنسان يسكنون اليوم (122) بلداً من العالم الثالث. وهؤلاء تعنيهم اليوم على نحو مرعب، الكلمات التي تلفّظ بها في باريس عام 1791، الثائر "غراكوس بابوف" (Gracchus Babeuf).

لقد سُمّي "طوباويّين"، أولئك الذين مَنَحوا الأولويّة المطلقة، داخل الحركة الثوريّة الفرنسيّة، للصراع من أجل العدالة العالميّة، وحقّ الإنسان في السعادة. وهؤلاء الرجال كلّهم ماتوا في سنّ مبكّرة، وبطريقةٍ عنيفة. فإنّ "سان جو" و"بابوف"، قضيا تحت المقصلة. كان "سان جو" في السابعة والعشرين، و"بابوف" في السابعة والثلاثين. وإنّ "رو" (ROUX)، طعَنَ نفسَه بالخنجر، لحظةَ عرف الحكمَ عليه بالموت من قبل المحكمة الثوريّة. و"مارا" (MARAT) اغتيل. ولكن إذا كانت المقصلة والخنجر قد قتلا أجسادهم، فإنهما لم يمسّا الأمل في عدالةٍ اجتماعيّةٍ عالميّةٍ، وُلِدت من صراعهم. وإنّ روحَهم لَتحيا هكذا في وجدان الملايين من البشر اليوم، تحتَ شكل يوطوبيا جديدة.

"إنّ كلمة "يوطوبيا" وافدةٌ من أعماق القرون.

كان "توماس مور" (Thomas MORE) كبير حكّام انجلترا، وصديق "ايراسموس" (ERASME) وروّاد النهضة، وقد قُطِع رأسَه في 6 تمّوز عام 1535. جريمتُه الرئيسيّة؟ لقد كان نشر، في وحيٍ من إيمانه المسيحي الصادق، كتاباً فيه نقدٌ قاطعٌ لانجلترا، غير العادلة والظالمة، في عهد الملك هنري الثامن، عنوانه: (في وضع الجمهوريّة الأمثل ويوطوبيا الجزيرة الجديدة).

قبلَه، كان "يواكيم دوفلور" والفرنسيسكانيّون الأوائل، "جيوردانو برونو" (Giordano BRUNO) وتلاميذه، قد ناضلوا من أجل بشريّةٍ متصالحة تحت إمرة قانون الشعوب، وحقّ جميع الناس غير المنازع، في أمن أشخاصهم وسعادتهم وحياتهم.[5]

وفي صميم جميع المواعظ، وجميع الكتب وجميع التوصيات التي صاغها يواكيم دوفلور" و"جوردانو برونو" و"توماس مور"، ينهض حقّ كلّ إنسان، في سعادته الذاتية.

بذلك كان "توماس مور"، انطلاقاً من كلمة يونانيّة تعني المكان،

وهـي "توبـوس" (TOPOS)، وحـرف النفـي "يـو" (U)، قـد اشـتقّ كلمـةً جديدةً هي "يوطوبيا". أي اللامكان، بعبارة أدقّ: المكان، والعالم الذي لا يزال غيرَ موجود!

إنّ "اليوطوبيا" هي الرغبة في الشيء الآخر. هي تعني ما ينقصنا في حياتنا القصيرة على الأرض. وهي تتناول العدالة المطلوبة. إنّها تعبّر عن الحريّة، عن التضامن، عن السعادة المشتركة، التي يستبق وجدان الإنسان حلولَها وحيثيّاتِها. وإنّ هذا النقص، وهذه الرغبة، وهذه اليوطوبيا تشكّل المصدر الأعمق في كلّ فعلٍ إنساني يخدم العدالة الاجتماعيّة العالميّة. وبعيداً عن هذه العدالة، فليس ثمّة أيّ سعادةٍ ممكنةٍ لأيٍّ منّا.

ولكن، إن كانت اليوطوبيا - مع العار - أقوى القوى، فهي أيضاً أكثرُها غموضاً في التاريخ. فكيف تُراها تتحرّك؟

يجيب "أرنست بلوخ" (Ernst BLOCH):

« إنّ أدنى رغبةٍ نحملها فينا، هي مرجعٌ ذو دلالة. فنحن ما كنّا لنتألّم على مثل هذا النحو، من نقائصنا، لو لم يكن ثمّة شيءٌ فينا يحرّضنا... ولو لم تكن هذه الأصوات التي تسعى، في أعمق أعماقنا، إلى توجيهنا وإلى حملنا على تجاوز ما يمسّ أجسادَنا والعالم المحيط بنا. [...]. وإنه ليسعنا أيضاً أن نشعر بالأشياء على طريقة الأطفال، فنرجو أن تنفتحَ ذات يومٍ اللعبة المحكمة الأقفال، والتي تحتوي سرّ أصولنا... وما نراه هنا يتحرّك في الواقع، إنّما هو الكتلة العظيمة وغير المكتملة، كتلة نوازعنا الإراديّة والحسّيّة، وقوّة رغائبنا التي لا تُقهر، إذ هي الروح الحقيقيّة للنفس الطوباويّة الناشطة. »

إنّ الإنسان في جوهره كائنٌ لم يكتمل. واليوطوبيا تسكن أعماقَ وجودِه. يقول "بلوخ" أيضاً:

« كلٌّ منّا، لحظةَ مماته، يكون في حاجةٍ إلى مزيدٍ كبيرٍ من حياةٍ، كي يشبعَ من الحياة".

"إنّ هذا المزيد من الحياة، لن نظفر به بالطبع على هذه الأرض. فما الذي إذن يتبقّى لنا فعلَه؟ أن نسلّم أمرَنا لليوطوبيا. أو على نحوٍ أدقّ، أن نستسلمَ لرغبة "ذاك المرجوّ"، الذي سيسكن جميعَ مَن سيأتونَ بعدنا. »

يقول "بلوخ":

« في لحظة احتضارنا، يتوجّب علينا، شئنا أم أبينا، أن نسلّم أمرَنا – أي أن نسلّم أنانا – للآخرين، للأحياء، لأولئك المليارات الذين سيأتون بعدَنا، لأنهم هم، وهم وحدَهم، سيستطيعون أن يكمّلوا حياتنا غيرَ المكتملة. »

ثمّة مفارقةٌ تقود اليوطوبيا: فهي تملي ممارسةً سياسيّةً اجتماعيّةً وثقافيّةً، أبداً حاضرةً، وهي تولّد حركاتٍ اجتماعيّةً ومؤلفاتٍ فلسفيّةً. وهي توجّه معاركَ أفرادٍ محدّدين، وهي في الوقت نفسه، لا تكشف حقيقتَها إلاّ في ما هو أبعد من أفق الإنسان الفاعل.

ثمّة مفارقةٌ يكتبها "خورخي لويس بورغيس" (Jorge Luis BORGES)، إذ يقول:

"إنّ اليوطوبيا لا تُرى إلاّ بالعين الداخليّة".

وإنّها لمفارقةٌ مضاعفةٌ، لأنّ "بورغيس" كان ضريراً، وكتابه يحملُ هذا العنوان: "بعينين مغمضتين كلّياً".

إنّ اليوطوبيا قوّةٌ جارفةٌ، ولكنّ أحداً لا يراها. وهي تاريخيّة لأنها تصنع التاريخ. يقول "بورغيس": "إنّ الزمن هو المادّة التي صُنِعتُ منها [...] والزمن هو النهر الذي يجرفني، إلا أنّي هذا النهر".

نشر "هنري لوفيفر" (H. Lefebvre) كتابه الشهير: "هيجل، ماركس، نيتشه أو مملكة الظل"، في منتصف السبعينيات.[6] فسأله أحد مذيعي "راديو فرنسا": "أنا لا أودّ أن أثيرَك... ولكنّهم يقولون إنّك

"يوطوبي"... فأجابه "لوفيفر":

« على العكس... إنّك تشرّفني... فأنا أطالب بهذه التسمية... إنّ الذين لا يريدون أن يتجاوزوا الأفق بنظرهم، ويكتفون بالتحديق في ما يرون، هؤلاء الذين يطالبون بالبراغماتيّة، ويحاولون أن ينشطوا بما يملكون فقط، هؤلاء ليس لهم أي حظّ في تغيير العالم... وحدَهم الذين ينظرون إلى ما لا يُرى، والذين ينظرون إلى ما هو أبعد من الأفق، وحدَهم هم الواقعيّون. وهؤلاء يملكون الحظّ في تغيير العالم... فاليوطوبيا هي ما هو أبعد من الأفق. إنّ عقلَنا التحليلي يعرف بدقّة ما لا نريد، وما لا بدّ من تغييره... ولكن ما يجب أن يأتي، وما نريد، وهو العالَم المختلف كليّاً، والجديد، ليس سوى نظرنا الداخلي، واليوطوبيا الكامنة فينا وحدَها، هما اللذان يكشفانه لنا ».

ويقول بعد ذلك: "إنّ العقلَ التحليليّ قيدٌ... واليوطوبيا هي المطرقة".[7]

ويصرخ "سان جو" في وجه أعضاء "لجنة الخلاص العام" في باريس، الذين سيحاكمونه، قائلاً:

« إني أحتقرُ الترابَ الذي يشكّلني، والذي يحدّثكم. وسيكون بقدرتكم أن تضطهدوني، وأن تُخرِسوا هذا التراب. ولكني أتحدّاكم أن تنتزعوا مني هذه الحياة المستقلّة، التي مَنَحتُها لذاتي في الأزمنة الآتية، وفي السماوات. »

وفي اليوم التالي، 1794/7/27، اعتلى "سان جو" مقصلة "ساحة الكونكورد" (كان اسمها آنذاك ساحة الثورة)، في باريس.

من الصعب تصنيف حَمَلَة اليوطوبيا بين الأبطال المظفّرين. وهم أقرب إلى المقصلة والمحرقة أو المشنقة، منهم إلى التجمّعات الظافرة والمستقبلات المشرقة. ومع ذلك، فلولاهم، لكانت كلّ نفحةٍ إنسانيّةٍ وكلّ رجاءٍ قد تلاشيا من كوكبنا من زمانٍ بعيدٍ!

II- الندرة المنظمة

اليوم، ظهرت إقطاعيّاتٌ جديدةٌ، تفوق الإقطاعيّات القديمة، بما لا يُقاس، من حيث القوّة والوقاحة، والقسوة والدهاء. إنّها الشركات الخاصة العابرة للقارّات، في نطاق الصناعة والمصارف والخدمات والتجارة. وهؤلاء السادة الجدُد لا يُقارَنون بالمحتالين وسماسرة الحبوب والمتاجرين بالحوالات، الذين حاربهم "جاك رو" و"سان جو" و"بابوف". فإنّ للشركات الرأسماليّة العابرة للقارّات، الخاصة، سلطةً كونيّة.

أسمّي "كوسموقراط" (Cosmocrates) (سادة الأرض) هؤلاء الإقطاعيّين الجدُد. إنّهم سادةُ إمبراطوريّة العار.

ولنحدّق في العالم الذي خلقوه.

صحيحٌ أنّ الجوع والدَّين ليسا ظاهرتَين جديدتَين في التاريخ. فمنذ فجر الأزمنة، تحكّمَ الأقوياء بالضعفاء عن طريق الدَّين. وفي دنيا الإقطاع، الذي تميّز بغياب العمل المأجور، كان السيّد يستبدّ بأقنانه بواسطة الدَّين. فإنّ نظام "القسائم"، الذي هو أحد الأشكال القديمة للعمل الزراعي، وقد استمرّ حتى اليوم، يستخدمه بالطريقة نفسها مُلاّك الأراضي الكبيرة في الإيكوادور" و"الباراغواي" و"غواتيمالا"، ليستعبدوا بالطريقة نفسها العامل الزراعي.

والجوع رافقَ، هو أيضاً، البشريّة منذ ظهورها على الأرض. فقد كانت الجماعات الأفريقيّة الأولى، وهي أقدم الجماعات البشريّة المعروفة، تعيش من القطاف. وكان أفرادها يعيشون من جمع الجذور والأعشاب والفواكه البريّة، من شتاءٍ لآخر. وما كانوا يعرفون الزّراعة ولا تدجينَ الحيوانات، وكانوا قلّما يمارسون صيدَ الحيوانات الصغيرة. وكان قتل الأطفال أوّل مؤسّسةٍ اجتماعيّةٍ لديهم. وكان كبارهم سنّاً،

في مطلع كلّ فصل جاف، (وكان يمتد طوال سبعة أشهر، لا يتاح لهم فيها أي قطاف، وحيث كان صيد صغار الحيوانات نادراً) يعدّون من يتوجّب عليهم تغذيتهم، والمؤونة المتوفّرة لديهم. وكانوا، وفقاً لتقدير تقريبي، يعمدون إلى إبادة عددٍ متفاوتٍ من الأطفال المولودين، على يد أهلهم.[8]

في قلب مؤلّفات كارل ماركس الضخمة، يكمن اهتمامٌ رئيسيّ: إنّه تحديد النقص. وقد ظلّ ماركس حتى النفس الأخير، مقتنعاً بأنّ الإنسان سوف يعيش في حالةٍ من العوز طوال قرونٍ أخرى. وكان يُعتقد أنّ الثنائي اللعين، ثنائي السيّد والعبد، ليس بقريب التلاشي.

يعتمد ماركس، في معالجته هذه المسألة، عبارةً تصعب ترجمتُها إلى الفرنسيّة، وهي "النقص الموضوعي". وهي عبارةٌ تعني وضعاً تكون فيه الخيرات المادّيّة المتوفّرة على الأرض، غير كافيةٍ بصورةٍ موضوعيّةٍ لتفي بجميع حاجات الناس القاهرة والأوّلية. وفي أيام ماركس (كما كانت الحال في القرون السابقة)، كان النقص الموضوعي، في الواقع، يسود الأرض كلّها، إذ كانت الخيرات المتوفّرة فيها لا تكفي على نحوٍ قاطعٍ، لتفي بحاجات البشر الحيويّة. وإنّ مجمل النظريّة الماركسيّة حول تقسيم العمل، والطبقات الاجتماعيّة، ونشوء الدولة، وصراع الطبقات، قد بُني على هذه الفرضيّة، فرضيّة النقص الموضوعي للخيرات.[9]

ولكن، منذ وفاة ماركس، وعلى نحوٍ خاص خلال النصف الثاني من القرن العشرين، فإنّ تعاقباً ضخماً من الثورات الصناعيّة والتكنولوجيّة والعلميّة، قد حرّك القوى المنتجة. واليوم، فإنّ الأرض كلّها تنهار تحت ثقل ثرواتها.

وبتعبيرٍ آخر، فإنّ قتل الأطفال، كما كان يمارس يوماً بعد يومٍ، لم يعد يخضع لأيّ ضرورة.

إنّ سادة إمبراطوريّة العار، ينظّمون الندرة بكلّ درايةٍ. وهذه تخضع لمنطقِ أقصى ربح.

إنّ ثمن شيء ما يتوقّف على ندرته. وكلّما كان الشيء نادراً، ارتفع ثمنه. فإنّ الوفرة والمجانيّة هما كابوسا "سادة الأرض"، الذين يبذلون جهوداً خارقةً لاستبعادهما. فالندرة وحدَها تضمن الربح. فلننظّمها!

إنّ "سادة الأرض" يصيبهم الهلع من المجانيّة التي تتيحها الطبيعة. وهم يرون فيها منافَسةً غير شريفة، لا تُطاق. ولا بدّ لهم من وضع حدّ لهذه السهولة الكريهة، بواسطة البراءات المتعلّقة بالأحياء والنباتات والحيوانات، المطوّرة جينيّاً، وكذلك بواسطة خصخصة ينابيع المياه. ولنا إليها عودةٌ.

إنّ تنظيم ندرة الخدمات والرساميل والخيرات، هي، في هذه الظروف، أولى فعاليّات سادة إمبراطوريّة العار. ولكن هذه الندرة المنظّمة تقضي كلّ عامٍ على حياة ملايين الرجال والأطفال والنساء، على الأرض.

وفي مطلع هذه الألفية الثالثة، بلغ البؤس مستوى فاقَ بهولِه جميعَ ما عرَفته عهودُ التاريخ السابقة. من ذلك أنّ أكثر من عشرة ملايين طفلٍ دون الخامسة، يموتون كلّ عام من سوء التغذية والأوبئة، وتلوّث المياه ومساوئ السكن. وإنّ خمسين بالمائة من هذه الوفيّات تحدث في ستّةٍ من أكثر بلدان الأرض فقراً. وإنّ اثنين وأربعين بالمائة من بلدان الجنوب، تحتوي تسعين بالمائة من الضحايا.[10]

إنّ هؤلاء الأطفال لا يقضون نتيجة نقصٍ موضوعي في الخيرات، ولكن بفعل توزيع غير متساوٍ لها، وإذن بفعل نقصٍ مفتعلٍ.

عُقد في ساو باولو، بالبرازيل، من 14 إلى 18 حزيران عام 2004، مؤتمر "منظمة الأمم المتحدة للتجارة والتنمية (CNUCED)". وقد

احتُفل فيه بمرور أربعين عاماً على تأسيسها. وكان، في الوقت نفسه، يرمي إلى إعفاء أمينها العام، "روبنس ريكوبيرو"، من مهامّه.

وكان "ريكوبيرو" هذا، في دنيا الأمم المتحدة، الغامضة والمشبوهة، رجلاً فريداً. فله في نحوله جسمُ ناسكٍ، وهو طويل القامة، وله صوتٌ وديعٌ، وعينان زرقاوان تخترقان الجليد. ولقد قاوم الدكتاتوريّة العسكريّة في البرازيل، في شبابه، وهو معارضٌ شرسٌ لسادة الأرض الحاليّين، وهو مسيحيّ لا يلين، ولا يتراجع. إنّه أشبه "بجاك رو" معاصر!

إنّ المنتوجات الزراعيّة، في 86 بلداً من أصل 191 بلداً، عضواً في هيئة الأمم المتحدة، تمثّل أساس وارداتهم من التصدير. ولكنّ القدرة الشرائيّة لهذه المنتوجات، لم تعد تقارب اليوم إلاّ ثُلثَ أو أدنى، ما كانت عليه إبّان تأسيس هذه المنظمة.

إنّ 122 بلداً من العالم الثالث، يجمعون 85 بالمائة من سكان العالم، ولكنّ حصتّهم في التجارة العالمية ليست سوى 25 بالمائة.

إنّ كوكبنا يعدّ اليوم أكثر من مليار وثمانمائة مليون إنسانٍ، يتخبّطون في بؤسٍ مدقعٍ، بما يكاد لا يتجاوز الدولار الواحد لكلّ منهم، فيما هناك واحد بالمائة من أغنى أغنياء الأرض، يربح من الأموال ما يربحه 57 بالمائة من أفقر فقراء الأرض.

هناك 850 مليون إنسانٍ بالغٍ، يعانون من الأمّية، في حين أنّ 325 مليون طفلٍ في سنّ الدراسة، محرومون كليّاً من أيّة فرصةٍ دراسيّة.

إنّ الأمراض القابلة للشفاء، تَقتل كلّ عامٍ 12 مليون إنسانٍ، معظمهم في القسم الجنوبي من الأرض.

في الوقت الذي أُنشئت فيه "منظمة الأمم المتحدة للتجارة والتنمية" (CNUCED)، كان الدَّين الخارجي المتراكم لمائة واثنين وعشرين بلداً من العالم الثالث، يبلغ 54 مليار دولار. أما اليوم فهو يبلغ 2000 مليار دولار![11]

في عام 2004، كان 152 مليون مولود لا يملكون الوزن الضروري عند الولادة، وكان نصفهم سيعاني من نقصٍ في نموّهم العصبي الحركي.

كانت حصة 42 دولة من أفقر دول العالم، في الاقتصاد العالمي، تبلغ 1.7٪ عام 1970. أمّا عام 2004، فهي 0.6٪!

لأربعين سنةٍ خلت، كان هناك 400 مليون إنسانٍ يعانون من سوء تغذيةٍ، دائمٍ ومزمنٍ، أمّا اليوم فهم 854 مليون.

منذ مطلع الألفيّة الجديدة، تهزّ العالم اعتداءاتٌ وكوارث، تتفاقم هولاً. فمن نيويورك إلى بغداد، ومن الكوكاز إلى بالي، ومن الدار البيضاء إلى مدريد، آلاف البشر يُمزّقون ويُحرقون، وعشرات الألوف يُجرَحون.

وفي بلدان القسم الجنوبي من الأرض، تمتلئ المقابر بضحايا الأوبئة والجوع، وهي في تزايد، فيما الإلغاء والبطالة يجتاحان الغرب.

من ناحيةٍ أخرى، فإنّ الإقطاعيّات الرأسماليّة الجديدة، تعرف المزيد من الازدهار. وإنّ عائد رؤوس الأموال الصافية، الخاصة بـ(500) من أقوى الشركات العابرة للقارّات في العالم، قد بلغ 15٪ في الولايات المتحدة، منذ عام 2001، و12٪ في فرنسا.

إنّ الوسائل الماليّة لهذه الشركات، تتجاوز بما لا يُقاس، حاجاتها في الاستثمار: وهكذا فإنّ نسبة تمويلها الذاتي يبلغ 130٪ في اليابان، و115٪ في الولايات المتحدة، و110٪ في ألمانيا.

فما الذي يفعله، في هذه الظروف، السادة الإقطاعيّون الجدد؟ إنهم يشترون من جديد، وبكثافة، من البورصة، أسهمَهم الخاصة. وهم يقدّمون لمساهميهم أرباحاً خياليّة، ويقدّمون للإداريّين مكافآتٍ فلكيةً.[12]

ولكن، لا بأس! فإنّ الأرباح الفائضة تواصل نموّها!

إنّ الاحتكار وتعدّد الجنسيّات، هما عاملان أساسيّان في طريقة الإنتاج الرأسمالي. بل إنّ العديد من المؤرّخين يرون أنّ سيرورة إعادة الإقطاع، واستقلاليّة رأس المال، ونشوء مجموعات ماليّة قوية عالميّاً،

وقادرة على تحدّي المصلحة العامة، وقرارات الدولة التنظيميّة، قد انطلقت من صميم سيرورة الثورة الفرنسيّة.

كان "مكسيميليان روبسبيير"، لأسباب من الانتهازيّة السياسيّة، في حرصه على ضمان الوحدة الوطنيّة إزاء التهديد الخارجي، قد استبعد من عمل الثورة، الحضاري والتنظيمي، حركات رأس المال الخاص. ولذلك جابهه بعنف "جاك رو"، و"غراكوس بابوف" و"جان-بول مارا" - وهذا ما لم يفعله قط "سان جو" - وانتهى الأمر بالجمعيّة الوطنيّة إلى أن أيّدت "روبسبيير". وهكذا قدّم "رو" و"مارا" و"بابوف" حياتهم، ثمناً لمعارضتهم القاطعة لقوى المال.

وقد صرّح "روبسبيير"، أمام الجمعيّة الوطنيّة، في شهر نيسان عام 1793: "إنّ المساواة في الثروات وهم...". فتنفّس الصعداء في القاعة، المحتكرون، والأثرياء الجدد، والمستفيدون المحتالون من بؤس الشعب، الذين عرفوا أن يستخرجوا من الاضطرابات الثوريّة، أرباحاً ماليّة قيّمة. وقال لهم "روبسبيير": "لا أريد أن أمدّ يدي إلى كنوزكم!".[13]

كان "روبسبيير"، بهذا التصريح، وأيّة كانت مراميه، يفتح طريق السيطرة العالميّة، أمام الرأسمال الخاص.

إنّ أعظم الشركات 374، العابرة للقارّات، التي أحصاها مؤشر "ستاندرد أند بور" (Standard and Poor)، تملك اليوم، معاً، أكثر من 600 مليار دولار من الاحتياط. وإنّ هذا المبلغ قد تجاوز الضعف منذ عام 1999. وهو زاد 13٪ منذ عام 2003. وإنّ أعظم مشروع في العالم، وهي شركة "ميكروسوفت" (MICROSOFT)، تحوي في صناديقها كنزاً يتجاوز 60 مليار دولار، وهو يزداد كلّ شهر مليار دولار، منذ بداية عام 2006.

يلاحظ "ايريك لو بوشيه" (Eric Le BOUCHER) باقتضاب: "إن الشركات المتعدّدة الجنسيّات تنتصب على قمّة تلالٍ هائلةٍ من الذهب... وهي لا تدري ما تفعل بها".[14]

ويرى الرجال والنساء الطيّبون أنّ ثمّة حلاً بديهيّاً يفرض نفسه: لم لا يُصار إلى تخفيض أسعار المنتجات؟ وإنها لطريقة يُتاح فيها "لسادة الأرض" أن يردّوا قسماً من الأرباح المتراكمة. وإنّه ليسعهم أيضاً أن يزيدوا الأجور والمكافآت، أو يُحدثوا وظائفَ جديدة. ولم لا؟ فإنّه يسعهم أيضاً أن يقوموا باستثماراتٍ اجتماعيّةٍ، لا سيما في بلدان القسم الجنوبي من الكرة الأرضيّة.

إلا أنّ "سادة الأرض" يصيبهم الهلع من مجرّد التفكير بتدخّلٍ مقصودٍ في لعبة السوق الحرّة. وبدلاً من أن يفكّروا في إعادة توزيع، ولو النزر اليسير من فائض أرباحهم، فهم يواصلون إلغاء مئات الألوف من الوظائف، وتخفيض الرواتب، وتقليص النفقات الاجتماعيّة، وتحقيق المزيد من الربح على حساب العمال.

إنّ الرأسمالية النهّابة قد بلغت حدّاً غيرَ مسبوقٍ، ما كان لا "لجاك رو"، ولا "لسان جو" ولا "لبابوف" أن يتصوّروه: وهو النموّ السريع والمتواصل، دون إحداث وظائف، ودون تقدّمٍ للعمال، ودون زيادة القوّة الشرائيّة للمستهلكين.

في عام 2003 كان عدد أصحاب الملايين بالدولار من كلّ أنحاء العالم، يبلغ سبعة ملايين وسبعمائة ألف إنسانٍ. وكان هذا الرقم، بالمقارنة مع عام 2002، يسجّل تقدّماً يبلغ 8٪. بعبارةٍ أخرى: فهناك 500.000 مليونير جديد من أصحاب الدولارات قد برزوا خلال عام واحد.

ولقد زادت وتيرة التقدّم أيضاً من عام 2004 إلى عام 2005، ومن عام 2005 إلى عام 2006. وإنّ عدد أصحاب الملايين بالدولار، قد تجاوز عام 2007، اثني عشر مليون إنسان.

في كلّ عامٍ، يحصي مصرف "ميرل لينش" (Merryl Lynch) الأميركي للأعمال، وهو شريكٌ في مجلس مستشاريّة "كبجيميني" (CAPGEMINI) عدد "الأغنياء"، أي الأشخاص الذين يملكون أكثر

من مليون دولار باسمهم الشخصي. ويتّضح من ذلك أنّه، إن كان الأغنياء يسكنون أوّلاً أميركا الشمالية وأوروبا، فإنّ عددهم يزداد بتسارعٍ في الصين والهند. ولقد نما عددُهم في هذا البلد، في سنةٍ واحدة (من عام 2002 إلى 2003)، بنسبة 12٪، وفي الصين بنسبة 22٪. وتسارع تزايدهم في هذين البلدين، خلال الأعوام 2004-2007.

وما هي الحال في أفريقيا؟

في معظم بلدان هذه القارّة، كما هو معروف، فإنّ تراكم رؤوس الأموال ضعيف، وإنّ محصول الضرائب شبه معدومٍ، والاستثمارات العامّة ضعيفة. ومع ذلك، فخلال عام واحد (من عام 2002 إلى عام 2003)، فإنّ عدد أصحاب الملايين بالدولارات، الذين ينتمون إلى هذا أو ذاك من بلدان أفريقيا الإثنين والخمسين، قد زاد بنسبة 15٪. وهم اليوم أكثر من 100.000. وهكذا فإنّ الأفارقة الأغنياء يملكون اليوم، بالتراكم، مقتنياتٍ خاصة تبلغ 600 مليار من الدولارات، مقابل 500 مليار لعام 2002. وفي أفريقيا أيضاً، فإنّ حجم الموروثات وعدد الأفارقة البالغي الثراء، قد ازدادا على نحو ضخم.[15]

وفي معظم بلدان هذه القارّة، فإنّ الجوع والأوبئة يجتاحان السكان: فالأطفال محرومون من مدارس لائقة، والبطالة الدائمة والكثيفة تدمّر العائلات. ولكنّ الأفارقة الأثرياء جدّاً لا يستثمرون بالطبع، إلاّ استثنائيّاً، في اقتصاد بلدانهم الأصليّة، وهم يُودعون أموالَهم حيث تعود عليهم بأقصى مردود. وإنّ الغني، سواء كان من "مراكش" أو "بينان" (Bénin) أو "زمبابوي" (Zimbaboué)، يتعامل مع بورصة نيويورك، ومع السوق العقاريّة في "جنيف"، ويستهزئ كليّاً بحاجات مواطنيه إلى الاستثمارات الاجتماعيّة.

في جملة قراصنة الاقتصادات الأفريقيّة، تقومُ غالبيّةٌ من كبار الموظفين، من وزراء ورؤساء جمهوريّة. فإنّ النموّ المدهش، على قائمة

"ميريـل-ليـنش/كبجيمـيني" (Merryl Lynch/ CAPGEMINI)، لعـدد أصحاب الملايين الأفارقة، يُفسَّر على نحوٍ واسعٍ، بالفساد.

لي، في جنيف، صديقٌ، كان مديراً سابقاً لمصرف خاص، وقد بات مدير ثرواتٍ خاصة. وهو يتعامل على نحوٍ خاص مع المغرب. من زبائنه القدامى، شخصية تحمل كلّ عام، منذ أكثر من عشرين عاماً، قرابة مليون دولار نقداً، من أجل استثماره في الغرب. وقد شعر بالتقزّز من جرّاء ذلك، إلاّ أنّه لا يمتنع عن متابعة عمله. فهو ربّ عائلةٍ، وهو يقول لي بحقّ: "إن قاطعت هذا الزبون، فهو لن يكفّ عن سرقة بلده... وسيكتفي بتبديل مدير أعماله".

إنّ الإرث الخاص المتراكم، الذي يعود للاثني عشر مليون من أصحاب الملايين من الدولارات، كان يبلغ عام 2007، (32.000) مليار دولار. يا له من فارق مع الثروات الخاصة التي كانت تعود للسماسرة وسائر المحتكرين للحبوب، الذين كان "جاك رو" يندّد بهم في أواخر القرن الثامن عشر! ففي فترةٍ تتجاوز قليلاً مائتي عام، نما التفاوت في الظروف بنِسبٍ فلكيّة. ولكن، كما في زمان "المتطرّفين من الثوار الفرنسيّين"، فإنّ تراكم ثروة الأغنياء، يقتل أطفال الفقراء. وأنّ الحريّة والسعادة بالنسبة إليهم، ليستا سوى شبحين فارغين.

من مانيلا إلى كراتشي، من نواقشوط إلى ساو باولو وكويتو، في جميع المدن الكبرى في القسم الجنوبي من الأرض، يتيه في الشوارع، مئات ألوف الأطفال، دون عائلة وسكن ثابت... وهم يحاولون البقاء كما يتاح لهم: بالسرقة من واجهات الباعة، بالمتاجرة بأجسادهم، أو بالسرقة خدمةً للشرطة، وبعضهم يعملون بصفة "طيّارين" كما يسمّونهم في ضواحي "ريو دو جانيرو": أي حمَلة كوكايين في خدمة زعيم مافيا محلّي.

حياتهم لا تساوي شيئاً. وإنّ بعض الشركات التجاريّة تقدّم أموالاً

لبعض رجال الشرطة الفاسدين، كي يقتلوهم. وهناك شبكاتٌ مجرمةٌ تُكره الفتيات على ممارسة الدعارة. وإنّ بعضَ رجال الشرطة الساديّين، يخضعونهنّ أحياناً للتعذيب، بدافع التسلية فقط. وإنّ قلةً من هؤلاء "القصّر الضائعين"، يبلغون سنّ الرشد.

كان "هيليو بوكايوفو" (Helio BOCAÏUVO)، قصير القامة، نحيلاً، حادّ النظر خلف نظّاراتٍ رشيقةٍ، وهو بمثابة بطلٍ قوميّ في البرازيل، منذ مطلع عام 1990. وكان المدعي العام لولاية "ريو دو جانيرو"، وقد نجح في تولّي القضية المسمّاة "قضية مجزرة الكانديلاريا". ذلك بأنّ بعضاً من رجال الشرطة العسكريّة، كانوا قد ذبحوا وأطلقوا النار على ثلاثة عشر طفلاً، كانوا يرقدون تحت بوّابة كاتدرائيّة "الكانديلاريا"، في مركز المدينة. وكان أربعةٌ من هؤلاء الضحايا دون السادسة، وخمسةٌ منهم فتياتٍ صغيرات.

وكان طفلٌ واحدٌ قد نجا من هذه المجزرة. وكان "بوكايوفو"، قد آواه في أوروبا (في زوريخ)، كي يستبقيه حيّاً ويقدّم شهادته أمامَ المحكمة.

وقد حدث ما لا يُصدّق: فقد جرت المحاكمة وفقَ الأصول، وأُدين خمسةٌ من الشرطة، بينهم نقيب، بعقوبات.

ثمّة معجزةٌ أخرى: فإنّ المدعي العام المقدام لا يزال حيّاً، على الرغم من التهديدات الكثيرة ومحاولتين لاغتياله.

وقد التقيتُه في شهر آذار من عام 2003، في بيت جمعيّات جنيف، بمناسبة انعقاد مجلس المنظمة العالميّة ضد التعذيب (وهو أحد أركانه). فقال لي "بوكايوفو": "في العام الماضي، قُتِل أكثر من أربعة آلافٍ من أطفال الشوارع. معظمهم قُتِل على يد رجال الشرطة [...]. وهذه الأرقام، قد أدلى بها قضاة الأحداث [...]، في الواقع، فإنّ عدد الضحايا يفوق، على الأقلّ، مرّتين هذا العدد".

إنّ التخلّف الاقتصادي يفعل فعل السجون بالبشر. فهو يسجنهم في وجودٍ لا أمل فيه.

السجن دائم، والهروب منه شبه مستحيل، والألم لا حدّ له. نادرون جدّاً هم الذين يستطيعون تحطيم قضبان السجن. وفي مدن الصفيح في "فورناليزا" و"دكا" و"تيكوسيكلبا" أو "كراتشي"، فإنّ الحلم بحياةٍ أفضل يتّخذ ملامح حلمٍ خياليّ. والكرامةُ البشريّة وهمٌ. والألم الراهن ألمٌ أبديّ. وهو لا يُتيح، كما يبدو، أيّ أمل.

بالنسبة إلى هؤلاء الناس، فإنّ واقع مجتمعٍ ذي قوى إنتاجيّة متخلّفة، ويتحمّل دون مقاومة قرارات "سادة الأرض"، يُختزَل ببعض الأمور الجليّة: غياب المدارس (وإذن غيابٌ في تطوّر اجتماعي)، وغياب المشافي والعلاجات الطبية (وإذن غيابٌ في الصحة)، وغياب التغذية النظاميّة، وغياب العمل المأجور، وغياب الأمان، والاستقلال الشخصي.

يقول شارل ديكنز:

"أن تكون فقيراً، هو الجحيم".[16]

III- العنف البنيوي

في إمبراطوريّة العار، التي تحكمها سياسة التجويع المنظّم، لم تعد الحرب حالةً طارئةً بل هي حالةٌ دائمةٌ، وهي لا تشكّل وضعاً مَرَضياً، بل وضعاً طبيعيّاً. وهي لم تعد تعني كسوفَ العقل، بل هي مبرّر وجود هذه الإمبراطوريّة.

فإنّ سادة الحرب الاقتصاديّة قد أخضعوا الكرة الأرضيّة، لتخطيطٍ محكم. فهم يهاجمون السلطة النظاميّة للدول، ويشكّكون في سيادة الشعوب، ويفسدون الديمقراطيّة، ويدمّرون الطبيعة، ويحطّمون البشر وحريّاتِهم.

أما مرتكزهم الفلسفي، فهو تعميم هذا الاقتصاد، ودسّ "يدهم الخفيّة" التي تحرّك السوق، فيما الزيادة القصوى في الأرباح هي قاعدتهم العمليّة. إني أسمّي هذه الفلسفة وهذه الممارسة عنفاً بنيويّاً.

إنّ الدَّين والجوع هما سلاحا التدمير الشامل، اللذين يستخدمهما سادة الأرض، ليستعبدوا الشعوب، ويسرقوا قوّة عملهم وموادّهم الأولى وأحلامهم...

إنّ تقرير منظّمة الغذاء العالمية (FAO)، يؤكّد أنّ الزراعة العالميّة، في الوضع الراهن لتطوّر القوى الإنتاجيّة، تستطيع أن توفّر الغذاء بصورة طبيعيّة (أي بما يقدّم 2700 حريرة باليوم لكلّ إنسانٍ بالغٍ) لـ 12 مليار إنسان!

ونحن، اليوم، نعدّ 6 مليارات ومائتي مليون إنسان.

باختصار: ليس هناك إذن من قَدَرٍ محتومٍ. وإنّ كلّ طفلٍ يموت جوعاً، هو طفلٌ قد قُتل!

إنّي أدعو عنفاً بنيويّاً هذه "النظرة الكونية"، وهذه الممارسة، الجديدتَين.

في حقبات طويلةٍ من تاريخ البشر، اعتُبر العنف بمثابة وضعٍ مَرَضي، وانهيارٍ مفاجئ ومتكرّرٍ، للمعايير التنظيميّة والأخلاقيّة، التي تؤسّس المجتمع المتحضّر. وقد حلّل "ماكس هورخايمر" (Max HORKHEIMER) هذا الوضع المَرَضيّ. وهو يدعوه "كسوفَ العقل"، وهو عنوان أحد أكثر محاولاته شهرةً.

ثمّة أمثلةٌ، عبرَ التاريخ، للعنف في أقسى مظاهره. وإليكم هذا المثل.

قبل ميلاد السيد المسيح بمائة وأربعين عاماً، كسر القائد الروماني، "شيبيون إميليانوس"، مقاومة آخر مقاتلي قرطاجة. وقد سبقت انتصارَه هذا، حربُ شوارع لا هوادةَ فيها. فدخل الفاتح الروماني مدينةً تزخر بسبعمائة ألف نسمةٍ، وقرّر محوَها!

أما سكانها، فقد هرب مئات الألوف منهم، ولكن ذُبِح أيضاً منهم عشرات الألوف.

وسرعان ما أمر "شيبيون إمليانوس" بإزالة المدينة كلّها، وأمر بفلاحة أرضها. وقد رشّ فوق خطوط المحاريث... ملحاً!...

إنّ تدمير قرطاجة ينتصب مثالاً لما يدعوه "هورخايمر" "كسوف العقل" (ويومَها كان العقل رومانيّاً!). ولما عاد "شيبيون إمليانوس" إلى روما، عاد يخضع لقانون يسمّى قانون الشعوب، وهو المنظومة القانونيّة، التي كانت تنظّم الإمبراطوريّة وعلاقاتها مع سائر الشعوب.

بالمقابل، فإنّ ممارسة أقصى العنف، قد باتت ثقافةً. فهي تنتشر، على نحوٍ دائمٍ، ودون منازعٍ. وهي طريقة التعبير العادي - الإيديولوجي، والعسكري، والاقتصادي والسياسي - للإقطاعيّات الرأسماليّة. وهي تسكن نظام العالم.

هذه الثقافة، بدل أن تكون كسوفاً للعقل طارئاً، تنتج منظومتها الكونيّة الخاصة، ونظريّتها الخاصة بمشروعيّتها. وهي تبدع شكلاً جديداً من الأنا الفوقيّة، الجمعيّة والكونيّة. وإنّها لتحتلّ القلبَ من تنظيم المجتمع العالمي. إنّها بنيويّة.

وهي، بالمقارنة مع القيم المؤسّسة "لعصر الأنوار"، تدلّ على تقهقرٍ واضحٍ - لا رجعة عنه كما يبدو.

وإنها لتتبدّى في الهياكل العظميّة، التي للفلاحين في الكونغو، وفي العيون الزائغة التي لنساء بنغلادش، الباحثات عن نزرٍ من الطعام لعائلاتهنّ، وفي مذلّة المتسوّل التائه في "ساحة الكانديلاريا"، في "ريو دو جانيرو"، الذي ينهال عليه الشرطي صفعاً!

لقد وصف "جان بول سارتر" على نحوٍ مدهشٍ، آليّات هذا العنف البنيويّ، الخفيّة، المتفشّية في عامل الندرة المنظمة. يقول:

« في واقع الحال، إنّ العنف ليس بالضرورة فعلاً [...]. وإنّه لغائب من حيث كونه فعلاً، ضمن سيروراتٍ كثيرة [...]. وهو ليس أيضاً مَلمَحاً طبيعيّاً أو احتمالاً خفيّاً [...]. إنّه اللاإنسانيّة الثابتة في السلوكات البشريّة، بوصفها ندرةً مبطّنةً. باختصار، هو ما يجعل كلّ واحدٍ، يرى في كلّ واحد، **الآخر** ومبدأ الشر.[...] ينجم عن ذلك أنّه ليس من الضروريّ – كي يكون اقتصاد الندرة عنفاً – أن تحدث مجازر واعتقالات، أي أن يقوم استخدام منظور للعنف [...] بل ليس من الضروريّ وجود مشروع راهن لاستخدامه. ويكفي أن تكون علاقات الإنتاج قائمةً ومستمرّةً في مناخٍ من الخوف، والشكّ المتبادل، لدى أفرادٍ مستعدّين أبداً للاعتقاد بأنّ "الآخر" هو "إنسان... مضاد"، وأنه ينتمي إلى جنسٍ غريبٍ، وبعبارةٍ أخرى، أن يستطيع الآخر أيّاً كان، أن يظهر دائماً للآخرين، على أنه هو البادئ" [...].

"وهذا يعني أنّ الندرة، بوصفها نفياً للإنسان في الإنسان، بواسطة المادّة، هو مبدأ العقلانيّة الجدليّة ».[17]

إنّ العنف البنيويّ ليس مفهوماً مجرّداً. وهو يتجلّى في نظام تخصيص الموارد المتوفّرة على الأرض.

كتب "رالف بانش" (Ralph BUNCH)، الذي كان مساعداً للأمين العام للأمم المتحدة، من عام 1959 إلى عام 1971، ونال جائزة نوبل للسلام عام 1950، يقول:

« كي يكون للسلام معنى بالنسبة إلى جماهير البشر، الذين لم يعرفوا حتى اليوم، سوى الألم – في زمن السلام، كما في زمن الحرب – يجب أن يُترجَم بالخبز أو الأرزّ، بالسكن الثابت، بالصحّة وبالتربية، وكذلك بالكرامة الإنسانية والحريّة ».[18]

على جدارٍ أبيض ضخمٍ، يعلو ممرّ الزوّار، في مدخل قاعة مجلس الأمن، في نيويورك، عُلِّقت لوحةٌ، هي عبارةٌ عن هرمٍ مقلوبٍ، يُظهر، في ثلثي قسمَيه العُلويّين، النفقات العالمية العسكرية خلال سنةٍ، وفي قسمِه الثالث السفلي، نفقات هيئة الأمم المتحدة، السنويّة، لأهمّ البرامج الاجتماعيّة والبيئيّة والتنمويّة. وقد أُقيمت هذه اللوحة في الأوّل من شهر كانون الثاني عام 2000. في هذه الأثناء، كانت الأعداد قد تبدّلت، ولكن بنيّة النفقات العالميّة ظلّت هي هي.

ولكم نحن بعيدون عن تطلّعات "بانش" (BUNCH).

إنّ نفقات التسليح في جميع دول العالم، قد تجاوزت ألف مليار دولار، عام 2004. وهي، منذ ذلك الحين، لا تني تتصاعد. واليوم، فإنّ 47٪ من هذه النفقات، هي من نصيب الولايات المتحدة الأميركيّة.

النفقات العسكرية العالمية في عام

780 مليار دولار

تطوير الطاقات البديلة 50 مليار	**إلغاء ديون 49 بلداً الأكثر فقراً** 30 مليار
مقاومة انجراف الأراضي 24 مليار	**نشر علاجات الايدز واللقاحات ضد الأوبئة** 19 مليار
إزالة مدن الصفيح 20 مليار	**وضع حدّ لسوء التغذية والجوع** 20 مليار
تثبيت سكان العالم 10.5 مليار	**توفير مياه الشرب للجميع** 19 مليار
مكافحة الأمطار الآسيوية 8 مليارات	**مكافحة احتباس الحرارة في الأرض** 8 مليارات
تفكيك أنظمة التسلح النووي 7 مليارات	**إيقاف تدمير الغابات** 7 مليارات
إنقاذ طبقة الأوزون 5 مليارات	**إسكان اللاجئين** 5 مليارات
إلغاء الأمية 5 مليارات	**العمل على إحداث مؤسسات ديمقراطية** 2 مليار
انتزاع الألغام ضد الأفراد 2 مليار	

إنّ هذا التزايد، كما كانت الحال في العام الماضي، يجب أن ينسب قبل كلّ شيء، إلى الأعضاء الدائمين الخمس، في مجلس الأمن، ولا سيّما إلى الولايات المتحدة. ويرى "معهد ستوكهولم الدولي للبحث عن السلام" (SIPRI)، أنّ هذا التوجّه لا بدّ له من أن يتواصل أقلّه حتى عام 2009.

إنّ "الحرب العالميّة الراهنة ضد الإرهاب"، التي تقودها الولايات المتحدة، توفّر تصوّراً شبه كاملٍ، عن العنف البنيويّ الذي يسكن نظام "سادة الأرض".

أُقيم عدّادٌ إلكتروني عملاق، مهمّته تسجيل الكلفة المتصاعدة يوميّاً، للحرب في العراق، في ساحة "تايمس سكوار" في "مانهاتن"، بمبادرة من جمعيّة "بروجكت بيلبورد" (Project BILLBOARD). وهو يقع عند تقاطع الشارع السابع والأربعين وحي "برودوي". وقد بدأ العمل يوم الأربعاء 2004/8/25، وفي لوحته رقم (134.5) مليار دولار. وإذا بالعدد يتزايد بنسبة (177) مليون كلّ يوم، وبنسبة 7.4 ملايين كلّ ساعة، وبنسبة 122.820 دولار كلّ دقيقة.[19] إنّ حرب العراق وحدَها تكلّف الولايات المتحدة 4.8 مليارات دولار كلّ شهر (فترة هذا الحساب هي من شهر أيلول 2003 إلى شهر أيلول 2004).

كان "ايراسموس" قد طرح هذه الفكرة المثيرة، وهي أنّ للسلام ثمناً. فيمكن شراء السلام، وبعبارةٍ أخرى، فإنّ الحرب ستتلاشى من الأرض، إذا ما دفع الثمن لذلك. ولقد قال في كتابه، "مغنّاة السلام":

« [...] أنا لا أحسب هنا مجموع الأموال التي تنساب بين أيدي تجّار السلاح وموظفيهم، وأيدي القادة. وإذا ما أجرينا حساباً دقيقاً لجميع هذه النفقات، فإني أتحمّل بأسىً أن أُطردَ من كلّ مكان، إذا ما سلّمتم بأنه سيكون بوسعكم أن تشتروا السلام بعُشرِ هذه النفقات. »

ثمّة جماعاتٌ صغيرةٌ متطرّفةٌ من الإرهابيّين الدمويّين، تنتصب في وجه الجرائم التي يرتكبها جورج بوش وأرييل شارون وفلاديمير بوتين (في العراق، وفلسطين والشيشان). فإنّ إرهاب الجماعات الصغيرة يقابل إرهاب الدولة. وإن كان قادتهم في الغالب من أصول ثريّة، من العربيّة السعوديّة ومصر وسواهما، فإنّ مقاتليها "يُختارون عموماً من أكثر الطبقات فقراً في "كراتشي"، والدار البيضاء أو من الأكواخ البائسة في جبال الهند. من هنا إنّ عبثيّة النفقات العسكريّة تفقأ العيون: فالبؤس هو تربة هذه الجماعات الصغيرة، حيث الإذلال والشقاء وقلق الغد، يغذّي بقوّة عمل الانتحاريّين.

إنّ جزءاً من النفقات المستثمرة في "الحرب العالميّة على الإرهاب"، كفيلٌ على نحوٍ تام، باستئصال أسوأ الكوارث التي تصيب الشعوب المنبوذة على هذه الأرض. فإنّ "برنامج الأمم المتحدة من أجل التنمية" (PNUD)، يقدّر، في تقريره السنوي لعام 2006، أنّ إنفاقاً سنويّاً يبلغ 85 مليار دولار، على مدى عشر سنواتٍ، من شأنه أن يضمنَ لكلّ إنسانٍ الحصول على التربية الأساسيّة، وعلى الظروف الصحيّة الأساسيّة، وعلى غذاء مناسب، وعلى ماء للشرب، وعلى البنى الصحية التحتيّة، كما يضمن للنساء الحصول على العناية الصحيّة في حالات الحمل والولادة...

ولكن "الحرب العالمية ضد الإرهاب" تعمي الذين يقودونها.

وهذه الحرب ليس لها أعداء محدّدون بوضوح. وليس لها حدّ متوقّع. إنّها حرب الألف سنة!

كان المهاتما غاندي، قبل اغتياله في 1948/1/30، على يد "ناتورام كورس"، قد توجّه للمرّة الأخيرة، إلى جمهورٍ حاشد. وكانت المجازر بين الهندوسيّين والمسلمين، قد أودت بحياة خمسة آلاف إنسانٍ في كالكوتا.

كانت الجماهير تدعو إلى الثأر. فقال لهم غاندي:

« أتريدون أن تنتقموا؟ عين بعين؟ [...] اِفعلوا ذلك، وعمّا قريب ستصبح البشريّةُ كلُّها عمياء! [...] »

إنّ "سادة الأرض" وأعوانهم في البيت الأبيض والبنتاغون والسي آي ايه، أي جميع المسؤولين عن "الحرب العالميّة ضد الإرهاب"، يطوّرون مفهوماً كيانيّاً للشر. وهم يحدّدون بأنفسهم، وفي حريّة مطلقة، مَن يعتبرونهم إرهابيّين. وفي هذا التحديد، ليس ثمّة مكان لأيّ عاملٍ موضوعي. وإنّ الإرهابيّ هو من يصفه الحكام (الأميركيّون، والإسرائيليّون والروس) على أنّه إرهابي. إنّهم يمارسون الحرب الاستباقيّة.

ولنصغِ إلى وزير الدفاع الأميركي، "دونالد رامسفيلد":

« أنا أرى أننا في حربٍ، في حربٍ عالميّةٍ ضدّ الإرهاب. وإنّ الذين لا يشاطرونا هذا الرأي، هم في معظمهم إرهابيون ».[20]

إنّ "سادة الأرض" يؤثرون ذاتيّتَهم، أي مصالحهم الخاصة، على مبادئ شرعة الأمم المتحدة، والأمن الجماعي، وحقوق الإنسان، والحقّ الدولي.

يا له من خبث جامح! يدّعون القتال (بالقصف والقتل الخ...) من أجل إقامة العدالة والسلام في العالم، وهم لا يفعلون سوى السعي وراء مصالحهم الشخصيّة والخاصة. ذلك بأنّ وراء الحروب الاستباقيّة الأميركيّة، تكمن، كما يعرف كلّ إنسان، المصالح الماليّة للشركات الرأسماليّة، العابرة للقارّات، بوصفها الدافع الأوّل.

لنعد إلى العدوان الأميركي الذي شُنّ على العراق في شهر آذار عام 2003.

إن المخزون الجوفي في أرض الرافدين يحتل حتى اليوم، المرتبة الثانية في نظام المخزونات النفطية المعروفة في العالم: أي ما يعادل قرابة 112 مليار برميل. والبرميل، كما هو معروف، يعادل 159 لتراً. وبذلك فإن المخزونات العراقية بين كركوك وبصرى، تبلغ 18.000 مليار ليتر. ويعتقد الخبراء أن المخزونات غير المكتشفة بعد، هائلة.

قبل عام 2003، كان العراق يستثمر 1821 بئراً نفطيّةً. كان مجمل الآبار النفطيّة المستثمرة في الولايات المتحدة، وهي تقارب (800) بئر، توفّر ما توفّره بئرٌ واحدةٌ في العراق.

ولكن هناك ما هو أهم من مساحة الحقول النفطيّة، وهو الموقع الجيولوجي للنفط العراقي. فهو في الشمال، كما في الجنوب، قريب من سطح الأرض. إذ يكفي حفر بضعة أمتار، كي يتدفّق الذهب الأسود. وإن

كان ثمن تكلفة البرميل الخام، عشرة دولارات في تكساس، و15 دولاراً في بحر الشمال، فإنّ تكلفتَه في العراق هي دون الدولار الواحد...

إنّ الشركات العابرة للقارّات، "هاليبورتون" (Halliburton) و"كيلوغ أند رووت" (Kellogg and Root)، و"شيفرون" (Chevron) و"تكساكو" (Texaco)، قد لعبت بالطبع دوراً حاسماً في الإعداد لعمليّة السرقة الأميركيّة لحقول النفط العراقيّة: فقد كان نائب الرئيس الأميركي، "ديك تشيني"، هو نفسه رئيس شركة "هاليبورتون"، ووزيرة الخارجيّة الأميركيّة الحالية، "كوندليزا رايس"، كانت على رأس "شيفرون"، وكذلك هي الحال بالنسبة إلى وزير الدفاع السابق، "دونالد رامسفيلد". أما الرئيس "جورج بوش"، فإنه يدين بثروته الشخصيّة الهائلة للشركات النفطيّة في تكساس.

ثمّة مثالٌ آخر. إنّ الشركات العابرة للقارّات، العاملة في نطاق صناعة الأسلحة الحربيّة والمتاجرة بها، ومثلها رؤوس الأموال المستثمرة خصوصاً في تمويل الألكترونيّات العسكريّة (مثل شركة "كرلايل غروب" (Carlyle Group)، تستفيد يوماً بعد يوم، من التنامي الضخم للميزانيّات العسكريّة، التي يبرّرها "تهديد الإرهاب". والحال أنّ العديد من كبريات الشركات التلفزيونيّة في الولايات المتحدة، والتي يبلغ عدد مشاهديها كلّ يوم عشرات الملايين، يملكها أصحاب شركات الأسلحة. فإنّ شبكة (NBC) مثلاً هي ملك شركة "جنرال الكتريك"، وهي إحدى أهم شركات صناعة التسليح في العالم، في ميدان الإلكترونيات العسكريّة...

مَن تُرى سيفاجَأ، في هذه الظروف، إن كانت "الحرب العالميّة ضدّ الإرهاب"، تقفز، في لامبالاة، من الكذبة الصغيرة العاديّة، إلى كذبة الدولة، فتعمد بمثل هذه السهولة، إلى استخدام التخويف والإلغاء والكراهية والعنصرية؟

كتب "ريشار لابيفيير" (Richard LABÉVIÈRE) يقول:

« إنّ هذا الاستخدام، تتفرّد به الأنظمة الشموليّة [...]. فإنّ الحرب المتواصلة ضدّ الإرهاب، لا تستدعي فقط عملياتٍ عسكريّةً (في جميع القارّات)، بل هي تُحدث أيضاً مقاربةً اعتقاليةً، هي وليدة سياسة الفصل العنصريّ (Apartheid)، لا أكثر ولا أقل.[21] »

ولكن كيف يتدبّر "سادة الأرض" أمورهم، كي تلقى استراتيجيّتهم، قبولاً لدى مجمل الدول وشعوب الأرض؟ ففي أساس عملهم، تقوم معادلةٌ، يردّدونها على الدوام: "إنّ البحث عن السلام" = "الحرب على الإرهاب". ولّما كان الجميع يريد السلام، فإنّ الجميع ينصاع للمقتضيات التي يحدّدها "سادة الأرض".

إنّ منابع هذا العنف الكلّي، الأيديولوجية، كثيرة ومتنوّعة. فإنّ الحاخام الأكبر "مارك رافايل كويدج" (Marc Raphaël GUEDJ) في "جنيف"، يعدّد بعضها:

« أن تعطي صفة الإطلاق لخطاب يأسر الضمائر، أن تقدّس أرضاً، أن تطالب بأحقيّة الخلاص حصراً، أن تدّعي أنك من جنسٍ متفوّق، أن ترى في ذاتك الوريث الشرعي لتراث الآخرين، أن تتقيّد بحرفيّة نصوصٍ تدعو إلى الحرب المقدّسة، أو أيضاً أن تضفي صفةً دينيّةً على مشاريع إنسانيّةٍ، كلّ ذلك يشكّل مصادر ممكنةً للعنف.[22] »

في القرن الثالث عشر، كان "الفرسان التوتونيون"، قبل كلّ من حملات النهب والغزو، التي كانوا يشنّونها ضدّ عائلات الفلاّحين البؤساء، في بولونيا وليتوانيا، يطيلون الصلاة، ويصلّون بحرارة وعلى الملأ. وكانوا - في استعادةٍ لكلمات الحاخام "كويدج" - "يدّعون امتلاك الخلاص حصراً".

« [...] إنه جيش الله، في بيت الله، في مملكة الله [...].

"لقد تربّينا من أجل هذه الرسالة [النضال ضد الإرهاب الإسلامي] [...]. [إنّ المسلمين] يبغضوننا، لأننا أمّةٌ مسيحيّةٌ [...]. إنّ العدوّ هو الشيطان [...]. إنّ إلهي أعظم من إلههم [...]. وأنا أعرف أنّ إلهي هو إله حقّ، وأنّ إلههم هو صنم. »

من تُراه يقول هذا الكلام؟

إيه، إنّ مؤلّف هذه الكلمات الخالدة هو أحد ألمع الجنرالات العاملين في القوّات المسلّحة الأميركيّة. هو مقاتلٌ من النخبة، وقد خدَمَ في قسم مغاوير "الدلتا" في الصومال. وقد عيّنه الرئيس جورج بوش، في شهر حزيران من عام 2003، مساعداً لوزير الدفاع، في شؤون الاستخبارات العسكرية. اسمه: الجنرال "وليم- "جيري" - بويكين"![23]

وكيف للإنسان ألا يصيبَه التقزّز من الصور التي نشرتها صحيفة "الانترناشيونال هيرالد تريبيون"، التي تُظهر الرئيس جورج بوش وشركاءه الرئيسيّين، وقد ضمّوا أيديهم، وأغمضوا عيونَهم، وأسندوا مرافقهم على الطاولة الضخمة من خشب "الأكاجو" في "قاعة الاجتماعات"، وهم يبتهلون إلى الله من أجل نجاح قصفهم مدن العراق وأفغانستان، المكتظة بالسكان؟

IV- احتضار القانون

كيف لنا أن نفسّر أنّ الحرب الاستباقيّة التي يشنّها السادة الجدد إلى ما لا نهاية، دونما حدود، وعدوانيّتَهم الدائمة، وتعسّفَهم، وعنفَهم البنيوي، أنّ كل ذلك يتواصل دون معوقات؟ فاليوم، قد انهارت معظم حواجز القانون الدوليّ، والأمم المتحدة نفسها باتت لا حياةَ لها.

إنّ القانون قد وضع، كما جاء في كلمةٍ جميلةٍ "لمكسيمليان روبسبيير"، كي ينظّم "تعايش الحريّات". فالقانون الدولي اليوم، يحتضر، إذ هو بات عاجزاً عن أداء وظيفته. لماذا هذا الانهيار؟

إنّ للقانون الدولي غايةً رئيسيّةً، هي تحضيرُ وتدجين عنف الأقوياء التعسّفي. وهو يعبّر عن إرادة الشعوب الناظمة. وإنّ شرعة الأمم المتحدة تبدأ بهذه الكلمات:

"نحن، شعوب الأمم المتحدة..."

ولكنّا نعرف أنّ الأمم المتحدة هي في الواقع تنظيم دول، كما هي أيضاً حال جميع المنظمات الدوليّة الأخرى والكبرى، التي تتبعها، منها خصوصاً المنظّمة العالميّة للتجارة، والمصرف الدولي، وصندوق النقد الدولي الخ... باختصار، إنّ القانون الدولي يلزم الدول قبل كلّ شيء، وعلى نحوٍ، حتى الآن، شبه حصري. وممّ هو مكوّن؟

هناك أوّلاً حقوق الإنسان. وإنّ الإعلان العمومي، الصادر في 1948/12/10، ليعلنها. والحال أنّ كلّ دولةٍ جديدةٍ تريد الالتحاق بالأمم المتحدة، يتوجّب عليها قبول هذا الإعلان. إذن فإنّ حقوق الإنسان ملزمةٌ نظريّاً. ولكنّها في واقع الأمر، ليست ملزمةً، لأنّه لا يوجد على الصعيد العالمي، محكمةٌ لحقوق الإنسان.[24] فإنّ لجنة حقوق الإنسان، وهي تتألّف من خمسين دولةً منتخبةً (وتكليفها

لثلاث سنوات فقط) من قبل الجمعيّة العامّة، تسهر على احترام هذه الحقوق. وسلاحها الوحيد في حال خرقها: التصويت على إدانة.

ثمّة حدٌّ ثانٍ:

إنّ الإعلان العمومي للأمم المتحدة، المنسجم مع تقليد الإعلان الأميركي في فيلادلفيا عام 1776، ومع الإعلان الفرنسي عام 1789، (ومع التفسير الذي قدّمه بشأنه، واضعاه الرئيسيّان، "اليونور روزفلت" و"رينه كاسان" (René CASSIN)، يهتمّ أساساً بالحقوق المدنيّة والسياسيّة (حريّة الصحافة، والاجتماع، والتعبير، والحريّة الدينيّة الخ...). صحيح أنّ الإعلان يثير أيضاً في بنده (25)، ممارسة بعض الحقوق الاقتصاديّة والاجتماعيّة (حماية الأمومة، حقّ الغذاء، الضمان في حال البطالة، الترمّل، الشيخوخة، العجز، حقّ السكن والعناية الطبيّة، حماية الطفولة الخ...). ولكن الحرب الباردة، بدءاً من انقلاب "براغ" عام 1948، جمّدت النقاش الدولي حول حقوق الإنسان - وعرقلت خصوصاً، الاعتراف بالحقوق الاقتصاديّة والاجتماعيّة.

حتى انفجار الاتحاد السوفييتي، في شهر آب عام 1991، كان كلّ إنسانٍ من أصل ثلاثة، على الأرض، يعيش تحت نظام شيوعي. والحال أنّ الأنظمة الشيوعيّة كانت ترفض الديمقراطيّة المتعدّدة، والاستفتاء العام، وممارسة الحريّات العامّة التي تؤسّسها. وكانوا يمارسون نظام الحزب الواحد، بوصفه طليعة الإرادة الشعبيّة والتعبير عنها. وكانت الأنظمة الشيوعيّة تولي الأولويّة المطلقة، لِتَقَدّم شعوبها الاجتماعي. ولذلك كانوا يؤثرون الاهتمام الواقعي بالحقوق الاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة، على حساب الحقوق المدنيّة والسياسيّة.

واجتمعت اللجنة المكلفة بصياغة الإعلان العمومي، مرة أولى، في ربيع عام 1947. وقد صرّح سفير بريطانيا منذ البدء: "نريد بشراً أحراراً، لا عبيداً متخمين بالطعام!".

فأجابه سفير أوكرانيا:

"حتى البشر الأحرار، يمكنهم أن يموتوا جوعاً".

منذ بداية الحرب الباردة، نشأ إذن حوار طرشان، وقد تحوّل أحياناً إلى تبادل شتائم، ووضع نصفَي العالم في مواجهة. وكان الغرب يتّهم العالم الشيوعي برفض الحقوق المدنيّة والسياسيّة، بقصد إلغاء ممارسة الحريّات وحلول الديمقراطيّة. وكانت الحكومات الشيوعيّة، من جهتها، تعيب على الغربيّين ممارستهم ديمقراطيّة كاذبة، وإهمالهم النضال من أجل العدالة الاجتماعيّة.

وإنّ بطرس بطرس غالي، إذ كان أميناً عامّاً للأمم المتحدة من عام 1992 إلى عام 1995، قد ابتدع في حدسه عقد مؤتمر فيينا. فدعا، بعد انهيار الاتحاد السوفييتي بسنتين، إلى عقد أوّل مؤتمر عالميّ حول حقوق الإنسان، في العاصمة النمساويّة. ولقد تحقّقت، بفضل حنكته، وتصميمه وصبره المطلع، المصالحة بين الرؤيتين المتعلّقتين بحقوق الإنسان. وبذلك كرّس إعلان فيينا (عام 1993)، التساوي بين الحقوق المدنيّة والسياسيّة من جهةٍ، والحقوق الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة، من جهةٍ ثانية.

كتب "برتولد برخت":

"إنّ بطاقة تصويتٍ لا تغذّي جائعاً".

إنّ الحقوق المدنيّة والسياسيّة تظلّ شبه مشلولة، دون حقوق اقتصاديّة واجتماعيّة وثقافيّة. ولكن ما من تقدّم اجتماعي دائم، ممكن، دون حريّة شخصيّة ودون ديمقراطيّة.

منذ ذلك الحين، باتت جميع حقوق الإنسان تُعرَّف بأنّها عموميّة، لا تجزّأ، ومتداخلة. وليس ثمّة أيّ تراتبيّة بينها.

وقد ضُمّت إلى الإعلان العمومي لعام 1948، ستّ اتفاقيّاتٍ كبرى

(ضدّ التعذيب، ضدّ التمييز حيال النساء، ضدّ العنصرية، وتأييداً لحقوق الأطفال، والحقوق الاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة، والحقوق المدنيّة والسياسيّة). وقد أيّدتها معظم الدول.

وقد أُرفقت بعض هذه المعاهدات ببروتوكولات إضافيّة، تسمح للناس الذين يقدّرون أنه أُسيء إليهم، بأن يتوجّهوا على نحو مباشر إلى اللجنة المكلّفة بتطبيق الاتفاقيّة المعنيّة. تلك هي، مثلاً، حال الاتفاقيّة ضدّ التعذيب: إذ يستطيع من عُذّب أو أسرته، أن يطالب بتعويضٍ لدى هذه اللجنة.

ومرّت عقودٌ، وُقّع خلالها على عددٍ كبيرٍ من المعاهدات الأخرى، من قبل عددٍ متفاوتٍ من الدول: منها ما هو ضدّ إنتاج وتصدير الألغام ضدّ الأفراد، وضد التلوّث المناخي، وضدّ الأسلحة البيولوجيّة والكيماويّة، ومن أجل حماية المناخ والمياه وتنوّع الحياة الخ...

وإنّ المحكمة الجنائيّة الدوليّة، من جهتها، تلاحق المسؤولين عن جرائم الحروب، وجرائم الإبادة والجرائم ضد الإنسانيّة.[25]

إنّ مجلس الأمن والجمعيّة العامّة، من ناحيةٍ أخرى، يعيقان تطبيق القانون الدوليّ. فلا شرعة الأمم المتحدة، ولا أيّ شيءٍ آخر يجيز لهما ذلك. ولكنّهما يفعلان ذلك، وإنّ قراراتهما تؤسّس لقانون عرفي. مثلاً: إنّ حقّ التدخّل قد وُلد من قرار في مجلس الأمن. فعندما تخرق حكومةٌ ما خرقاً خطيراً، حقوقَ شعبها (أو أقليّة في كيان هذا الشعب) يعود للأسرة الدوليّة حقّ التدخّل، وواجب الحماية. وإنّ أكراد العراق يدينون في بقائهم لمثل هذا القرار.[26]

لذلك فمنذ عام 1945، صوّتت الجمعيّة العامّة لأكثر من (700) قرارٍ هامّ، ومجلس الأمن لأكثر من 130 قراراً.

وفضلاً عن القانون الدولي بالمعنى الدقيق للكلمة، هناك ترسانةٌ واسعةٌ لما يُسمّى الحقّ الإنساني. وهو يستند أساساً إلى معاهدات

جنيف الأربع لعام 1949، وإلى بروتوكولَيها الإضافيّين (في معاملة أسرى الحرب، وحقوق السكان المدنيّين أثناء الحرب، وواجبات القوى المحتلة، وواجبات المتقاتلين في حال نشوب نزاعاتٍ غير دوليّةٍ الخ...)

وباختصار، فمن وجهة نظر النصوص والقضاء، فإنّ كلاً من القانون الدوليّ بمعناه الضيّق، والقانون الدوليّ الإنسانيّ، في حالة تطوّرٍ دائمٍ وسريعٍ. فلماذا نشهد، في هذه الحالة، انهيار القدرة التنظيميّة للقانون الدوليّ؟

بالطبع، قبل كلّ شيء، هنا تقاس النتائج المروّعة لاقتصادٍ معولمٍ، يخضع لدكتاتوريّة "سادة الأرض"، الذين يملكون أهمّ الشركات الخاصة في العالم، العابرة للقارّات. ولكي تُستثمَر رؤوس أموالهم بالقدر الأقصى، وفي أقصر مدّةٍ ممكنة، فإنّ الإقطاعيّين الجدُد لا يحتاجون، لا إلى دول، ولا إلى هيئة الأمم المتحدة. فيكفيهم المنظمة العالميّة للتجارة، والاتحاد الأوروبي وصندوق النقد الدولي: إذ قد جعلوا منهم المنفّذين الطيّعين لاستراتيجيّاتهم. ولقد قلت إنّ أهمّ المعنيّين بالقانون الدوليّ، هم الدول، هذه الدول بعينها التي تذوب سلطات السيادة فيها، في إطار الاقتصاد المعولم، كما يذوب الثلج تحت الشمس. من هنا كان الضياع الجذريّ للفعالية التنظيمية للقانون الدولي، التأسيسي منه أو التوافقي.

ولكن هناك سبب آخر لاحتضار القانون الدولي، إذن لاحتضار هيئة الأمم المتحدة. وهذا السبب يمثّل اكتشافُه صعوبة أكبر.

في داخل جهاز الدولة الأميركيّة، وهي الذراع الأهمّ والأقوى بالنسبة إلى "سادة الأرض" على اختلاف جنسيّاتهم، قد حدث تبدّل.

في عام 1957، نشر "هنري كيسنجر"، وهو وزير دفاع الولايات المتحدة، السادس والخمسون، أطروحته في الدكتوراه، تحت عنوان:

"عالَم متجدّد: ميترنيخ، كاسليريغ وقضايا السلام (1812-1822)"[27]

كان يشرح فيها نظريته الإمبريالية، التي طبّقها فيما بعد، من عام 1969 إلى عام 1975، بوصفه عضواً في مجلس الأمن القومي من عام 1969 إلى عام 1975، ومن عام 1973 إلى عام 1977، بوصفه وزيراً للدفاع. وكانت أطروحته الرئيسيّة: إنّ الدبلوماسيّة المتعدّدة الأطراف لا تحدث سوى الفوضى. وإنّ الاحترام الصارم لحقّ الشعوب في تقرير مصيرها، ولسيادة الدول، لا يمكّن من ضمان السلام. وإنّ قوّةً كونيّةً، تملك الوسائل الماديّة، والقدرة على التدخل السريع في كلّ مكان، في زمن الأزمات، هي وحدَها تستطيع أن تفرض السلام.

إنّ هنري كيسنجر هو بالتأكيد أحد أكثر المرتزقة صفاقةً في إمبراطورية العار. ومع ذلك، فقد قدّم تحليلاً نافذاً جداً للنزاع الدامي في البوسنة، خلال مؤتمر عقد في مركز الدراسات الاستراتيجية، التابع للمعهد الجامعي للدراسات العليا الدوليّة، في قبو فندق الرئيس ويلسون في جنيف، عام 1999. وقد شعرت، إذ كنت أستمع إليه، بالشكّ يتسرّب إليّ. أتراه على حقّ؟

كانت "سيراييفو"، طيلة واحد وعشرين شهراً، قد حوصرت وقُصفت من قبل القوات الصربيّة: (11.000) قتيل، عشرات الألوف من الجرحى، عملياً كلّهم من المدنيّين، وبينهم غالبيّة من الأطفال. كانت الأمم المتحدة عاجزةً عجزاً تاماً، وكذلك الدول الأوروبيّة، عن لجم وحشيّة قتلة "ميلوشيفيتش". حتى كان يوم قرّرت فيه السلطة الإمبرياليّة الأميركيّة، أن تقصف المدفعيةَ الصربيّةَ المحيطةَ بحوض "سيراييفو"، وتفرض مؤتمر "ديتون" (DAYTON). باختصار، أن تفرض السلام في البلقان بالقوة!

وهنا نرى أنّ نظرية "كيسنجر" ليست عبثيّةً على نحو مطلق... ذلك بأنّ الخلل في تحرّك هيئات الدبلوماسيّة المتعدّدة الجهات، يفقأ العين. وخلال العقد الممتدّ من عام 1993 إلى عام 2003، اجتاحت

كوكب الأرض، ثلاث وأربعون حرباً، يُقال إنها ذات كثافة متدنّية (أي أنه قُضي فيها على عشرة آلاف إنسانٍ في السنة). ولم تحُلّ هيئة الأمم المتحدة دون نشوب أيّ منها. على كلّ حال، فإنّ نظريّة كيسنجر الإمبرياليّة، قد باتت هي الأيدولوجيا المسيطرة في الولايات المتحدة.

ثمّة افتراضٌ كامنٌ في ما يبسطه كيسنجر: إنّ القوّة الأخلاقيّة، وإرادة السلام، وقدرة الإمبراطوريّة على التنظيم الاجتماعي، كلّ ذلك يفوق قوى جميع السلطات الأخرى. والحال، أنّ هذه الفرضيّة هي بالتحديد التي باتت تعاني الفشل، ويناقضها عمل الجهاز السياسي والعسكري الأميركي.

تكلّم "تيو فان بوون" (Théo Van BOWEN)، المقرر الخاص للجنة حقوق الإنسان حول التعذيب، يوم الأربعاء 2004/10/27، أمام الجمعيّة العامّة للأمم المتحدة في نيويورك. وقد عدّد بالتفصيل، في صمتٍ مطلقٍ، أمام قاعة استبدّ بها الهلع، طرق التعذيب التي تطبّقها القوة المحتلّة في العراق وأفغانستان، على أسرى الحرب أو على مشبوهين عاديّين: حرمانهم من النوم خلال فترات طويلة، سجنهم في أقفاص لا يستطيع فيها السجين لا أن يقف، ولا أن يجلس، ولا أن يتمدّد، نقل السجناء إلى سجونٍ سريّةٍ، أو إلى بلدان تمارس عليهم فيها أفظع طرائق البتر والاغتصاب والإذلال الجنسي، إعدامات وهميّة، نهش الكلاب لهم الخ...

وفي 2004/9/18، وقّع الرئيس الأميركي على أمرٍ رئاسيّ، سرّيّ، يجيز تشكيل مجموعاتٍ قتاليّة، تنشط خارج كلّ قانونٍ وطنيّ أو دوليّ. مهمة هذه المجموعات؟ توقيف "الإرهابيّين"، والتحقيق معهم وقتلهم في كلّ بقاع الأرض. وإنّ المراسل السابق الكبير لصحيفة "نيويورك تايمز"، "سيمور هرش"، يقدّم في كتابه "حلقة القيادة" (Chain of Command): من 11 أيلول إلى أبو غريب"، أمثلةً دقيقةً عن عمل هذه المجموعات.[28]

ثمّة ما هو أكثر إدهاشاً: إنّ الرئيس الأميركيّ بات يقرّر من تلقاء ذاته، من هم الأسرى، ممّن اعتقلتهم السلطات الأميركيّة، الذين يستحقّون حماية معاهدات جنيف، وبروتوكولاتها الإضافية والمبادئ العامّة للحقّ الإنساني - ومن هم الذين سيُسلَّمون "وفقاً للقانون"، لتعسّف جلاّديهم.

وفي السابع من شهر حزيران عام 2004، نشرت صحيفة "وول ستريت جورنال"، العناصر الرئيسية لمذكّرة تقع في مائة صفحة، وضَعَها حقوقيّو "البنتاغون". وكان هذا النصّ يبيّن أنّ جميع العاملين في الحكومة (من جنود وبحّارة، وطيّارين، وعملاء المخابرات، وحرّاس السجون الخ...)، الذين يعملون تحت إمرة الرئيس، وفي خدمة الشأن الوطني، يتمتّعون بحصانة قضائيّة كاملة. ولن يحقّ التعرّض لهم بأيّ ملاحقة، حتى لو أذلّوا معتقلين، واغتصبوهم، وشوّهوهم أو قتلوهم.[29]

وماذا عن المعاهدة الصادرة عن هيئة الأمم المتحدة، ضدّ التعذيب، أو معاهدات جنيف التي وافقت عليها الولايات المتحدة؟ فإنّه يحقّ للعملاء السرّيّين، وحرّاس السجون، والشرطة، والجنود، القائمين على خدمة رئيس الولايات المتحدة، أن يتجاهلوها دون أيّ خطر.

إنّ حجّة حقوقيّي "البنتاغون" هي التالية: إنّ جميع قوانين ومعاهدات الأمم المتحدة، ضدّ التعذيب، قد باتت لاغيةً "بفعل السلطة الدستوريّة، الملازمة للرئاسة، إذ هي تقوم بحماية الشعب الأميركي".

ثم يلي هذا النص:

"إنّ حظر التعذيب يُلغَى أثناء التحقيقات الجارية تحت سلطة القائد العام".

إنّ جرائم الحرب التي يرتكبها اليوم الموظّفون الأميركيّون، في معسكرات الاعتقال في الصحراء الأفغانيّة، أو في زنازين التعذيب في

أبو غريب ببغداد، توفّر تنكّراً رهيباً للادّعاء، الكامن في كلّ نظريّةٍ إمبرياليّةٍ، بتفوّق السلطة الإمبرياليّة، الأخلاقي، حتى لو كانت هذه الجرائم قد أُدينت. وإنّ حكومة أرييل شارون، إذ تجد الحماية والتشجيع من هذه السلطة الإمبرياليّة ذاتها، تظلم بأبشع الطرق، أربعة ملايين إنسانٍ في فلسطين. وإنّ نظام "فلاديمير بوتين"، وهو حليف آخر لسادة الأرض، يقتل عشرات الألوف من الشيشان. ولقد قُتِل منذ عام 1995، (180.000) مدني بيد المحتلّ الروسي، أي ما يعادل 17٪ من مجمل السكان في الشيشان.

ولكن ما هي الأساليب التي يعتمدها المستبدّون الإقطاعيّون الجدد، والجهاز السياسي والعسكري الذي يخدمهم، كي يشلّوا عمل الأمم المتحدة؟

إنّ الحكومة في واشنطن تموّل 26٪ من الميزانيّة العاديّة في عمل هيئة الأمم، والقسم الأهمّ من الميزانيّة الخاصة بعمليّات الحفاظ على السلام (وهي تشمل 72.000 من الجنود ذوي القبعة الزرقاء، الناشطين في 18 بلداً)، وقسماً كبيراً من ميزانيّات المنظمات المختصّة، الاثنتين والعشرين. أمّا برنامج الغذاء العالمي، الذي وفّر الطعام لواحدٍ وتسعين مليون إنسانٍ عام 2004، فإنّ واشنطن تساهم فيه بنسبة 60٪، إذ تقدّم أصلاً أطعمةً مقتطّعةً من الفائض في أميركا.

وإني، منذ شهر أيلول عام 2000، أمارس عملي بوصفي المقرّر الخاص لهيئة الأمم المتحدة، حول حقّ الغذاء. وإنّ هذا الوضع لا يجعل مني موظّفاً. وهو يضمن لي الحصانة والاستقلال على نحوٍ مطلق.

وأنا أراقب الجهاز، وألاحظ أنّ أيّ موظّف يحتلّ مركزاً فوق المرتبة (P5) - أيّاً كان موقعه في هذا النظام الواسع والمعقّد، نظام الأمم المتحدة، وأيّة كانت جنسيّته الأصليّة - لا يحظى بأيّ تقدّمٍ، دون الموافقة الصريحة من البيت الأبيض.

وهنا أفتح هلالين: إنّ حكومات الاتحاد الأوروبي، ولا سيما حكومة فرنسا، لا تهتمّ عمليّاً، بالتزامات وتقدّم مواطنيها وحُلفائها، داخل نظام الأمم المتحدة، أو هي تبدي اهتماماً بعيداً عن التوفيق. ولذلك فإن لعبت فرنسا غالباً، داخل مجلس الأمن والجمعيّة العامة، دوراً هجوميّاً ومستقلاً، فإنّ تأثيرها شبه معدوم داخل الجهاز.

بالمقابل، ففي أقبية البيت الأبيض، ثمّة مكتب يضمّ فريقاً مختصاً من الموظفين الكبار والدبلوماسيّين. وهم مكلّفون بمتابعة سلوك وأعمال وتحرّكات كلّ من المسؤولين الرئيسيين في الأمم المتحدة، أو منظماتهم المختصة.[30] فمن لا يسلك سلوكاً حسناً، يفقد فرص البقاء في النظام. وسينحّى عاجلاً أو آجلاً، بقرارٍ ما، أو هو يسقط في فخّ يكون الفريق المعني قد أعدّه له.

ولنقدّم مثلاً. إنّ "كوسوفو" اليوم محميّةٌ دولية[31]. ولما كانت الأمم المتحدة قد أجازت عام 2001، اللجوء إلى القوة فيه (عبر حلف الناتو) ضد المحتلّين الصربيين، فهي تمارس فيه اليوم ما يشبه سيادةً مؤقّتةً. ولكن القوات المتمركزة فيه، وإدارته المدنيّة وموارده الماليّة، تأتي من الاتحاد الأوروبي.

إنّ الممثّل الأعلى للأسرة الدوليّة في "برشتينا"، وهو في آنٍ واحدٍ قائد القوات العسكرية الدولية والإدارة المدنية، يرشّحه مجلس وزراء الاتحاد الأوروبي. ويخضع اختياره لموافقةٍ شكليّةٍ صرف، من قبل أمين عام الأمم المتحدة.

في عام 2003، كان الألماني "ميكائيل شتاينر" (Michael STEINER)، وهو المستشار الدبلوماسي السابق للمستشار "شرودر" (SCHRÖDER)، قد بلغ نهاية تكليفه بوصفه الممثّل الأعلى. فعيّن الاتحاد الأوروبي، خلفاً له، "بيير سكوري" (Pierre SCHORI).

وكان "سكوري" أكثر الأصدقاء قرباً وحميميّةً من "أولوف بالمه"

(Olof PALME). وكان وزيراً للتعاون والهجرة، ومندوباً أوروبيّاً، وأخيراً كان سفيراً للسويد لدى الأمم المتحدة في نيويورك. وكان أيضاً أحد أكثر الدبلوماسيّين الأوروبيّين، كفاءةً وتقديراً.

ثارت ثائرة فريق الأقبية في البيت الأبيض!

يجب أن أشير إلى أنّ "بيير سكوري"، كان، في أيّام شبابه، قد تظاهر - مع "أولوف بالمه"، ومعظم المسؤولين الاشتراكيّين السويديّين - ضد العدوان الأميركي على فييتنام. فاتّهمه "فريق القبو" بالمعاداة للولايات المتحدة، فأصرّ البيت الأبيض على الفور على المطالبة بسحب ترشيحه. وحدث لكوفي عنان أن استقبل أربع مرّات متتاليةً، "كولن باول"...

وكان التهديد صريحاً: إن كان الأمين العام يوافق على الاختيار الأوروبي، فإنّ الولايات المتحدة تقطع علاقاتها مع الممثّليّة العليا في "برشتينا"؟

وكما هي الحال في الغالب، خضع كوفي عنان للابتزاز، ورفض الموافقة على تعيين "سكوري".

إنّ أي انتقاد يُوجّه للحرب ضدّ "الإرهاب"، ضدّ ما أسمّيه العنف البنيوي، أو ضدّ أيّ خرقٍ للقانون الدولي، يُعاقَب دون رحمةٍ من قبل البيت الأبيض، إثر اقتراحٍ من فريق القبو فيه.

ولذلك، فإنّ الأمم المتحدة، وقد باتت تقصر عملها على أكثر نشاطاتها تقنيّةً - مثل مكافحة الأوبئة، وتوزيع الأغذية، وتقديم المساعدات الدراسيّة للطلاب الفقراء الخ... - قد باتت اليوم في منتهى الضعف.

وفي شهر حزيران من عام 2007، احتفلت الأمم المتحدة بعيدها السنويّ الثاني والستّين. ولكنّها قد لا تستمرّ في الوجود طويلاً...

7- البـربـريـة ومرآتها

إنّ إمبراطوريّـة "سـادة الأرض" وأعـوانهم السياسـيّين، تواجـه اليـوم إرهاب الجهاد الإسلامي، والقاعدة، والجماعات الإسلاميّة الجزائريّة المسلّحة، والجماعة الإسلاميّة المصريّة، والحركة السلفيّة من أجل التبشير، أو تنظيمات أخرى من هذا القبيل. إنّ هذه الحركات هي اليوم الأعداء الوحيدون، ذوو الفعالية الحقّة - على الصعيد العسكري على كل حال - في وجه العنف البنيوي الذي يمارسه "سادة الأرض" ومرتزقتهم، في القوات المسلحة الأميركية.

يختزل "ريجيس دوبريه" الوضع بقوله:

"إنّ الخيار هو بين إمبراطوريّةٍ مثيرةٍ للغضب، وعصرٍ وسيطٍ لا يُطاق".[32]

هنا، لا بدّ لي من توضيح: إني أعتمد عبارة "إسلامي"، لأنها باتت متداولةً في اللغة اليوميّة، في العالم العربي والغرب على السواء. وإنّه من النافل القول بأنّ المجازر الهوجاء التي تطال الأطفال والنساء والرجال، وإنّ هوس التيوقراطيّة والعنصريّة المعادية لليهوديّة وللمسيحيّة، إنّ كلّ ذلك يناقض كلّيّاً العقيدة الإسلاميّة أو تعاليم القرآن.

فمنذ غياهب التاريخ، تمرّدت الشعوب.

في القرن الأول من حقبتنا، كان راعٍ سابق من تراكيا، اعتقله الرومان وأصبح مصارعاً، قد أفلت من "سجن الثكنة" في "كابُوا"، مع سبعين من رفاقه. وقد دعا "سبارتاكوس" عبيد الإمبراطوريّة الرومانيّة، إلى الثورة. وتبعه عشرات الألوف من المتمرّدين، فكسر، في معارك متعاقبة، العديد من الجيوش الرومانيّة. وأحرق المزارع

الشاسعة، وحرّر العبيد خلال زحفه، وحاول العبور إلى جزيرة صقلية. ولكن مسيرته الظافرة تحطّمت عام 71، أمام الجحافل الرومانيّة، التي كان يقودها "ليشنيوس غراكوس"، بالقرب من بلدة "سيلار"، في "لوكانيا". فاعتُقل "سبارتاكوس" والآلاف من مقاتليه، وصُلِبوا على طول الطريق المسمّى "طريق ابيا" (Via APPIA).

وفي شهر أيلول من عام 1831، غطّت الإعلانات جدران مدينة "فرسوفيا"، حتى طالت نوافذ الماريشال "باسكييفيتش" (PASKIEVITCH)، جلاّد بولونيا الروسي. وكان قد كُتِب عليها بالحروف اللاتينيّة والبولونيّة: "في سبيل حريّتنا وحريّتكم". وقد فهم هذه الرسالة قلّةٌ من جنود الجيش الروسيّ المحتلّ. وقُمِع التمرّد في الدم. (وكان لا بدّ من ترقّب عام 1989، وانتصار حركة "سوليدارنوش" البولونية، كي يتخلّى العنف الاستعماريّ الروسيّ عن بولونيا).

وعلى مقربةٍ منّا، من "جبهة التحرير الوطني" الجزائريّة، إلى جبهة "فارابوندو مارتي" في السلفادور، إلى حركة التحرّر في أفريقيا الجنوبيّة، ومن حركة تحرير "الكامرون" إلى "الجبهة الصاندينيّة" في نيكاراغوا، فإنّ قائمة حركات التحرير لمدهشةٌ. وقد سَحَق الكثيرَ منها أعداؤها. وبعضها انتصر، ولكنّه غاص، عندما تسلّم السلطة، في الفساد أو البيروقراطيّة.

ومنهم أيضاً - مثل "الجبهة الشعبية لتحرير أريتريا" - مَن تاهوا في انحرافاتٍ استبداديّة. إلا أنهم كلّهم كانوا حَمَلَةَ رجاءٍ، إما على نحو متألّق، وإمّا بصورةٍ هادئة.

إنّ جميع هذه الحركات التي أتيتُ على ذكرها، وفي طليعتهم ثوار عام 1789 في فرنسا، كانوا يشعرون أنهم حَمَلَةُ رسالةٍ كونيّة. وكانوا كلّهم يعتقدون بأنهم لا يقاتلون من أجل تحرير أرضهم وشعبهم

فحسب، بل من أجل سعادة وكرامة جميع الناس. وكانت القيم التي تُلهِم تضحيتهم، تعني البشريّة جمعاء.

لنسمع مرّةً أخرى "روبسبيير":

« أيها الفرنسيون، إنّ مجداً خالداً ينتظركم! ولكن ستُضطرّون لاقتنائه بأعمالٍ عظيمةٍ. فلم يعد يتبقّى لنا سوى الخيار بين أفظع العبوديّات وحريةٍ كاملةٍ [...]. وإنّ مصيرَها ليحدّد مصير جميع الأمم. فإنه يتوجّب على الشعب الفرنسي أن يتحمّل عبءَ العالم، وأن يقاوم في الوقتِ نفسه الطغاة الذين يرهقونَه [...]. فلنستيقظ كلّنا! وليعُدْ أعداء الحرية إلى الظلمات! وعلى جرس الإنذار الذي قرعناه في باريس، أن يُسمَعَ في كلّ مكان.[33] »

في شهر أيّار من عام 1942، حلّ "ميساك مانوشيان" محلّ "بوريس هولبان"، على رأس مقاتلي حركة "اليد العاملة المهاجرة". فعلّق المحتلّون النازيّون إعلاناتٍ حمراء في باريس، تظهر فيها وجوه بعضٍ من أعضاء الحركة، وأسماؤهم. ولمّا كان جميع هؤلاء من أصولٍ أجنبيّة، أرمنيّة أو بولونيّة، حاول النازيّون أن يقنعوا الناس بأنّ المقاومة المسلّحة ضدّ إرهابهم، كانت مقتصرةً على الأجانب.

وفي شهر تشرين الثاني، سلّم أحد الخونة المجموعة إلى المخابرات الألمانية (GESTAPO). فاعتُقل "مانوشيان" وأكثر من ستين من رفاقه، بين رجل وامرأة - ومنهم الثلاثة والعشرون، الذين وردت أسماؤهم وصورهم في "الإعلان الأحمر".

وقد عُذّبوا تعذيباً مروّعاً، ثم أُعدِموا بإطلاق النار عليهم في جبل "فاليريان"، بتاريخ 1944/2/21.

وفي الليلة التي سبقت إعدامهم، كتب "مانوشيان" لزوجته، يقول لها:

"أنا لا أبغض الشعب الألماني".

كتب "خوسيه مارتي" (José MARTI)، الكوبي، قبل معركة "ماتانزاس" (MATANZAS)، التي وضعت حداً لحياته، في دفتره الخاص:

"إنّ وطننا هو البشريّة".[34]

كان "أوغستو سيزار ساندينو" (Augusto César SANDINO)، قد قاد أوّل حربٍ شعبيّة للتحرير الوطني في نيكاراغوا. وفي شهر كانون الثاني من عام 1934، كان آخر جنديّ في البحريّة الأميركيّة، قد غادر "ماناغوا" (MANAGUA). وفي مساء 1932/2/22، خرج "ساندينو" من القصر الحكومي، وتوجّه نحو الكاتدرائيّة. وكان "بيدرو ألتاميرانو" (Pedro Altamirano) يرافقه. وكان قَتَلَةُ "سوموزا" (SOMOZA) يكمنون له عند مفترق شارع "لا فيتوريا" (la VITORIA). كانت إصابة "ساندينو"، قاتلةً، فانهار. فانحنى فوقه ألتاميرانو، فتمتم "ساندينو" هذه الكلمات: "أردنا أن نحملَ النّورَ للعالم".[35]

أذكر يوماً بعيداً من أيام شهر آذار عام 1972، كنتُ في مدينة "سانتياغو"، عاصمة التشيلي. كان آنذاك وقت هجوم الثوار الفيتناميّين على خط الاستواء السابع عشر. ونزلتُ ذات صباحٍ إلى بهو الفندق، فرأيت إعلاناً ضخماً، كان العاملون في الفندق، قد أعدّوه خلال الليل. وكانوا قد رسموا فيه، بأحرفٍ حمراء كبيرة، هذا التساؤل: "هل هناك أجمل من هذا الهجوم، برهاناً على طاقة الفكر البشري؟". فلقد وجد المقاتلون الفييتناميّون الشجاعة للانتقال إلى الهجوم، بعد أن كانوا ذُبحوا، وأُحرقوا بالنابالم، وقُصفوا بالطائرات، وبعد أن أُحرقت قراهم، ودُمِّرت مشافيهم، وشُوِّه أطفالهم، وتعرّض بلدهم لعدوانٍ شنّه أعتى جيشٍ في العالم. فلقد أحدث هجومهم هبّةً نفسيّةً تجاوزت البحار. وكانت آنذاك قد طالت وجدان عشرات الألوف من العمال، في الشاطئ الغربي من المحيط الهادئ. وكانت تُحيي

أملهم، وتجدّد فيهم القوّة، بعد الإحباط العابر الذي كان قد استولى عليهم، إثر حملة التخريب الأولى، التي قادها أصحاب الشاحنات التشيليّين (في شهر كانون الثاني عام 1972)، ضدّ الحكم الديمقراطي المنتخَب، حكم "سلفادور ألنديه" (S. ALLENDE).

هل الحركات الإسلاموية تبعث الأحلام في الشعوب؟ بالطبع كلا!

ما الذي يقترحونه؟ الشريعة، وأيادي اللصوص المقطوعة، ورجم الزوجات المتّهمات بالزنى، والعودة بالنساء إلى وضعٍ لاإنساني، ورفض الديمقراطيّة، والتخلّف الفكريّ والاجتماعيّ والروحي، على أبشع نحو.

ومنذ أكثر من ثلاثين عاماً، يعاني شعب فلسطين الشهيد، من احتلالٍ عسكري، على جانبٍ فاضحٍ من الوحشيّة والاستهتار. ومن هم اليوم أكثر المقاومين الفلسطينيّين الفاعلين، المناهضين لنظام شارون الاستعماري، القائم على إرهاب الدولة؟ إنّهم مقاتلو حماس والجهاد الإسلامي، هؤلاء الرجال والنساء، الذين إذا انتصروا، سيغرّقون المجتمع الفلسطيني، المتعدّد الديانات والأعراق، في التطرّف.

وما القول في الذكرى التي خلّفها "نبيل صحراوي" في ذاكرة المغاربة والأفارقة، عنيتُ به "مصطفى أبو ابراهيم"، و"عمارة سيف" الملقب "بعبد الرزاق البارا"، و"عبد العزيز ابي"، الملقب "بعقدة البارا"، وهم الزعماء الثلاثة المتوفّون لحركة التبشير السلفيّة؟ وكان أوّلهم، وقد ولد في "قسطنطين" عام 1966، لاهوتيّاً متبحّراً، مولعاً بالمعلوماتيّة، فيما كان الآخران وحشيّين دمويّين، فارّين من الجيش الجزائري. ولقد اقترنت أسماء هؤلاء الرجال الثلاثة إلى الأبد، بأعمال الذبح والتعذيب والنهب، التي أنزلوها بالرعاة والفلاحين في طريق الصحراء الكبرى.

كان "عبد العزيز المقرن" زعيم القاعدة في شبه الجزيرة العربيّة.

ولقد كانت صدفةً غريبةً، أن يُقتَل في اليوم نفسه الذي قُتِل فيه نبيل صحراوي، أي في 18 حزيران من عام 2004. وقد قُتِل "المقرن" في أحد أحياء الرياض الراقية، فيما قُتِل الصحراوي في إحدى غابات "القبائل".

ترى، هل سيظل "المقرن" في وجدان الناس، بمثابة "تشي كيفارا" و"باتريس لومومبا"، العربي؟ بالتأكيد لا! فإنّ إرثَه الوحيد، هو هذه الأشرطة المسجلة، المليئة بعظاتٍ مشوّشةٍ وحاقدة، وتلك الأجساد المطحونة، الملقاة على أرض المدن السعودية، إثر تفجير الشاحنات المفخخة، والمليئة بقنابل مصنوعةٍ محلّيّاً، ومحشوّةٍ بالمسامير.

إنّ الإرهاب الإسلامَوي يغذّي العنف البنيويّ والحرب المتواصلة، اللذين يقومان في أساس "إمبراطوريّة العار". وهو يدعم منطق القدرة المنظمة. وإنّه، على نحو ما، يسوّغها.

والإمبراطوريّة، من جهتها، تستثمر الإرهاب الإسلامويّ بمهارةٍ تستحقّ الإعجاب. وإنّ تجّار الأسلحة فيها، ومنظّري حربها الاستباقيّة، يَجنُون منه ربحاً أكيداً.

بالطبع، هناك سنواتٌ ضوئيّةٌ تفصل الجهاديّين الإسلامويّين، عن المقاتلين من أجل العدالة الاجتماعيّة الكونيّة. وإنّ حلم الجهاد ليس سوى حلم تدميرٍ وانتقامٍ وجنونٍ وموتٍ. أمّا حلم أبناء وبنات "جاك رو" (و"سان جو" و"بابوف")، فإنّما هو "يوطوبيا" من أجل الحرية والسعادة المشتركة.

إنّ عنف الجهاديّين، اللاعقلاني، هو مرآةٌ لبربريّة "سادة الأرض". والحركة الديمقراطيّة هي وحدَها الكفيلة بالتغلّب على هذا الجنون المزدوج.

كانت استقلاليّة الضمائر أجمل فتوحات عصر الأنوار. وإنّ هذه الضمائر، إذا جُمِّعت واتّحدت، لقادرةٌ في الواقع على إحداث موجةٍ عارمةٍ، تستطيع أن تقلّم أظافر "إمبراطوريّة العار"، بل أن تكنّسها!

وإنّ أسلحة التحرير، هي تلك التي ورثناها عن ثوار أواخر القرن الثامن عشر، من أميركيّين وفرنسيّين: إنّها حقوق الرجل والمرأة، وحريّاتهما، وهي الاستفتاء العام، وممارسة السلطة بتكليف قابلٍ للإلغاء. وهذه الأسلحة متوفّرة، وفي متناول اليد. وكلّ من يُعملُ الفكرَ في العالم بعبارات التبادليّة والتضامن، يتوجّب عليه أن ينتهز ذلك دون تأخير. يقول "أرنست بلوخ": "إلى الأمام نحو الجذور".[36]

ثمّة مقتضى أخلاقي يسكننا. وإنّ "عمانوئيل كانت" لَيحدّده على النحو التالي: "لا تفعل في كلّ لحظةٍ إلا وفق الشعار الذي تودّ - بملء إرادتك - أن يصبح قانوناً عمومياً".[37] ذلك بأنّ "كانت" كان يحلم "بعالمٍ ذي جوهر مغايرٍ كلّيّاً". وإنّ هذا العالم يمكنه أن يولد من تمرّد الضمائر المستقلّة، المتحالفة.

إنّ استعادة السيادة الشعبيّة، وفتح الطريق للبحث عن السعادة المشتركة، يشكّلان اليوم أكثر المقتضيات إلحاحاً.

مراجع القسم الأول

[1] "جاك رو"، "بيان الغاضبين"، الذي سُلّم للجمعية الوطنية في 25 حزيران عام 1793

[2] "لويس انطوان دو سان جوست"، "الأعمال الكاملة"، منشورات باريس، غاليمار، عام 2004.

[3] المرجع ذاته.

[4] "آلام دون حدود"، منظمة فرنسية غير حكومية.

[5] هنري دو لوباك: "التراث الروحي لجواشان دوفلور"، باريس، Le Sycomore، عام 1979

[6] هنري لوفيفر: "هيجل، ماركس، نيتشه أو مملكة الظل". منشورات باريس Castermann، عام 1975

[7] "لويس انطوان دو سان جوست"، المؤلفات الكاملة.

[8] راجع Roger BASTIDE: "انتروبولوجيا تطبيقية"، باريس Payot، عام 1971.

[9] عاش ماركس من عام 1818 إلى 1883/3/14.

[10] روبرت بلاك: "أين وكيف يموت 10 ملايين طفل كل عام؟" مجلة "the Lancet"، عدد خاص عنوانه: "أطفال العالم المنسيّون"، لندن، 2003/7/12.

[11] هذه المنظمة أسّست عام 1964، بفضل اقتصاديين من أميركا الجنوبية وعرب، منهم الأرجنتيني "راول بروبيش" (Raoul Prebish) (الذي كان أول أمين عام لها). وكانت ترمي إلى مساعدة البلدان في القسم الجنوبي من الأرض، في تصحيح انعدام المساواة في التبادل التجاري، الذي كانوا (وما زالوا) هم ضحاياه، على نطاق السوق العالمية. وهذه المنظمة، تقوم إدارتها في "قصر الأمم" في جنيف. نشرتها سنوية، وهي مرجع هام، وتحمل اسم: "Trade and Development Report".

[12] بتاريخ 2004/7/20، أعلنت (Microsoft) أن مساهميها سيحصلون 75 مليار دولار من أرباح الأسهم خلال الفترة (2004–2008).

[13] راجع "Jean-Philippe Domec": "روبسبير، في أيامه الأخيرة". باريس – دار نشر Seuil، عام 1984.

[14] راجع صحيفة: le Monde، 2004/9/6.

[15] راجع: Merrill Lynch et Capgemini، "تقرير الصحة العالمي"، نيويورك، عام 2007

[16] تشارلز ديكنز: "مغامرات اوليفر تويست"، باريس نشرة (Livre de Poche)، سلسلة Classiques، رقم 21003.

[17] جان بول سارتر: "نقد العقل الجدلي"، باريس، غاليمار، 1960، الجزء الأول ص 208 تابع.

[18] هذا النص منقوش في أرض ساحة الأمم المتحدة، في نيويورك.

[19] صحيفة le Monde، 2004/8/28

[20] دونالد رامسفيلد إلى وكالة الاسوشيتيد برس، في 2003/7/1.

[21] ريشار لابيفيير، "كواليس الإرهاب"، باريس عام 2003، هي 232.

[22] أعمال مؤتمر المؤسسة "جذور وينابيع"، جنيف عام 2004

[23] وليم بويكين، في صحيفة "The Los Angeles Times"، 2003/10/16.

[24] هناك محكمة أوروبية لحقوق الإنسان، ولكن صلاحيتها إقليمية.

[25] يدعى "جريمة حرب"، كل اعتداء خطير ضد أحد الإجراءات المنصوص عليها في إحدى اتفاقيات جنيف الأربع (وفي ملحقيها المضافين) لعام 1949. والجرائم ضد الإنسانية تُعرَّف على نحو كامل في دستور محكمة الجرائم الدولية، الموقع في روما عام 1998.

[26] إن قرار مجلس الأمن، ذا الرقم 1991، يحظّر على الحكومة العراقية الطيران وكل تدخل عسكري شمال خط الاستواء (36)

[27] بوسطن، منشورات Houghton MIFFLIN

[28] Seymur M. Hersh: "حلقة القيادة": من 11 أيلول إلى أبو غريب" نيويورك منشورات Harper Collins، عام 2004.

[29] إنه المستشار القانوني للرئيس آنذاك (ووزير العدل الحالي) "ألبرتو غونزاليز"، الذي أثار هذه المذكرة، ومنذ 2005/1/20، "البرتو غونزاليز" هو وزير العدل.

[30] لدى الأمم المتحدة ثلاث فئات من الموظفين. في الدرجة الدنيا، فئة "الخدمات العامة"، وفيها جميع المستخدمين التقنيين (أمناء سر، سائقون، شرطة، صيانة، الخ...). فئة "المختصّين" أو الكادرات (اقتصاديّين – قانونيّين، علماء الخ...) تقسم إلى خمسة أقسام: P-1 إلى P-5. أما السبعة عشر أميناً عاماً مساعداً، ومساعدوهم، ومدراء الصف (1) و(2)، والأمين العام نفسه، فإنهم ينتمون إلى فئة ثالثة. والبيت الأبيض يسهر قبل كل شيء على هؤلاء.

[31] من أجل معرفة جذور حرب "كوسوفو"، راجع (Wolfgang Petriteh) في كتابه: "كوسوفو، كوسوفا"، Klagenfurt, Wiesner عام 2004.

[32] ريجيس دوبريه: "الولايات المتحدة الغربية، كل شيء على ما يرام..." – مجلة "ماريان"(Marianne)، باريس 14 حزيران 2004.

[33] خطاب ألقي في "نادي اليعاقبة"، في 1792/8/9. راجع جان–فيليب دوميك: "روبسبير، في أيامه الأخيرة".

[34] إن يوميات "خوسيه مارتي" جمعت ونشرت في معهد كوبا للكتاب، هافانا. الجزء الرابع نشر عام 1980.

[35] "فكر ساندينو الحي: رسائل، نصوص ومراسلات"، تقديم جان زيغلر، مقدمة بقلم "سرجيو راميريز"،باريس، منشورات (la Brèche)، عام 1981.

[36] أرنست بلوخ: "الحق الطبيعي والكرامة الإنسانية"، باريس، منشورات Payot، عام 1976.

[37] ايمانويل كانت: "نقد العقل الخالص"، باريس، منشورات غاليمار، عام 1980.

القسم الثاني

في أسلحة الدمار الشامل

I- الدَّيـن

إنّ شعوب البلـدان الفقـيرة يستميتون في عملـهم، مـن أجـل تمويـل تطوّر البلدان الغنيّة. فإنّ الجنـوب يمـوّل الشـمال، ولا سـيما الطبقـات المسيطرة في بلـدان الشـمال. وإنّ أقـوى وسـائل سـيطرة الشـمال علـى الجنوب، هو اليوم، خدمة الدَّين.

إنّ تـدفّق رؤوس الأمـوال مـن الجنـوب إلى الشـمال، يفـوق تـدفّقها من الشمال إلى الجنوب. إنّ البلدان الفقيرة تدفع كلّ سنةٍ، للطبقـات المسيطرة في البلدان الغنيّة، أكثر بكثير ممّا تتلقّى منها، تحت أشـكال الاسـتثمارات، وقـروض التعـاون، والمسـاعدة الإنسـانيّة، أو الإعانـات مـن أجل التنمية.

في عام 2006، كانت المساعدة العامة من أجل التنمية، التي قدّمتـها الـدول المصـنّعة في الشـمال، لمائـة واثنـتين وعشـرين دولـة في العـالم الثالث، قد بلغت 58 مليار دولار. وكانت هذه البلـدان، في العـام نفسـه، قـد حوّلـت لسـادة الأرض في مصـارف الشـمال، (501) مليـار دولار، بوصفها خدمةً للدَّين. وهـذه الخدمـة هـي التعـبير بعينـه عـن العنـف البنيوي الذي يسكن النظام الحالي للعالم.

لـيس ثمّـة حاجـةٌ إلى الرشاشـات والنابـالم والمصـفّحات، مـن أجـل استعباد الشعوب وإخضاعها. فالدَّين اليوم يقوم بالمهمة.

هنـاك جمعيّـةٌ واسـعةٌ، تُـدعى "يوبيـل عـام 2000"، تضـم مسـيحيّين ينتمـون إلى مختلـف البلـدان الأوروبيّـة. وقـد قـاد هـؤلاء الرجـال

والنساء، بمناسبة الانتقال إلى الألفيّة الثالثة، حملةً عموميّةً، عرفت فعاليّةً نادرةً، كي يعرّوا أمام الوجدان الغربي، الجرائم المرتكبة باسم هذا الدَّين.

وترى هذه الجمعيّة أنّ الضغط الذي يمارسه الدائنون (في صندوق النقد الدولي FMI، وفي المصارف الخاصة) على النساء والرجال والأطفال الجياع، في أفريقيا، وآسيا الجنوبية، وجزر الكاريبي، وأميركا الجنوبية، يعادل إنكاراً للسيادة.

إنّ حقبة السيطرة بالدَّين تعقب، دون انتقالٍ، الحقبة الاستعماريّة. وإنّ عنف الدَّين الخفي، قد حلّ محلّ الفظاظة المرئيّة للسلطة المركزيّة. وهاكم مثالاً على ذلك. ففي مطلع الثمانينيّات، فرض "صندوق النقد الدولي" (FMI) على البرازيل، خطّةً بالغة القسوة من أجل إعادة ترتيب بُناه. فاضطرّت الحكومة لتقليص نفقاتها على نطاقٍ واسعٍ. من ذلك، أنها أوقفت حملةً وطنيّةً للتلقيح ضدّ الحصبة. فانتشر عندَها وباء الحصبة على نحوٍ مرعبٍ، عام 1984 بالتحديد، مات بسببه عشرات الألوف من الأطفال، الذين لم يُلقَّحوا.

إنّ الدَّين كان قد قتلهم!

وحسبت "جمعية يوبيل 2000" أنّه في عام 2006، سيموت طفلٌ دون العاشرة، كلّ خمسِ ثوانٍ، بسبب الدَّين.[1]

إن الدَّين يعود بالفائدة على فئتين من الأشخاص: "سادة الأرض" (وهم الدائنون الأجانب)، وأفراد الطبقات الوطنيّة المسيطرة. ولننظر أوّلاً ناحية الدائنين.

إنّهم يفرضون على البلدان المستدينة شروطاً بالغةَ القسوة. فإنّ حكومات العالم الثالث تضطرّ في حقيقة الأمر، أن تدفع، مقابل ديونها، نسباً من الفوائد، تفوق ما بين خمس إلى سبع مرات، النسب المألوفة في الأسواق الماليّة. ولكن "سادة الأرض" يفرضون شروطاً

أخـرى أيضـاً: أن تخصـخص الحكومـات وتبيـع للأجـنبي (وتحديـداً للـدائنين)، بعـض المشـاريع القليلـة، النـادرة، مثـل المنـاجم والخـدمات العامّة (الاتصالات الخ...) المربحـة، أن تمـنح امتيـازاتٍ ضـريبيّةً فاحشـةً للشركات العـابرة للقـارّات، كمـا هـي تضـطرّ لشـراء أسـلحةٍ، كـي تسـلّح بها جيشَها الوطني الخ...

ولكن الدَّين يعود أيضاً بفائدة ضخمة على الطبقات الحاكمة في البلدان المستدينة. ذلك بأنّ العديد من حكومات الجنوب، لا يمثّل إلا مصــالح فئــةٍ ضــيّقةٍ مــن شــعوبهم، وهــي الطبقــات المســمّاة (Compradores). وما الذي تعنيه هذه الكلمـة؟ إنهـا تعني نمطين من الطبقات الاجتماعيّة.

النمط الأوّل: في عهد الاستعمار، كان السيّد الأجنبي بحاجةٍ إلى مسـاعدين محلّـيّين. وقـد مـنحهم امتيـازاتٍ، وائتمنـهم علـى بعـض الوظـائف، وأنشـأ لـديهم ضـميراً طبقيّـاً (مسـلوباً). فاسـتمرّت هـذه الطبقـة في معظـم الحـالات، بعـد رحيـل المسـتعمر، وأصـبحت هـي الطبقة الجديدة الحاكمة، في الدولة التي خلّفها الاستعمار.

الـنمط الثـاني: إنّ معظـم دول الجنـوب تقـع اليـوم اقتصـاديّاً، تحــت ســيطرة رأس المــال الأجــنبي والشــركات الخاصــة، العــابرة للقـارات. وإنّ القـوى الأجنبيّـة تسـتخدم إداريّـين وفنّـيّين محلّـيّين، يموّلــون محــامِي القضــايا المحلّيّــة والصــحفيّين الخ... وهــم بــدورهم يشــترون، بطــرقٍ خفيّــةٍ طبعــاً، أهــمّ الجنــرالات وقــادة الشرطة. وإنّهم ليؤلّفون شريحةً ثانيةً من العملاء.

إنّ كلمــة "كــومبرادور" بالإســبانيّة، تعــني "الشــاري". فالبورجوازيّــة الكومبرادوريّة، هـي البورجوازيّـة "المشـتراة" مـن قبـل الإقطـاعيّين الجـدد. وهي تدافع عن مصالح هؤلاء، لا عن مصالح الشعب الذي خرجت منه.

إنّ الرئيس المصري، "حسني مبارك"، يحكم نظاماً سارقاً وفاسداً.

وإنّ سياستَه الداخليّة، كما هي حال سياستِه الإقليميّة، تخضع كلّيّاً لأوامر ومصالح أوصيائه الأميركيّين.

إنّ "برويز مشرّف" يحكم الباكستان. وإنّ رجال المخابرات الأميركيّة هم الذين يحمونه ويثبّتونه. وهو يتلقّى كلّ يومٍ، على نحو مباشر، أوامره من واشنطن. وماذا عساني أقول عن طبقات المزارعين الكبار في "هوندوراس" و"غواتيمالا"، والطبقات الحاكمة في "أندونيسيا" و"بنغلادش"؟ إنّ مصالحَهم مرتبطةٌ حتى الصميم بمصالح الشركات عابرة القارّات، الناشطة في بلدانهم. وهي لا تبالي بالمصالح الأوليّة والحاجات الحيويّة لشعوبهم.

وفي السودان، فإنّ مختلف الشركات النفطيّة تقدّم حصَصاً ماليّةً لمختلف أحزاب الطبقة الحاكمة العميلة. وليس "لعمر بونغو" في "الغابون"، و"ساسو نغيسو" في "برازافيل" أن يستمرّا طويلاً في الحكم، لولا المال والنصيحة والحماية، التي توفّرها لهما، شركة "إلف" (ELF) النفطيّة، العابرة للقارات، ذات الأصل الفرنسي.

إنّ الاستلاب الثقافي لنخب بعض بلدان العالم الثالث، لا يني يفاجئ بعمقه.

أتذكّر سهرةً في فيلاّ "كوامي نكروما كريسنت"، الفخمة، في حي "اسوكورو"، في "أبوجا". كنت مدعوّاً على العشاء، من قبل المدير العام لإحدى أهمّ الوزارات في اتحاد نيجيريا. كان الرجل من قبيلة "الهاوسا"، وكان مثقّفاً، ودوداً وثرثاراً. كان قريباً للرئيس "اولوسيكون اوباسانجو".

وكان المدير العام هذا يشكو - ربّما كان محقّاً - من ثقل ما يُطلب منه من عمل. وفجأةً قاطعَته زوجتُه، وكانت هي أيضاً من مواليد "كانو" (KANO): "أجل، هذا صحيح! إنّك مرهقٌ بالعمل! ولكننا لحسن الحظ سنكون قريباً جداً في "منتجعنا" (home leave). وبعبارة

أوضـح: في أيـام قليلـة سـنكون "في بيتنـا"، نـنعم بالهـدوء والعطلـة في منزلنـا في "سـاحة مونتـاغو" (Montagu Place)، في قلـب لنـدن. واستفاضت السيدة في الحديث عن المنظر الذي تنعم به من شرفة منزلها في لندن، وهي تطلّ على الحديقة الصغيرة والأشجار، وعن غنى البرامج السينمائية في حي "سوهو" (SOHO)، وعن الإثارة التي تستبدّ بها خلال مشاهد السباق في "دربي" (DERBY).

"هوم ليف" (Home Leave) عبارةٌ استعماريّةٌ نمطيّةٌ، راجت كثيراً في أوساط الموظّفين البريطانيّين، في "مركز إدارة المستعمرات"، طوال قرن ونيّف. والحال أنّ هذه العبارة تُستخدم اليوم كثيراً لدى بعض القادة في "نيجيريا".[2] فإنّ "ماربيلا" و"ألجزيرا" و"كان"، و"راس سان جاك"، هي أماكن الإقامة المفضّلة لدى الطبقات العميلة في المغرب، وهو أحد أكثر بلدان الجنوب، فقراً وفساداً. وإنّ بعض أفخم أحياء "ميامي"، يكاد لا يقطنها سوى عائلات محامي القضايا، الأثرياء، أو مدراء الشركات الأجنبيّة عابرة القارّات، الذين يعودون في أصولهم إلى كولومبيا أو الايكوادور. وإنّ طبقات العملاء في جزر الكاريبي على نحوٍ خاص، في خليج "بريكل درايف"، يملكون مطاعم وأنديةً وبارات، خاصة بهم.

لكم يتوجّب سماع بعض أحاديث سيّدات العائلات الكبيرة، من "غواتيمالا" أو "السلفادور"، وهنّ يتحدّثن عن خادماتهنّ الهنديّات، أو عن حرّاس شاليهاتهنّ على الساحل! فإنّ أعمق ما فيهنّ من احتقار لشعبهنّ، ينضح من كلّ جملة في أقوالهنّ!

إنّ الطبقات العميلة، الممسكات شكليّاً بمقاليد الحكم في بلادها، هي خاضعةٌ بالكليّة، فكراً واقتصاداً، للشركات العابرة للقارات، وللحكومات الأجنبيّة. وهذا الأمر لا يمنعها، إذ هي توجّه الحديث لشعوبها، أن تلهبَها بخطاباتٍ وطنيّةٍ ناريّة.

يقوم مركز "منظمة التجارة العالمّية" (OMC)، في بناءٍ يحمل رقم 157، في شارع "لوزان"، في جنيف. وأنا مضطرٌ لأسبابٍ مهنيّةٍ أن أحضر بعض اجتماعاته. وإنّه ليطيبُ لممثّل "الهندوراس" أن يتحدّث عن "الحقّ المقدّس"، الذي يعود لأمّة "الهندوراس"، في حصص تصديرها للموز. ما كان "لجورج دانتون" أن يجد تعابير أكثر تأثيراً منه. إلاّ أنّ الحقيقة العمليّة هي أنّ جميع صناعة الموز في "الهندوراس"، هي بيد شركة "شيكيتا" الأميركيّة الشماليّة، وأنّ السفير يقرأ على الأرجح - وأقرّ له بالتوفيق في هذه القراءة - نصّاً أعدّه له قسم العلاقات الخارجيّة في هذه الشركة، في مركزها الرئيسي في نيويورك...

إنّ "الهندوراس" هو أحد أفقر بلدان العالم: فإنّ 77.3٪ من سكانه، يعيشون في الفقر المطلق.[3] ولقد قُتل فيه أكثر من 700 طفلٍ مشرّد على يد "كتائب الموت" في عاصمته، "تيكوسيكابا" (Tecucigapa) ومدينة "سان بيدرو سولا" (San Pedro Sula)، وهي مركزه الصناعي، ما بين شهر شباط عام 2003 وشهر آب عام 2004.[4] ولقد تفاقم فيه اليوم وضع أطفال الشوارع سوءاً.

إنّ شريحة الضبّاط الأصليّين، داخل الطبقات العميلة، تلعب على العموم دوراً هامّاً. وإنّ الهندوراس لَيقدّم أيضاً بهذا الشأن نموذجاً مثيراً. كان الجنرال "كوستافو ألفاريز"، رئيساً للأركان في ثمانينيّات القرن الماضي، وهو وحشٌ ذو شاربٍ غليظ، كان يحتلّ آنذاك، وفقاً لمصادر المعارضة الديمقراطيّة، مركز الزعيم السرّي للكتيبة (316). وكانت هذه الكتيبة تُعتبرُ مسؤولةً عن الاغتيال الصريح، لما يُقارب 200 مواطنٍ من "الهندوراس"، يرفضون أن يُستخدم وطنُهم بمثابة حاملة طائراتٍ للولايات المتحدة، ضدّ "نيكاراغوا" الصاندينيّة. وفي ذلك الوقت، كان "ألفاريز" على اتصالٍ وثيقٍ "بجون نيغروبونتيه"

(John NEGROPONTE) - الملقب بالحاكم الطاغية - وهو سفير أميركا في "الهندوراس" من 1981 إلى عام 1985. وكانت إدارة "ريغان" قد منحت عام 1983، الجنرال "الفاريز" "وسام الاستحقاق"، لأنّه "مشجّع الديمقراطيّة". وأمّا "جون نيغروبونتيه"، فقد عُيّن سفيراً في بغداد، عام 2004.

إنّ الطبقات العميلة قد مضى على وجودها ردحاً من الزمن، وبلغت في خطبها الوطنيّة من الحماس، بحيث باتت شعوبٌ كثيرة تسلّم بها بوصفها سلطاتٍ "طبيعيّة". وإنّه ليصعب على هذه الشعوب أن تدركَ الدور الذي تلعبه هذه الطبقات، في خدمة أسيادها، "سادة الأرض".

إنّ الدَّين يشكّل بالنسبة إلى الطبقات الحاكمة في البلاد المحكومة، امتيازاتٍ كثيرةً. فإن تَوجَّب على حكومات المكسيك وأندونيسيا وغواتيمالا، وجمهورية الكونغو الديمقراطيّة، وبنغلاديش، أن تباشر في إنشاء بُنىً تحتيّةٍ، وسدودٍ، وطرقاتٍ، ومرافئ، ومطاراتٍ، وبعض المدارس والمشافي، فإنّها تجد نفسها أمام حلّين. فإمّا عليها أن تفرض ضرائب وفق نظامٍ تصاعدي، وإما عليها أن تتعاقد على دَينٍ لدى المصارف الأجنبيّة.

إنّ دفع الضرائب لأمرٌ فظيعٌ، فيما الاستدانة باتت من السهولة بمكان.

ولما كانت الغالبيّة العظمى من حكومات العالم الثالث، خاضعةً بالكليّة لمصالح الطبقات العميلة، فهي تختار في انتظامٍ ثابتٍ، الحل الثاني. والمصارف الأجنبيّة تسارع لدى أدنى إشارةٍ.

ولكن الدَّين يجلب العديد من الفوائد للطبقات الحاكمة الوطنيّة. فهي التي تستفيد بالدرجة الأولى، من الاستثمارات في البنى التحتيّة الثقيلة، التي يموّلها الدَّين. فالدولة تبني في الواقع، بفضل الاعتمادات الأجنبيّة، قبل كلّ شيء، طرقاتٍ إلى المزارع الكبرى، وتُعِدّ المرافئ

لتسهيل تصدير القطن والقهوة والسكر - ولكنّها أيضاً تستثمر في فتح خطوطٍ جويّةٍ داخليّةٍ، وفي بناء ثكناتٍ عسكريّةٍ و... سجون!

إنّ خدمة الدَّين (أي دفع الفوائد وبعض الأقساط) تمتصّ معظم موارد البلد المستدين. فلا يعود يتبقّى بعد ذلك، شيءٌ لتمويل الاستثمارات الاجتماعيّة: المدرسة العموميّة، والمشافي العامّة، والتأمينات الاجتماعيّة الخ...

وعندما يتفاقم العجز المالي، يشتدّ الضغط، ويزداد الدائنون إلحاحاً، وتصل "شرطة صندوق النقد الدولي" من واشنطن، فيتفحّصون وضع البلد الاقتصادي، ويمرّرون "رسالة ذات قصد". فيضطرّ البلد المضيَّق عليه، أن يقبل "في حرية"، الخضوع لمزيد من التضييق! فيعمد إلى تقليص ميزانيّات الإنفاق. أين تُراه يُجريها؟

لن يقتطع ذلك البتّة من ميزانيّة الجيش وأجهزة الأمن أو الشرطة. فإنّ هذه المؤسسات ضروريّة لضمان أمن الاستثمار الأجنبي. فإنّ الجيش ورجال المخابرات والشرطة هم أبداً في حماية لصوص "سادة الأرض" ومنشآتهم، ضد التهديدات، أيّاً كان مصدرها. كما أنّ "صندوق النقد الدولي" لن يمسّ يوماً نظام الضرائب. فلا بأس بضرائب غير مباشرة، تحلّ أوّلاً بالموادّ الاستهلاكيّة: أفلا تصيب بالدرجة الأولى، الفقراء؟ أما الضريبة التصاعديّة على المدخول (أو حتى على الإرث)، فهي الكفر بعينه: وليس من مهامّ "صندوق النقد الدولي" أن يساعد على إعادة توزيع الدخل القومي. إنّما هو وُجِد ليمارس الضغط، ويضمن الدفع النظامي لفوائد الدَّين.

إنّ غالبيّة البلدان الواقعة في الجنوب، منخورةٌ بالفساد. فإنّ الوزراء والجنرالات وكبار الموظفين في المغرب، والهندوراس وبنغلادش والكامرون، يقتطعون قبل كلّ شيء، من الاعتمادات المقدّمة للخزينة العامّة، من قبل المصارف الأجنبيّةً، الأموال التي ستُنقل بعد ذلك،

لحساباتهم الشخصيّة لدى المصارف الخاصّة، في جنيف، أو في كبريات مصارف الأعمال في لندن أو نيويورك.

ولنعد إلى "الرسالة ذات القصد"، الهامّة. فإنّ البلد المستدين، عندما يتهدّده عجزُه عن دفع الدَّين، يجد نفسَه مضطرّاً (من قبل صندوق النقد الدولي)، لتقليص النفقات المدوّنة في ميزانيّة الدولة. ومن تُراه يعاني من هذا الإجراء؟

إنّهم بالطبع، قبل كلّ شيء، الناس البسطاء. فإنّ مالك المزارع الكبرى البرازيلي، والجنرال الأندونيسي، لا ينزعجان من إغلاق المدارس. فأولادهما يدرسون في مدارس فرنسا وسويسرا أو الولايات المتحدة. وإغلاق المشافي العامة؟ إنّهما لا يباليان بذلك: لأنّ عائلاتهما تجد العناية الطبيّة في مشفى جنيف الرئيسي، وفي المشفى الأميركي في باريس، أو في العيادات الخاصة في لندن أو ميامي.

إن عبء الدَّين يثقل الفقراء، والفقراء وحدَهم.

ولكي أبرز ملامح الدَّين في بلدان الجنوب، أعرض بعد قليل عدداً من الجداول. وأنا أستعيرها من "لجنة إلغاء دَين العالم الثالث" (CADTM)، وهي منظّمة غير حكوميّة من أصل بلجيكي، أنشأها ويحرّكها حتى اليوم "ايريك توسان" (Eric TOUSSAINT)، وهو بروفسور في الرياضيّات، ونقابي، ودَرَس تطوّر دَين بلدان الجنوب بدقّةٍ وصبرٍ فائقين. وقد انتهى الأمر، بفضله وفضل مساعديه من شبّانٍ وشابّاتٍ، إلى أن تُفرَض منظمة (CADTM) اليوم، على أنّها سلطةٌ مضادّة تواجه المؤسّسات التي ظهرت في أعقاب اتفاقيّات "بريتون وودز" و"منتدى باريس".[5] ولقد برهن "توسان" وفريق باحثيه عن موهبةٍ تربويّةٍ خارقة.[6] وإني لأورد لاحقاً، على سبيل المثال، الجداول التي أعدّها "اريك توسان" في عام (2003). فإنّ بنية الدَّين الخارجيّة لدى معظم البلدان - ربّما باستثناء دَين البرازيل والأرجنتين - لم تتغيّر كثيراً.

لدى دراسة هذه الهيمنة، يتّضح أنه سيكون مخطئاً بالكليّة، من يظنّ أنّ البلدان الفقيرة جداً، وذات الاقتصاد الضعيف التطوّر، والمداخيل الهشّة، هي وحدَها التي تتعرّض للخنق بفعل الدَّين. فإنّ البرازيل، إذ تنوء بدَينٍ خارجي يفوق مائتين وأربعين مليار دولار أميركي، وهو رقم يقابل 52٪ من منتوجها الداخلي الإجمالي، هي بذلك أكثر البلدان مديونيّةً في دول الجنوب. والحال أنّ البرازيل هي من حيث القوة الاقتصاديّة، الدولة الحادية عشرة في العالم. وتأتي طائراتها وسيّاراتها وأدويتها في طليعة الإنجازات التكنولوجيّة والعلميّة. ويُعتبر العديد من جامعاتها من أفضلها في العالم. ومع ذلك، فإنّ 44 مليوناً من سكانها البالغين 176 مليوناً، يعيشون في حالٍ مزمنةٍ من نقص التغذية. وإنّ سوء التغذية والجوع يقتلان كلّ عام، على نحوٍ مباشرٍ أو غير مباشرٍ، عشرات الألوف من أطفالها.

الدَّين الخارجي للعالم الثالث

وبلدان الكتلة السوفييتية السابقة عام 2003

	مجموع الدَّين بمليارات الدولارات	الفوائد والمدفوعات الإلزامية عام 2003 بمليارات الدولارات
أميركا اللاتينية	790	134
أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى	210	13
الشرق الأوسط وأفريقيا الشمالية	320	42
آسيا الجنوبية	170	14
أسيا الشرقية	510	78
الكتلة السوفييتية السابقة	400	62
المجموع	2400	343

المصدر: (CADTM لجنة إلغاء دَين العالم الثالث)

من هم دائنو هذا الدَّين؟

الدَّين الخارجي

2400 مليار دولار

قسم متعدد المصادر	قسم ذو مصدرين فقط	قسم خاص
يعود إلى مؤسسات "بريتون وودز"[7] وسواها 460 مليار دولار 19٪	640 مليار دولار 27٪	يعود إلى المصارف وشركات استثمار، ومحال تجارية وشركات عابرة للقارات الخ... 1300 مليار دولار 54٪

وعلى الرغم من أنّ غالبيّة البلدان المعنيّة تدفع بأمانةٍ ما يترتّب عليها من مدفوعاتٍ، فإنّ ديونَها الخارجيّة تذهب في تفاقم.

ولنلاحظ الأرقام خلال العقدَين الماضيين:

السنوات	مجموع الدين/ مليار دولار	الخدمات السنوية (الفوائد ومدفوعات الدين)
1980	580	90
1990	1420	160
1996	2130	270
1997	2190	300
1998	2400	300
1999	2430	360
2000	2360	380
2001	2330	380
2003/2002	2400	395

المصدر (CADTM)

كيف لنا أن نفسّر هذه الظاهرة؟ إنّ الأسباب متعدّدة. أوّلها: إنّ البلدان المديونة هي في الغالب بلدان منتجة للمواد الأوليّة، ولا سيما الزراعيّة، فيُضطرّون لاستيراد معظم المواد الصناعيّة (من آلات، وشاحنات، وأدوية، وإسمنت الخ...) التي يحتاجون إليها. والحال أنّ السوق العالميّة، خلال العشرين سنة الأخيرة، قد تضاعفت أسعار

موادّها الصناعيّة أكثر من ستّة أضعاف. وبالمقابل، فإنّ أسعار الموادّ الأوليّة الزراعيّة (من قطن وسكر القصب، وفول سوداني، والكاكاو والخ...) تواصل هبوطها. وإنّ بعض الأسعار، مثل سعر القهوة أو سكّر القصب، قد انهارت كلّيّاً. ولذلك فإنّ الدول المديونة تضطرّ للاستدانة من جديد، كي تموّل خدمة فوائد ديونها، وتتجنّب بالتالي الإفلاس والعجز، الذي تواجهه في حال استحالة استيراد المعدّات الصناعيّة الضروريّة.

ثمّة سببٌ آخر. فإنّ نهب الأموال العامّة في بلدان العالم الثالث (وعدد كبير من بلدان الكتلة السوفييتيّة السابقة)، والفساد المستشري، والرشاوى المنظّمة في تواطؤ مطبِق، مع بعض المصارف الخاصة، السويسريّة والأميركيّة والفرنسيّة، هو في أوج نشاطه. فإنّ الثروة الخاصة للدكتاتور المتوفّى في زائير، وهي اليوم جمهوريّة الكونغو الديمقراطيّة، كانت تبلغ قرابة ثمانية مليارات دولار. وقد خُبّئت هذه الغنيمة في بعض المصارف الغربيّة. وفي عام 2006، كان الدَّين الخارجي لجمهوريّة الكونغو الديمقراطيّة، يبلغ من جهته 15 مليار دولار.

إنّ جزيرة هاييتي هي أفقر بلدان أميركا اللاتينيّة، وثالث أفقر البلدان في العالم. وكانت عشيرة "دوفالييه" (Duvalier)، خلال فترة حكمه التي تجاوزت أربعةً وعشرين عاماً، قد سرقت من الخزينة العامّة، ونقلت إلى حساباتها الخاصّة في المصارف الغربيّة، 920 مليون دولار. والحال أنّ دَين هاييتي الخارجي يقارب اليوم هذا المبلغ.

السبب الثالث. إنّ شركات التغذية الزراعيّة، العابرة للقارّات، والمصارف الدوليّة، والشركات عابرة القارّات، للخدمات والصناعة والتجارة، تشرف اليوم على قطاعات واسعة من صناعات بلدان الجنوب. وهي تحقّق في معظم الأحيان، أرباحاً فلكيّةً. وإنّ القسم

الأعظم من هذه الأرباح يُعاد إلى المسؤول، في أوروبا وأميركا الشماليّة أو اليابان. وإنّ قسماً ضئيلاً من هذه الأرباح، يُعاد استثمارُه محلّيّاً، بالعملة الوطنيّة.

إنّ الاتفاقيّات المبرمة بين الشركة العابرة للقارّات والبلد المستقبِل، تسعى في الغالب إلى "استرجاع" الأرباح بالقطع النادر. مثال على ذلك:

هناك شركة أجنبيّة استقرّت في البيرو، وهي تستثمر أرباحها باقتناء الأراضي، ولكنّها ترفض بالطبع أن تنقل ملكيّة هذه الأراضي. فيمضي مديرها إذن إلى "ليما" ليتوسّط لدى مصرفها المركزي. فيضع هذا المصرف في تصرّفه دولارات يمكنه نقلها...

السبب الرابع. إنّ معظم الشركات العابرة للقارّات، العاملة في العالم الثالث، تستخدم براءاتٍ تملكها إدارة الشركة. من ذلك، مثلاً، أن شركتَي نستله في البيرو والتشيلي، وهما شركتا "بيرولاك" و"شيبرودال"، ترتبطان بإدارة نستله المسجّلة في سجلّ تجارة بلدة "شام" الصغيرة، الواقعة في مقاطعة "زوك" في سويسرا. وإنّ استخدام هذه البراءات يُدفَع بما يسمّى "جعالات"، وهذه "الجعالات"، مثلها مثل أرباح الشركات، تُنقَل إلى أوروبا واليابان وأميركا الشماليّة، أو إلى "جنّات الضرائب" في جزر الكاريبي، بالقطع النادر، وليس بالعملة المحلّيّة.

أخيراً، ثمّة سببٌ أخير: بالنسبة إلى السوق العالميّة لرؤوس الأموال، فإنّ الدول (بما لديها من مشاريع الخ...) في العالم الثالث، تشكّل هيئاتٍ مديونةً بالغةَ المجازفة. وانطلاقاً إذن من هذا المنطق، فإنّ المصارف الغربيّة الكبرى تفرض على مديوني الجنوب، نسباً من الفوائد تفوق بما لا يُقاس، ما يُفرَض على مديوني الشمال. فتساهم هذه الفوائد الفاحشة بالطبع في نزيف رؤوس الأموال، الذي يصيب بلدان الجنوب.

ومثلما أنّ جسم الإنسان يفقد دمَه إثر اعتداءٍ أو جرحٍ بليغٍ، فإنّ بلدان الجنوب، تجد أنّ مادّتها الحيويّة تُدمَّر بواسطة نهب الدائنين والمتواطئين معهم، من طبقاتٍ عميلةٍ. وهاكم هذا المثل، الذي أجده بالغ الوضوح.

في السبعينيّات، كان الدَّين الخارجي، المتراكم على دول أميركا اللاتينيّة، يبلغ قرابة 60 مليار دولار. وقد بلغ عام 1980، 240 مليار دولار. وبعد عشر سنوات فقط، ارتفع هذا المبلغ إلى ما فاق الضعفين، إذ بلغ 483 مليار دولار. وفي عام 2001، كان الدَّين الخارجي لأميركا اللاتينيّة يتأرجح حول 750 مليار دولار.[8] وإنّ هذا الدّين يتسبّب في نقل 24 مليار دولار كلّ عامٍ للدائنين، وذلك منذ ثلاثين عاماً. وباختصار، فإنّ هذه القارّة اضطرّت طوال ثلاثة عقود، لأن تفي من ديونها، ما بين 30 إلى 35٪ من مداخيلها العائدة من تصدير موادّها وخدماتها.[9]

من حيث المبدأ، إنّ الحصول على دَينٍ يجب أن يُتيح للبلد الذي يطلبه، أن يستثمر، وإذن أن يموّل تنمية بُناه الخاصة، وقواه المنتجة عامّة. وهو يستطيع بفضل هذه التنمية، أن يفي دَينه. ولكن هذا المنطق يجد ما يُفسده في الطريق. واليوم، فإنّ بلدان العالم الثالث تدفع فوائد تمضي في ارتفاعٍ مستمرٍ، وتفي ديونها على نحوٍ جزئي... وهي تزداد فقراً بصورةٍ مطّردة...

إنّ الدَّين الخارجي أشبه بسرطانٍ أُهمِل علاجه. وهو يتفاقم دون توقّف، وعلى نحوٍ محتومٍ. وإنّ هذا السرطان لَيحولُ دون خروج شعوب العالم الثالث من بؤسها، وهو يقودها إلى الاحتضار.

تُرى، ما الذي يمكنه أن يحدث، إذا ما رفض أحد البلدان الالتزام بالدَّين، ولم يعد يدفع الفوائد إلى مصارف الشمال، أو صندوق النقد الدولي؟

ليس هناك إجراءات قضائيّة في حال الإفلاس (والتوقّف عن الدفع الخ...)، تخصّ الدول التي تعجز عن الدفع. والقانون الدولي صامتٌ بهذا الشأن. ولكن، في الواقع، فإنّ الدولة العاجزة عن تسديد الدين، تُعامَل كما يُعامَل أيّ مشروعٍ خاص أو أيّ فردٍ يعجز، كلّيّاً أو جزئيّاً، عن تسديد ديونه.

ولنقدّم مثلاً: فمنذ عقدين، كانت الحكومة في البيرو، يوم كان على رأسها "ألان غارسيا" (Alan GARCIA)، قد ارتأت أنّ الوضع المالي الكارثي في البلد، لن يمكّنها البتّة من تسديد ديونها الخارجيّة بكلّيّتها، تلك التي كانت ارتبطت بها مع مؤسّسات "بريتون وودز" (Bretton Woods) والمصارف الخاصة الأجنبيّة، فقرّرت تسديد هذه الديون بنسبة 30٪ فقط من مجمل الديون. فماذا كانت النتائج؟

حدث أنّ أوّل باخرةٍ تَرفَع علم "البيرو"، وتحمل طحين سمك، ما إن دخلت مرفأ "هامبورغ"، حتى استولت عليها العدالة الألمانيّة، بطلبٍ من مجموع مصارف ألمانيّة دائنة. ويومها كانت جمهوريّة البيرو تملك أسطولاً جوّيّاً ودوليّاً راقياً. فما إن حطّت أولى طائراتها في نيويورك ومدريد ولندن، في الأيام التي أعقبت الإعلان عن تخفيض تسديد الديون وفوائدها، حتى صودرت بطلب من الدائنين المعنيّين.

باختصار: ما من بلدٍ مديونٍ في العالم الثالث، يستطيع اليوم أن يختار طريق العجز الصريح عن تسديد الدَّين، ما لم يكن قادراً على الانغلاق الكلّي على ذاته - وبذلك، على القبول بالانقطاع التام عن أيّ تبادلٍ دولي.

يقوم تفاوتٌ شاسعٌ، في معظم دول الجنوب الاثنتين والعشرين، بين نفقات الميزانيّة المخصّصة للخدمات الاجتماعيّة، وتلك المخصّصة لتسديد الدَّين. هاكم بعض الأمثلة:

قسم الميزانية المخصصة للخدمات الاجتماعية ولخدمة الدين[10]		
البلدان	الخدمات الاجتماعية	خدمة الدَّين
الكامرون	4.0٪	36.0٪
ساحل العاج	11.4٪	35.0٪
كينيا	12.6٪	40.0٪
زامبيا	6.7٪	40.0٪
النيجر	20.4٪	33.0٪
تانزانيا	15.0٪	46.0٪
نيكاراغوا	9.2٪	14.1٪

إنّ غياب الخدمات الاجتماعيّة (والوظائف) يعني للعائلات، البؤس والإذلال. وإنّ هذا القلق بشأن الغد، يجد ما يلطّفه أحياناً في تحويلات نقديّة من ابنٍ وابنةٍ، وقريبٍ مهاجر. ولكنّ هذا المورد هو أدنى من أن يحلّ المشكلة. واليوم، في العالم، فإنّ واحداً من خمسةٍ وثلاثين عاملاً، هو مهاجر. وفي عام 1970، كان المهاجرون يحوّلون إلى بلدانهم مليارَي دولار. وفي عام 1993، بلغ هذا المبلغ 93 مليار دولار. وهذا المبلغ يعجز كلّيّاً عن التنطّح لحلّ المشكلة.

إنّ تدهور البنى الاجتماعيّة التحتيّة، ليثير الغضب على نحوٍ خاص، عندما نلاحظ عشرات الملايين من الأطفال، الذين حُرِموا نهائيّاً من المدرسة. وفي المائة وإحدى وتسعين دولةً، الأعضاء في الأمم المتحدة، هناك 113 مليون طفلٍ دون الخامسة عشرة، خارج المدرسة، منهم 62٪ من البنات.

يحبّ الأوروبيّون أن يُمضوا أيام عطلتهم في مراكش، وأغادير، وتانجيه أو فاس. وفي المغرب، هناك 42٪ من البالغين لا يقرأون ولا يكتبون، و32٪ من الأطفال، الذين تتراوح أعمارهم بين 6 و15 عاماً، محرومون من أيّ شكل من أشكال التعامل مع المدرسة.

وقد أجرت منظمة "اليونيسيف" هذا الحساب:[11]

إنّ تـوفير الدراسـة لجميـع أطفـال العـالم، مـا بـين السادسـة والخامسـة عشـرة، تبلـغ كلفتـه بالنسـبة إلى الـدول المعنيّـة، قرابـة 7 مليارات دولار إضافيّة كلّ عام، طوال عشر سنوات. وإنّ هـذا المبلـغ هـو دون ما ينفقه كلّ عام سكان الولايات المتحدة على موادّهم التجميلية، أو أيضـاً: هـو دون مـا ينفقـه كـلّ عـام الأوروبيّـون (المقيمـون في إحـدى الدول الخمسة عشر، الأعضاء في الاتحـاد الأوروبـي في مـا سبق الأوّل من أيار عام 2004) من أجل شراء المثلّجات.

إنّ جمهوريّة وكانتون "جنيف" يشكّلان مساحةً صغيرةً رائعـةً، تقـع علـى ضـفاف بحـيرة يغـذّي مياههـا نهـر "الـرون"، والكتـل الجليديّـة البعيدة في جبال الألب. ولقد أُسِّست عام 1536، وهي تعدّ اليوم قرابـة 400.000 إنسـان، ينتمـون إلى مائـة وأربعـة وعشـرين جنسـيّةً مختلفـةً. وتكـاد أرضـها الوطنيّـة لا تتجـاوز 247 كـم^2. وأنـا أعـيش فيهـا، وفيهـا تحدث لي في الغالب لقاءاتٌ لطيفةٌ. إلاّ أنّي، منـذ فـترةٍ وجيـزةٍ، حـدث لي فيها لقاءٌ مقلقٌ للغاية.

نحـن في أواخـر يـوم الجمعـة، الموافـق 7 أيـار مـن عـام 2004. كـان مـدير مكتـب الاتصـال بـين الأمـم المتحـدة ومنظمـة اليونسـكو، وهـو "جـورج مالنبريـه" (G. MALEMPRÉ) يحتفـل بإحالتـه علـى التقاعـد، في الطابق الأرضـي مـن فيلا "موانييـه" (Moynier). حـدِّث عـن الـورود والخطابات والحرارة الإنسانية، ولا حرج...

كانـت الزمهريـر، خلـف الأبـواب - النوافـذ المرتفعـة، تهيّج الأمـواج السـوداء في بحـيرة "ليمـان". السـيد "مالنبريـه" هـو رجـل عميـق المودّة والشـجاعة: فلقـد كـان، طـوال أربعـين عامـاً، تفـانى كلّيّـاً في التطـوير المدرسي للأطفـال، في أكثـر البلـدان فقـراً. وقـد قَـدِم جمهـور أصـدقائه مـن مختلـف أنحـاء العـالم، ليكرّمـوه، هـو وزوجتـه وبناتـه. وقـد ألقـى

مدير اليونسكو العام السابق، "فيدريكو مايور" (Federico MAYOR)، وهو في أوج حيويّته، خطاباً في غاية الرقّة. وقد حضر أيضاً سفير بلجيكا وزوجته، السيد "ميشل آدم".

وعلى مبعدة رقيقة من الجمهور، لاحظتُ رجلاً أنيقاً، فتيّاً، مشرقاً، وفي نظره شيء من الاستخفاف. فقد اتّضح لي أنّه يجهل عادات وأعراف "قبائل" جنيف. فتقدّمت منه.

كان فرنسيّاً، في الأربعين. وكان قد وصل منذ أيّامٍ قليلةٍ من واشنطن. وإنّ لفي طريقة حديثِه، ولباسه، وتحرّكه في المجتمع، ما يوحي بأنّه من الطبقة التكنوقراطيّة الخالصة. وكانت مهمّته تمثيل مصالح صندوق النقد الدوليّ، لدى المنظمات الدوليّة في جنيف.

ولقد حذّرني للتوّ: "في حقيقة الأمر، أنا لا تعنيني إلاّ "منظمة التجارة العالميّة" (OMC).[12] والمعركة التي خاضتها "منظّمة الصحة العالميّة"؟[13] والتي خاضها "برنامج الغذاء العالميّ" ضدّ الجوع؟[14] والتي خاضتها "منظّمة العمل العالمي" ومديرها "خوان صومافيا"، ليفرض شروطاً لائقة للعمل؟[15] والتي خاضتها "المنظمة العالميّة من أجل المهاجرين"، كي توفّر لهم الرفاه؟[16] والتي خاضتها "الهيئة العليا لحقوق الإنسان"، من أجل مقاومة التعذيب؟ ومصير اللاجئين الذين تُدافِع عنهم اللجنة العليا للاجئين؟

من الواضح أنّه ما كان لِيُعير كلّ ذلك شيئاً من الاهتمام. وما كان يعني، قبل كلّ شيء، هذا المرتزق الأنيق، هو خصخصة الممتلكات العامّة، وتحرير الأسواق، وحريّة تنقّل رؤوس الأموال والبضائع، والبراءات الممنوحة من الشركات عابرة القارّات، في إطار "منظّمة التجارة العالميّة".

كان السيّد "C" ذكيّاً، مطّلعاً وحاذقاً في تحليلاته. إلاّ أنّه، شيئاً فشيئاً - وبتأثير من خمرة جنيف البيضاء! - فقد الانضباط الذي

تلقّاه في واشنطن. وكان قد سمع باسمي، وقد يكون تصفّح هذا أو ذاك من كتبي، وتبيّن لنا أنّ لنا صديقاً مشتركاً في البناء الإسمنتي، الذي يحمل الرقم 18181 في شارع (H Street)، في حي "نورث وست" في واشنطن.

وتوقّف فجأةً، ونظر إليّ نظرةً خاليةً من أيّة مودّة. ورفع يديه نحو السقف. كانت عيناه الرماديتان تعبّران عن العتب. وقال لي شيئاً من ذلك:

"انظر... إنّ الذي تفعله سيّئ... جميع هؤلاء الشبّان والشابّات، الذين يستمعون إليك، مشحونون بالحماس. فهم يتمنّون لو يُتاح لهم تغيير العالم... وأنا أتفهّمهم... ولكن ذلك أمرٌ خطير... لا سيما عندما يصادفون أناساً يجهلون بالكلّيّة الاقتصاد العالمي وضغوطه... إنّهم يصدّقونك... ولكن ماذا بعد؟"

فأجبته ببعض الاعتراضات اللطيفة.

فالتفت عندَها نحو الأبواب - النوافذ المفتوحة ونحو البحيرة. وأضاف وسط أنوار المساء الراحلة، ورائحة أوراق الشجر المبللة:

"إن قوانين السوق لا مهرب منها، وهي لا تتبدّل... لا فائدة... لا فائدة من الأحلام!"

كان الرجل على جانبٍ مطلقٍ من الصدق. إلاّ أنّي كنتُ هلعاً من ثقته. وكان ما يخيفني خصوصاً، هي السلطة العمياء والصمّاء التي يمارسها، داخل فريقه، دون شكٍّ، على حياة مئات الملايين من الرجال والأطفال والنساء، في آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبيّة.

إنّ صندوق النقد الدوليّ لا ينظّم شؤون الدَّين فقط، بواسطة رسائل ذات قصد، وخطط تصويب البنى، وتجديد التمويل، والإنذارات، وإعادة تنظيم البنى المالية، فهو يضمن أيضاً أرباح المضاربين الأجانب. فكيف تُراه يتصرّف؟

ولنتّخـذ مثـل التايلانـد. ففـي شـهر تمّـوز مـن عـام 1997، هـاجم المضاربون الأجانب العُملـة الوطنيّـة، المسـمّاة "الباهـت"، أمـلاً منـهم في تحقيـق أربـاح سـريعة وهائلـة علـى حسـاب عُملـة ضـعيفة. وعنـدها، سـحب البنـك المركـزي في بـانكوك، مئـات الملايـين مـن الـدولارات مـن احتياطيّاته، واشترى كميات "الباهـت" في السـوق. فكـان بـذلك يحـاول إنقاذ العُملة الوطنيّة.

عبثـاً. وبعـد ثلاثـة أسـابيع مـن النضـال، استسـلم البنـك المركـزي، وطلب العون من "صندوق النقد الدولي" (FMI). ففرض هـذا قروضـاً جديـدةً علـى الحكومـة. وكانـت بـانكوك مضـطرّةً لاسـتخدام هـذه القـروض الجديـدة، بالدرجـة الأولى مـن أجـل تسـديد ديـون المضـاربين الخصوصيّين. وبذلك لم يفقد أيّ من هؤلاء المضاربين الأجانب (وهم حيتان العقارات والبورصة)، فلساً واحداً في تايلاند.

وفي الوقت نفسه، اضطرّ صـندوقُ النقـد الـدولي، الحكومـةَ لإغـلاق مئات المشافي والمدارس، بقصد تقليص النفقات العامة، وتعليق إصلاح الطرقات، واسترجاع القروض التي كانت المصارف العامّة قد قدّمتـها للمتعهّدين التايلانديين.

والنتيجة؟ خلال شهرين فقط، فَقَدَ مئات الآلاف من التايلانديّين والعمّال المهاجرين، أعمالهم، وأُغلقت آلاف المعامل.

خـيّم الليـل علـى حديقـة "مـون روبـو" (MON-REPOS). وعـادت طيور الإوز إلى الشاطئ بكلّ أبّهة. وبكلّ رصانة، قـال لي هـذا المرتـزق: "عد اليوم إلى تايلاند... فالاقتصاد فيه مزدهر!".

أما الآلام، وحـالات القلـق التي تحمّلـها طـوال تسـع سـنواتٍ، مئـات الآلاف من البشر؟

إنّ السيد "سي" (C) لا يجيب. إلاّ أني أستطيع أن أعبّر بدلاً عنه، عن الجواب الذي كان دون شكّ على طرف لسانه:

"إنّ القلـق البشـريّ غـير قابـلٍ للقيـاس، وهـو لـيس أحـد عناصـر تحليل الاقتصاد العالمي. ولمّا لم يكـن قـابلاً للقياس، فهـو غـير موجـود بالنسبة إلى "صندوق النقد الدولي".

واجتزت سيراً على الأقدام الحديقة الغارقة في عتمـة الليـل، حتـى بلغت طريق "لوزان"، وكلي إيمان بأنّ المعركة ستكون طويلةً، ضدّ عدوّ هو اليوم أقوى من أيّ وقتٍ مضى. ولسوف يتعرّض مئات الملايـين مـن البشر لشتّى أنواع الإذلال - ولكن لشتّى أنواع المقاومة أيضـاً! - خـلال فترةٍ طويلة!

ولا يــأتينّ مــن يقــول لي إنّ إلغــاء الــدَّين أمــرٌ مســتحيلٌ، لأنّــه سيعرّض لخطر الموت النظام المصرفي العالمي كلّه! ففي كلّ مرّة يحدث لبلدٍ سحقته ديونُه، أن يسقط (مؤقّتاً) في حفرة العجز عن تسديدها (كمــا حــدث للأرجنــتين عــام 2002)، تُنبئنــا صــحيفة "وول ســتريت جورنال" وصحيفة "الفايننشال تـايمس" بنهايـة العـالم... إذا مـا أُعيد النظر في النظام الذي قاد إلى الكارثة. فهل هذه التظاهرات تعود إلى هشاشة الصحفيّين النفسيّة؟

بالطبع كلاّ. إنّهم يخضعون لاستراتيجيّة مدروسة. وإنّ مشاهدي التلفزيونـات الأوروبـيّين، أيّـاً كـان مـدى استسـلامهم، يلاحظـون يوميّـاً آثـار الخـراب الـذي يفرضـه الـدَّين. وهـم مشـمئزّون وقلقـون. إنهـم يطرحـون أسـئلة. وأمـا رجـال ونسـاء وأطفـال العـالم الثالـث، فـإنهم يتـألّمون في كيـانهم مـن نتـائج هـذا النظـام. وإذن لا بـدّ مـن "تبريـر" الدَّين. كيف السبيل إلى ذلك؟ أن يجعلوه "محتومـاً"... مـن هنـا كانـت حجّة مُرتَزَقة رأس المال النهّاب، المكرّرة ببغائيّاً: "كلّ مَن يمسّ الـدَّين، يُعرّض لخطر الموت، الاقتصاد العالمي".

ولنحلّــل قلــيلاً هــذه الحتميّــة المزعومــة. إنّ لصــوصَ الليبراليّــة الجديـدة اليـوم، يواجهـون مشـكلةً لم يكـن أسـلافهم في القـرن التاسـع

عشر، وفي النصف الأول من القرن العشرين، ليواجهوها. ففي زمن السلطة الاستعماريّة المنتصرة، كانت الحجّة العنصريّة تكفي بارتياح: "إنّ الزنوج كسالى، وهم لا يفهمون إلا القوّة... والعرب متخلّفون، عاجزون في ذواتهم عن تنظيم اقتصادٍ حديث، بأنفسهم ومن أجل أنفسهم. وماذا تُرانا نقول عن هنود جبال "الأنـدس" أو غابات غواتيمالا؟ إنّهم متوحّشون، أسعدهم الحظ بأن نهتمّ بقهوتهم! ولكن الوضع تغيّر اليوم. فهناك فضاء أحيائي آلي يوحّد العالم. ووسائل الاتصال انتشرت على نطاق الكون. وهي تعمل في الوقت الحقيقي. والشبكة العنكبوتيّة تتيح التواصل، في الآن نفسه، لمليارات المعلومات في العالم. من ناحية أخرى، فإنّ التلفاز، على جميع ما فيه من سيّئات، ينشر باستمرار صوراً من العالم. والسياحة الجماهيريّة تجلب التنقّل، لزمن محدود بالطبع، ولكن على نحوٍ متكرّرٍ، لمئات الملايين من البيض (واليابانيين)، نحو أكثر المناطق غرابةً. وهم يلتقون فيها البؤس والذل والجوع. وفي هذه الظروف الجديدة، لم تعد العنصريّة تفعل فعلها القوي. وهي لم تعد تُجدي في تسليم شعوب الشمال، بشرعيّة التوزيع المتفاوت لثروات الأرض ورؤوس أموالها.

كان إذن، لا بدّ من وجود تفسيرٍ آخر. وكان أن تقدّم "اللصوص" بنظريّة "القوانين الطبيعيّة"، التي يرون أنّها تتحكّم بحركة رؤوس الأموال. ولكن هذه النظريّة المزعومة، التي تفضي إلى استحالة إعادة النظر في نظام تديين بلدان العالم الثالث، لا تصمد أمام التحليل. فلننظر إلى ذلك عن كثب.

إنّ المدفوعات التي قدّمتها، خلال السنوات العشر الأخيرة، بلدان العالم الثالث، المائة والاثنتان وعشرون، بوصفها خدمة الديون المترتّبة عليها لدول ومصارف بلدان الشمال، قد بلغت ما يقارب 2٪ من المدخول الوطني المتراكم في البلدان الدائنة.

مـا بـين عـام 2000 و2002، تسـبّبت أزمـةٌ عنيفـةٌ في البورصـة، في اضطراب معظم الأسواق الماليّة، فدمّرت من القِيم المالية ما يساوي بضع مئات مليارات الدولارات. وخلال عامين فقدت معظم الأسهم البارزة في البورصة، 65٪ من قيمتها. أما أسهم التقنيّة العالية البارزة لدى "ناسداك" (NASDAQ)، فقد بلغ انهيارها أحياناً 80٪. وأخيراً، فقد فاقت القيم التي دُمّرت في البورصة، خلال هذه الفترة، سبعين مرّةً، القيمة المتراكمة لمجموع أسهم الدَّين الخارجي، في مجموع بلدان العالم الثالث، المائة والاثنين وعشرين.

ومع ذلك، فعلى الرغم من ضخامة رؤوس الأموال المتلاشية، فإنّ أزمة البورصة من عام 2000 إلى عام 2002، لم تتسبّب في انهيار النظام المصرفي العالمي: ففي فترة زمنيّة قصيرة نسبيّاً، استعادت الأسواق الماليّة عافيتها. وبدلاً من أن يجرّ في انهياره المفترض، مجمل الاقتصادات والوظائف والتوفير في دول الشمال، فإنّ النظام المصرفي العالمي قد تجاوز الأزمة على نحوٍ تام. وما من بلدٍ واحدٍ في الشمال - كي لا نتحدث عن الاقتصاد العالمي بمجمله - قد واجه أيّة مصاعب. ثمّة أزمةٌ جديدةٌ قد هزّت، خلال النصف الأول من شهر آب عام 2007، بورصات العالم، ودُمِّر أكثر من 3.000 مليار دولار، وقد تجاوزت الأسواق الماليّة العالميّة، هذا الدمار، دون مشكلة.

وإذن، ما الذي يَحُول دون إلغاء الدَّين؟

إن كان إلغاء الدَّين الخارجي للبلدان الفقيرة، إلغاءً غير مشروط، وأُحاديّ الجانب، وكاملاً، لا يدمّر - بالتأكيد - أيّاً من اقتصادات الغرب، ولا يُحدِث انهياراً في المصارف الدائنة، فمن غير المستبعد أن يُلحقَ ذلك بعض الأضرار، بهذه أو تلك من المؤسسات العامة أو الخاصة، في أوروبا أو أميركا. ولكن هذه الأضرار ستكون محدودةً كلّيّاً، وبالتالي، مقبولةً بسهولةٍ تامّةٍ، بالنسبة إلى النظام بكامله.

كتـب "جـان- بـول مـارا" (J-P MARAT) في "ملاحظاتـه الأساسـيّة حول اختيار مندوبينا إلى الجمعيّة الوطنيّة"، يقول:

« ما قيمة بضعة بيوتٍ ســرقها الشــعب في يــومٍ واحــدٍ، إزاء الاختلاسات التي تحمّلتها الأمّة كلّها، طوال خمسة عشر قرناً، حَكَمَنــا فيها ثلاثة أعراقٍ من الملوك؟ ما هو خراب بضعة أفــراد، إزاء مليــار إنسانٍ جُرِّدوا من كلّ شيءٍ، على يد السماسرة، ومصّاصــي الــدماء، ومُبدّدي أموال الشعب الحكوميّين؟ [...] لِندَعْ كلّ أفكارنــا المســبقة جانباً، ولنحدّق في الواقع. »[17]

أجـل، فلنكـرّر ذلـك: إنّ إلغـاءً خالصـاً لمجمـوع الـدَّين الخـارجي، لشعوب العالم الثالث، لن يكون له عمليّاً، أيّ أثرٍ على اقتصاد الدول الصناعيّة، ولا على رفاه شعوبها. ولسوف يبقى الأغنياء أغنياء جداً، ولكنّ الفقراء سيكونون أقلّ فقراً بقليل.

بـالطبع، هنـاك سؤالٌ حـارقٌ: لماذا، في مثـل هـذه الظـروف، تطالـب الإقطاعيّـات الرأسماليّـة الجديـدة وأجراؤهـا، في مؤسّسـات "بريتـون وودز" (Bretton Woods)، في تصلّبٍ لا يلين، بأن يُدفَع أدنى فلس من أدنى دَين، في الوقت المحـدّد لدفعـه؟ إنّ دوافعهـم لا علاقـة لهـا بأيّـة عقلانيّـة مصـرفيّة، ولكـن علاقتـها مرتبطـة بمنطـق نظـام الهيمنـة والاستغلال، الذي فرضوه على شعوب العالم.

إنّ خدمة الدَّين إنّما هي الحركة المنظورة للتبعيّة.

إنّ العبـد يركـع كلّمـا تلقّـى رسـالة ذات قصـد، مـن صـندوق النقـد الدولي، أو خطـة لتصويب بنيـوي. والحـال أنّ العبـد الواقـف هـو عبدٌ خطيرٌ، حتى لو كانت سلاسل ثقيلة وصدئة، تطوّق معصميه وعنقه، وقدميه. فلنأخذ مثل "بوليفيا".

وفي الواقـع، كيف يمكن التفاوض، لصالح السيّد الأجنبي حصراً،

حول عقود المناجم، الفاضحة، والتنازلات عن أراضٍ في الأمازون، وبيع الأسلحة، وخصخصة المشاريع العامّة المربحة أو الامتيازات الضريبيّة، بأسعار مضحكة، إن كانت "بوليفيا" لا تتمتّع بأدنى استقلاليّة ماليّة، ولا بأدنى استقلاليّة اقتصاديّة، ولا بأدنى كرامة سياسيّة؟

إنّ سادة رأس المال العالمي، يصطدمون بمقاومات في فنزويلا، وكوبا وبعض البلدان أيضاً - وربّما قريباً في الأرجنتين والبرازيل - ولكنهم في كلّ مكانٍ آخر، يجدون الطريق مشرعاً أمامهم. فلا بدّ إذن من اعتماد الحصار الاقتصادي، من أجل تدمير حكومة كوبا، وزعزعة رئاسة "هوغو شافيز" في كراكاس، عبر طريق تخريب "الشركة الوطنيّة للنفط" (PDVSA)، والتشهير برئيس الأرجنتين "كيرشنر"، وتضييق الخناق على البرازيل.

باختصار: يجب أن يُفرَض البقاء في أسفل القاع، على مَن هم في الأسفل. وإنّ "سادة الأرض" ليتفننّون في سبيل ذلك. فإنّ بقاء النظام والأرباح الفلكيّة التي يحقّقونها، تتوقّف على ذلك.

إنّ لشعوب العالم الثالث، كي تنعتق من قيود دَينها، ثلاث وسائل استراتيجيّة.

1. إنّ قادة الحركات الاجتماعيّة لدى الشعوب المستَعبَدة، يسعهم أن يتحالفوا مع حركات التضامن القويّة، القائمة في دول الشمال، ولا سيما مع "جمعية يوبيل عام 2000"، التي أرغم نشاطها الصلب، لا سيما في انكلترا وألمانيا، بعض المجموعات الدائنة - وحتى صندوق النقد الدولي - على تقديم تنازلاتٍ طفيفةٍ. وهكذا وُلدت "أوراق استراتيجيّة تخفيف الدَّين". ترى، ما المقصود بذلك؟

منذ أكثر من ثلاثين سنةً، ابتكرت الأمم المتحدة مصطلح (PMA)، الذي يعني "البلدان الأدنى تطوراً". وإنّ سكان هذه البلدان هم الذين لديهم أدنى مدخول على وجه الأرض. وثمّة مجموعة من

المؤشّرات المعقّدة، تحدّد هذه البلدان. واليوم هناك 49 بلداً (مقابل 27 عام 1972، وفي ذلك ما فيه من معنى الأزمنة) وردت في هذه الفئة. وهي تضمّ مجموعة 650 مليون إنسان، أي ما يزيد قليلاً على 10٪ من سكان الأرض. وإنّ هذه البلدان التسعة والأربعين تنتج أقلّ من 1٪ من المدخول العالمي. من هذه الدول، 34 تقوم في أفريقيا. و9 في آسيا، و5 في المحيط الهادي، وواحدة في جزر الكاريبي.

ثمّة بلدان تخرج من فئة (PMA)، وأخرى تدخلها. مثال على ذلك: إنّ دولة بوستوانا خرجت من هذه الفئة، بفضل سياسة الاستثمار والإصلاح الزراعيّين، فيما السنغال قد دخلتها حديثاً.

إنّ حَمْلة "جمعيّة يوبيل 2000" ترتكز على ملاحظتها أنّ الدَّين الخارجي، المتراكم لدى الدول التسع والأربعين المعنيّة، يمثّل 124٪ من مجموع ناتجهم الوطني الصافي (PNB).[18] فهي إذن تنفق في سبيل سداد ديونها، أكثر بكثير ممّا تنفقه في سبيل خدماتها الاجتماعية: فإنّ معظم هذه الدول تخصّص كلّ عام أكثر من 20٪ من ميزانيّاتها لخدمة الدَّين.[19] فضلاً عن ذلك، فمنذ عام 1990، كان نموّ الناتج الداخلي الصافي لكلّ من هذه البلدان، أدنى من 1٪ وسطيّاً، مقابل نسبة نموّ ديمغرافي يبلغ 2.7٪، ممّا يحول بالطبع دون أيّ تراكم داخلي لرأس المال، ودون أيّة سياسة اجتماعيّة. فإنّ هذه البلدان أشبه ببواخر تائهة، وهي تتوغّل في الظلمات وتغوص في محيط البؤس.

تجاوباً مع هذه الحملة، اقتضت "أوراق استراتيجيّة تخفيف الدَّين" (PMA) من الدول المعنيّة، التي تريد أن تتقدّم بطلبٍ لصندوق النقد الدولي، من أجل تخفيض دَينها، أن ترفقَه بمشروع أو مشاريع إعادة الاستثمار في البلد ذاته، بالمبالغ التي حصلت عليها من التخفيض. ولكن النظام يسير على نحوٍ غير مرضٍ إلى حدّ بعيد. فهو، من جهة، يثير شعوراً بالذلّ لدى الدول المعنيَّة، لأنّ صندوق

النقد الدولي هو الذي يصبح عندها السيد المباشر لمشاريع التنمية الوطنيّة. ثمّ إنّ صندوق النقد الدولي، من ناحية أخرى، لا يعطي البتّة موافقته على مشروع متجدّد، لا ينسجم مع مفهومه الخاص، حول ضرورة "انفتاح الأسواق"، و"حقيقة الأسعار" التي لا يُستغنى عنها. من ذلك مثلاً، أنّ البلد الطالب، إن شاء أن يستخدم قسماً من المبالغ "المحرَّرة"، لدعم المواد الغذائية الأكثر ضرورة - وبالتالي لجعلها في متناول أكثر الناس فقراً - سيصطدم برفض قاطع من صندوق النقد الدولي.

وإن كان البلد المستدين، بالمقابل، يتعهّد ببناء طريق جديدة بين المطار والعاصمة، فإنّ صندوق النقد الدولي سيوافق دون شك على منحه "تخفيضاً للدَّين"، يعادل كلفة بناء الطريق.

باختصار، هناك الكثير الكثير ممّا يجب فعله، كي يتحقّق تقدّم جادّ في هذا الطريق.

2. التحقّق من الدَّين:

يحقّ دائماً لحكومة بلدٍ مثقلٍ بالديون، أن تُخضِع للفحص - فاتورة إثر فاتورة، وعقداً إثر عقدٍ، واستثماراً إثر استثمار - طريقة استخدام الحكومات السابقة، للقروض الأجنبيّة. وإنّ هذه الطريقة الفعّالة، ولكن المعقّدة، قد صمّمها وطبّقها اقتصاديّون برازيليّون.

في عام 1932، جرى أوّل تدقيق للدَّين الخارجي، من قبل البرلمان البرازيلي. وفي أعقاب ذلك، رفضت الحكومة أن تُعيد للمصارف الأجنبيّة، كلّ مبلغ اعتُبِر "غيرَ شرعي". وكان يخضع لهذه التسمية، كلّ دَين أُجري على أساس وثائق مزوّرة، أو نجم عن فاتورة إضافيّة، أو عن فساد أو أيّ شكلٍ من أشكال الاحتيال. كما اعتُبِر كلّ دَين قام على ربى، لاغياً.

وقد جلبت هذه العمليّة خيراً عميماً للبرازيل. سأعود إلى ذلك.

3. تشكيل "اتحاد للمديونين"

إنّ الدَّين يفترض دائماً علاقة قوّة. والغني يفرض إرادته على الفقير. وإنّ الامتناع عن دفع الفوائد والأقساط، يخضع على الفور لعقوبة يُعلِن عنها نظام القانون الدولي، الذي هو في خدمة الدائنين على نحوٍ تام. وإنّ تشكيل جبهةٍ متجانسةٍ بين الدول المديونة، يعدّل ميزان القوى. وكما هي الحال في دنيا النقابة، فإنّ المفاوضات الجماعيّة تدعم هامش المفاوضات لدى الضعيف.

إنّ المجلس التنفيذي للاشتراكيّة الدوليّة، وقد ارتكز على خبرة العديد من الاقتصاديّين والخبراء المصرفيّين، لا سيّما الأوروبيّين، المؤمنين جميعاً بالمبادئ الاشتراكيّة، هو الذي أحكم آليّات المفاوضات الجماعيّة، الرامية إلى تخفيف الدَّين. لسوف أعود إلى ذلك أيضاً.

خلال شتاء 2003–2004، أخرج معاً "كلاوس بيمان" (Claus PEYMAN)، و"جوتا فربرس" (Jutta FERBERS)، على مسرح "بريخت" في برلين، صيغةً حديثةً ومؤثّرةً جداً لمسرحيّة "القديسة جان في المسالخ". وقد مثّلت "مايك دروست" (Meike DROSTE)، على نحو مذهل، شخصيّة القدّيسة "جان". وقد حضرت عرضها الأوّل.

بعد أن ألقت "جان" خطابها الأخير، أمام سادة مسالخ "شيكاغو" المبتهجين، وجثث المضربين القتلى، قامت عاصفة من التصفيق في القاعة.

قالت "جان":

« في الأعلى وفي الأسفل، هناك لغتان.

وهناك قياسان ووزنان.

للبشر وجهٌ واحد.

ولكنّهم لم يعودوا يتعرّفون بعضهم.

الذين في الأسفل

قد احتُفِظ بهم في الأسفل

كي يكون للذين في الأعلى

أن يبقوا في الأعلى. »

إنّ التخلّف الاقتصادي يسجن ضحاياه في وجود لا أمل فيه، لأنّ سجنهم دائم. والضحايا تدرك أنّ الحكم عليها مؤبّد. ويبدو الهروب مستحيلاً. فإنّ قضبان البؤس، تقفل كلّ آفاق الحياة الأفضل، لهم، ولأطفالهم، وهنا يكمن المزيد من الألم.

إنّ الذين يسمّيهم البنك الدولي "الموغلين في الفقر"، يعيشون بما هو أقلّ من دولار واحد في اليوم - والغالبيّة الساحقة منهم، بما هو أدنى بكثير. وهم اليوم قرابة مليارين. وقد زاد عددهم مائة مليون، خلال ما يقارب عشر سنوات.[20] وإنّ تحريرَهم من سجنهم، يفرض حتماً إلغاءً فوريّاً دون أيّ مقابل، لمجموع الديون الخارجيّة لهذه البلدان المختلفة.

وإليكم ما يُدعى "دَيناً كريهاً".

إنّ "رواندا" جمهوريّة صغيرة زراعيّة، تنتج الشاي والقهوة والموز، وتبلغ مساحتها (26.000) كم^2، وهي ذات تلال خضراء، ووديان عميقة. وهي تقع في منطقة البحيرات الكبرى، في أفريقيا الوسطى، وهي مستقلّة منذ عام 1960. ويقطنها قرابة ثمانية ملايين إنسان، معظمهم من عرقين اثنين - "الهوتو" و"التوتسي" -[21] ولرواندا حدود مشتركة مع الكونغو، إلى الغرب، وتانزانيا إلى الجنوب والشرق، وأوغاندا إلى الشمال.

وقد أخذ جنود الجيش النظامي وميليشيات "الجزّارين"،[22] ما بين شهري نيسان وحزيران من عام 1994، يقتلون بانتظام، الأطفال

والرجـال والنسـاء مـن عـرق "التوتسـي"، وكـذلك الآلاف مـن عـرق "الهوتـو" المنـاوئين للنظـام. فكـانوا يطوفـون دون كلـل، المـدن والقـرى، وبأيـديهم قـوائم مُعـدّة بدرايـة، فيمـا "راديـو الـتلال الألـف" يحرّضـهم على البغض، وهم يقتلون ليلاً ونهاراً، بسلاحهم المفضل: الساطور!

وكـان التعـذيب يسـبق المـوت عمومـاً. وكانـت الضـحايا في الغالـب، تُقطّـع أوصـالها، بنشـوة بـاردة ومدروسـة. أمـا النسـاء والفتيـات، فكـنّ بصورة شبه منتظمة، يُغتَصبن ثم يُقتلن.

ولجأت عائلات "التوتسي" إلى الأديرة والمدارس الدينيّة والكنـائس، فكان الكهنة والراهبات "الهوتو" كثيراً ما يشونَ بهم.

وطوال ثلاثة أشهر، ليلاً ونهـاراً، كـان نهـرا "كـاكيرا" و"نيـا بـارونغو"، يجرفان الرؤوس المقطوعة وأطـراف الضـحايا المقطّعـة. وكـان القيّمـون على هذه الإبادة، يرمون إلى استئصال جميع الكائنـات البشـريّة، الـتي تنتمي إلى أقليّة العرق "التوتسي".

في هذه الفترة، كانت الأمم المتحدة تحتفظ لها في رواندا، بفصيلة من القبّعات الزرقـاء، تتجـاوز 1300 جنـديّاً، معظمهـم مـن "بـنغلادش" و"غانا" و"السنغال" وبلجيكا. وكانت هذه الفصائل بإمرة جنرال كنـدي يــدعى "روميــو دالــير" (R. DALLAIRE). وكانــت كلّهــا تقــيم في معسكرات تحميها الأسلاك الشائكة، هنا وهناك في رواندا.

وخـلال المجـازر، توسّـل عشـرات الألـوف مـن "التوتسـي"، إلى رجـال "القبّعات الزرقاء"، أملاً منهم باللجوء إلى المعسكرات الآمنة. ولكن ضباط الأمم المتحدة جابهوهم برفض قاطع، وكانت الأوامـر تصل مـن نيويـورك، من مجلس الأمن، بواسطة الأمين العام لشؤون السلام، "كوفي عنان".

وفي حــين انطلقــت الإبــادة، صــدر قــرار بــرقم 912، وبتــاريخ 1994/4/21، مـن مجلـس الأمـن، يقلّـص حتـى النصـف، عـدد جنـود الأمم المتحدة في رواندا.

وفي مواجهة هذه العصابات من القتلة، المسلّحين بالرماح، وبعصي مغطّاة بالمسامير، وبالسواطير، كان جنود الأمم المتحدة، المدجّجون بالسلاح، يشاهدون في لامبالاة، المجزرة، ولا شغل لهم سوى تسجيل الأحداث بدقة، (ونقلها إلى نيويورك)، والطريقة التي كان رجال ونساء وأطفال "التوتسي"، يواجهون بها الموت. باختصار كان هؤلاء الجنود يخضعون للأوامر المجرمة.[23]

وقد قُتِل على هذا النحو، خلال مائة يوم، ما بين 800.000، ومليون امرأة ورضيع وطفل وشاب وفتاة ورجل، من عرق "التوتسي" (ومن "الهوتو" في الجنوب)، وذلك تحت أنظار القبّعات الزرقاء، اللامبالية، التابعة للأمم المتحدة.

وما بين عام 1990 وعام 1994، كانت أهمّ الدول المصدّرة للسلاح والديون لرواندا، هي فرنسا ومصر، وجنوب أفريقيا، وبلجيكا، وجمهوريّة الصين الشعبيّة. وكانت الأسلحة المصريّة تأتي بكفالة مصرف "الكريدي ليونيه" (Crédit LYONNAIS). وكانت المساعدات الماليّة المباشرة تأتي خصوصاً من فرنسا. وما بين عام 1993، وعام 1994، كانت جمهوريّة الصين الشعبيّة، قد أرسلت 500.000 ساطور لنظام "كيغالي" العاصمة. وكانت الصناديق المليئة بالسواطير، المدفوعة بقروض فرنسيّة، لا تزال تصل في الشاحنات، قادمة من "كمبالا" ومن مرفأ "مونباسا"، في حين كانت الإبادة قد انطلقت!...

وأخيراً، دُحِر مرتكبو الإبادة، إثر تقدّم جيش الجبهة الوطنيّة الرونديّة، إذ كانت تتألّف من شبّان من "التوتسي"، قَدِموا من المهاجرين إلى أوغاندا. واستولي على العاصمة "كيغالي" في شهر تموز عام 1994. ومع ذلك، ظلّت فرنسا تقدّم الأسلحة، لمن تبقّى من منفّذي الإبادة، إذ كانوا قد لجأوا إلى الضفة الشرقيّة من بحيرة "كيفو" (KIVU).

كانـت فرنسـا "فرنسـوا مـيتران"، قـد لعبـت في "روانـدا" دوراً بـالغ السوء. وكان ضبّاط فرنسيّون قد دعموا القتلة وزعماءهم السياسيّين، ثـمّ، عنـدما دُحِـروا، سـاعدوهم علـى الهـرب. وإنّ في موقـف "فرنسـوا ميتران" ما يدهش. وهذا الموقف يفسّره المحلّلون الموثوقون على هذا النحو. كانت دكتاتورية "الهوتو"، التي مارسها الرئيس "هابيا ريمانا"، نظاماً فرانكوفونيّاً. وكانـت الجبهـة الوطنيّـة الروانديّـة، الـتي تقاتلـه، تتشـكّل بمعظمهـا مـن أبنـاء وبنـات لاجـئين "توتسـي"، ولـدوا في "أوغانـدا"، وهـم إذن مؤيّـدون للنزعـة الانكليزيـة. ولـذلك قـدّم فرنسـوا مـيتران دعمـاً مطلقـاً، في مسـاندته للنزعـة الفرنكوفونيّـة، للقتلـة منظمي الإبادة.[24] فضلاً عن ذلك، كانت هنـاك علاقات صداقة تـربط الـرئيس الفرنسـي بعائلـة الـرئيس الروانـدي، الـدكتاتور "الهوتـو"، "جوفينال هابياريمانا"، الذي كان مقتله إثر سقوط طائرته، قد أشعل النار في البارود.

وورثـت الحكومـة الجديـدة دَينـاً خارجيّـاً يفـوق قلـيلاً المليـار دولار. فطلب حكّامه الجدد من دائنيهم تعليق الدَّين، بلهَ إلغاءه، ذلك بأنّهم تسـلّموا بلـداً مـدمّراً كلّيّـاً، فارتـأوا أنـه لا يترتّـب علـيهم أي التـزام أخلاقـي لسـداد الـديون الـتي موّلـت شـراء السـواطير، الـتي بهـا قُطِّعـت أمّهـاتهم وإخـوتهم وأطفـالهم. ولكـن تجمّـع الـدائنين، بقيـادة صـندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، رفض أخيراً أي تسوية، وهـدّد بتجميـد ديون التعاون، وبعزل رواندا، مالياً، عن العالم.

وهكذا، فإنّ فلاحي "رواندا"، وقد ماثلوا أيّوب في فقرهم، والنـاجين القلّـة مـن الإبـادة، يبـذلون المسـتحيل اليـوم ليسـدّدوا شـهراً بعـد آخـر، للقوى الأجنبية، المبالغ التي استخدمت في ذبحهم.

إنّ عبـارة "دَيـن كريـه"، عبـارة ابتكرهـا "ايريـك توسـان" (Eric TOUSSAINT). ثم استعيد استخدامها من قبل معظم المنظمات غير

الحكوميّـة والحركـات الاجتماعيّـة، الـتي تناضـل مـن أجـل العدالـة الاجتماعيّة الكونيّة. ولكن - يا للمفاجأة! - ففي ربيع عام 2004، أعيد استخدامها، للمرة الأولى، من قبل دولة دائنة كبرى، هي إحدى أكبر الدول. ذلك بأنّ ممثّل القوى المتحالفة، "بول بريمير" (Paul Bremer)، تحدّث خلال مؤتمر صحفي في بغداد، عن الدَين الخارجي الذي تراكم في عهد "صدام حسين"، بوصفه "دَيناً كريهاً". وكان يتوجّه بالدرجة الأولى إلى فرنسا والاتحاد الروسي، إذ هما أكبر دائنين للعراق. وفي ذلك اليوم، مضى "بريمر" إلى طلب إلغاء دَين العراق، لأنه، كما شرح، قد أجري من قبل نظام مجرم. فلقد كان في عجلة من أمره، كي يضع على سكة الأرباح، اقتصاد المحميّة الأميركيّة الجديدة.

داخل "منتدى باريس"، كانت المناقشات بين الدول التسعة عشر الدائنة، على أشدّها. وفي عام 1980، كان لدى الحكومة العراقيّة من الاحتياط بالقطع الأجنبي، 36 مليار دولار. وقد حوّلت حرب العشر سنوات ضدّ إيران، العراق، إلى دولة مديونة. فإنّ دَينه يبلغ اليوم 120 مليار دولار، منها 60 لدول إقليميّة، والباقي للدول التي تشكّل "منتدى باريس". ولكن يجب أن يضاف إلى الدَّين بالمعنى الحصري، 350 مليار دولار من التعويضات، التي تطالب بها العربيّة السعوديّة والكويت، بسبب اجتياح عام 1990.

يا له من نفاق أسود، يمارسه "سادة الأرض" وأجراؤهم في السياسة: إنهم يرفضون إلغاء دَين الشعوب "غير المربحة"، ولكنهم يعلنون "دَيناً كريهاً" (وإذن لا يمكن استرداده)، القروض التي تُتخِم البلدان الغنية، التي تتحكّم بهذه الشعوب. وإني لأرى أنّه يتحتّم اعتبار ديون بلدان العالم الثالث الخارجيّة جميعها، "ديوناً كريهةً"، لأنها تقود إلى التخلف الاقتصادي، وإلى تحويل الشعوب إلى عبيد، وإلى تدمير البشر بالجوع.

II- الجوع

إنّ القضاء على الملايين من البشر، بسبب النقص في التغذية والجوع، هو الفضيحة الكبرى في بداية هذه الألفيّة الثالثة. إنّه لأمر منافٍ للعقل، وهو عارٌ لا يمكن أيّ سبب أن يبرّره، أو سياسة أن تشرّعه. إنّه لجريمة ضد الإنسانيّة، تُكرَّر إلى ما لا نهاية.

اليوم، كما قلت، يموت، كلّ خمس ثوان، طفل دون العاشرة، بسبب الجوع أو الأمراض الناجمة عن سوء التغذية. وبذلك يكون الجوع قد قضى خلال عام 2007، على عدد من البشر، يفوق عدد من قضت عليهم الحروب، التي قامت خلال هذا العام نفسه.

أين هو النضال ضدّ الجوع؟ إنّه، بكل وضوح، يتراجع. ففي عام 2001، كان طفل واحد دون العاشرة، يموت من الجوع، كلّ سبع ثوانٍ.[25] وفي هذا العام نفسه، بات 826 مليون إنسان في حكم العاجزين، نتيجة النقص الخطير والدائم في التغذية. وقد بلغوا اليوم أكثر من 854 مليون. وما بين عام 1995 وعام 2004، ازداد عدد ضحايا النقص الدائم في التغذية، 28 مليون إنسان.

إنّ الجوع هو النتيجة المباشرة للدَّين، بالقدر الذي يحرم فيه البلدان الفقيرة، من قدرتها على استثمار الأموال الضروريّة لتطوير البنى التحتيّة الزراعية، والاجتماعيّة، وبُنى المواصلات والخدمات.

إنّ الجوع يعني ألماً حاداً في الجسم، وانهياراً في القدرات الحركيّة والعقليّة، وانتفاء للحياة العمليّة، وتهميشاً اجتماعيّاً، وقلقاً بشأن الغد، وضياعاً للاستقلال الاقتصادي. وهو يفضي إلى الموت.

إنّ النقص في التغذية يُحدَّد بالنقص في أشكال الدعم بالطاقة،

المتوفّرة في الغذاء الذي يستهلكه الإنسان. وهو يقاس بالحريرات - إذ إنّ الحريرة هي وحدة القياس لكمية الطاقة التي يحرقها الجسم.

إنّ الثوابت تتفاوت تبعاً للسنّ. فالرضيع يحتاج إلى 300 حريرة في اليوم. والطفل يحتاج، ما بين السنة والسنتين، إلى 1000 حريرة يوميّاً، وهو يحتاج بالضرورة إلى 1600 في سن الخامسة. أما البالغ، فهو يحتاج، من أجل تجديد قوته الحيويّة، كلّ يوم، إلى ما يتراوح بين 2000 و2700 حريرة، ذلك وفقاً لمناخ المنطقة التي يعيش فيها، ونمط العمل الذي يمارسه.

كلّ عام، يموت في العالم، قرابة 62 مليون إنسان، أي 1٪ من البشريّة - بغض النظر عن أسباب الموت المختلفة. وفي عام 2006، مات أكثر من 36 مليوناً، بسبب الجوع، أو الأمراض الناجمة عن النقص في العناصر الغذائيّة الدقيقة.

الجوع إذن هو أهمّ أسباب الموت على كوكبنا. وهذا الجوع هو من صنع البشر. وكلّ مَن يموت من الجوع، يموت مقتولاً، وهذا القاتل يحمل اسماً هو الدَّين.

إنّ "منظمة الأمم المتحدة من أجل التغذية والزراعة" (FAO)، تميّز بين الجوع "الظرفي" والجوع "البنيوي". ويعود الجوع الظرفي إلى انهيار مفاجئ في اقتصاد أحد البلدان، أو في جزء منه. أما الجوع "البنيوي"، فهو يتأتّى من تخلف البلد.

هوذا مثال على جوع ظرفي. في شهر تموز من عام 2004، اجتاحت عواصف بالغة العنف، "بنغلادش". فبات أكثر من 70٪ من هذا البلد، ذي الـ 166.000 كم^2، تحت المياه. وبات ثلاثة ملايين ممّا فيه من 146.000 مليون إنسان، مهدّدين بالموت جوعاً. وبنغلادش هو في الواقع برزخ تعبره أنهار كثيرة تصب في خليج البنغال. وهذه الأنهار تندفع فيه من منحدرات جبال الهيمالايا. ("البوطان"، "لاداخ"، "نيبال").

وعندما تهب الرياح الموسميّة، يصبح تدفّقها عنيفاً ومفاجئاً، فتقتلع الأشجار والبيوت، وتدمّر السدود، وتغطّي بمياه خضراء طينيّة، مضطربة، مئات الألوف من هكتارات الأراضي الزراعية، وتجتاح أحياء المدن المحاذية لها.

في ظروف عاديّة، إن جاز لنا التعبير، يفقد قرابة 30.000 طفل دون العاشرة، بصرهم كلّ عام في بنغلادش، بسبب افتقارهم إلى الفيتامين A.

إنّ الجوع البنيوي، كما هي حال الجوع الظرفي، هو نتيجة مباشرة للدَّين. إنّ ذلك لواضح بالنسبة إلى الجوع البنيوي. أما العلاقات السببيّة بين الجوع الظرفي والدَّين، فإنّها تحتاج إلى شرح.

لنعد إلى الجوع الاستثنائي الذي ضرب بنغلادش عام 2004.

إنّ الحوضين المائيّين المهمّين، المسؤولين عن فيضانات شهر تموز، هما حوضا "براهمابوترا" و"الغانج". والحال أنّه أتيح لي أن أقوم، بتكليف من الأمم المتحدة، بمهمّة في "بنغلادش" عام 2002. وكانت ترمي بالتحديد إلى دراسة الوسائل الملائمة لتجنّب تجدّد مثل هذه الكوارث. فأمضيت ساعاتٍ طويلةً في المكتب الواسع لوزير الطاقات المائيّة في "داكا" العاصمة، أدرس مخطّطات وإحصائيّات ومشاريع. ولقد تبيّن لي من هذه الدراسة، أنّ التكنولوجيا المعاصرة قادرةٌ، دون مشاكل تُذكَر، على ترويض مجموع أنهار "بنغلادش". فإنّ الفيضانات الناجمة عن الرياح الموسميّة، يمكن، على الصعيد التكنولوجي، أن تروّض على نحو تام. ولكن، لما كانت "بنغلادش" أحد أكثر بلدان آسيا الجنوبيّة، مثقلة بالديون، فهي تفتقر إلى الأموال الكفيلة بترويض الأنهار وضبط مجاريها.

وهاكم مثالاً على ما تدعوه منظمة "الفاو" (FAO)، الجوع البنيوي.

كنتُ خارجاً من مكتب رئيس جمهورية البرازيل، في برازيليا، في ساعة متأخّرة من ليلة الرابع من شهر شباط عام 2003، عندما اعترض طريقي في الساحة الكبرى، عملاق أشقر ومرح. كان يتدفّق بحبّ للحياة مُعدٍ. وكانت تربطنا صداقة قديمة، فتعانقنا طويلاً.

كان اسمه "جوان ستيديله" (João STEDILÉ)، وكان حفيداً لفلاّحين جاؤوا من "التيرول" في أوروبا، إلى "سانتا كاتارينا" في البرازيل. وهو اليوم، بين المسؤولين الوطنيّين التسعة في حركة الفلاّحين المحرومين من الأرض، أكثرهم نفوذاً. وقد باتت مشادّاته مع رئيس الجمهورية "لولا" (LULLA) ووزير الزراعة، أسطوريّة.

« سألني:

ماذا تفعل غداً صباحاً؟ قلت:

سأستقل الطائرة إلى ريو، ثم إلى جنيف.

قال:

هذا لن يكون! غداً ستمضي إلى مكبّ القمامة. وإلا، فلن يُتاح لك البتة أن تفهم شيئاً من أمور الحكم عندنا، ومما يجري هنا... ويجب أن تذهب مع الفجر... دون سيّارتك الرسمية، ودون مرافقيك من رجال الأمم المتحدة... إمضِ في التكسي... وحدك! »

لم أكن على موعد مع الفجر. فقد استيقظت متأخّراً، إذ كانت الشمس في كبد السماء، فازدردت القهوة واستقلّيتُ بسرعة أحد التكسيّات. إنّ ازدحام السيارات صباحاً في "برازيليا"، يفوق ما هو عليه في باريس... وكانت الحرارة تنصبّ من سماءٍ غائمةٍ وقاتمة. ولما كان فندق "اتلانتيكا"، حيث كنتُ مقيماً، يقع في أحياء المدينة الغربيّة، أمضيت أكثر من ساعتين لبلوغ مكبّ القمامة، الواقع في أطراف الأحياء الشرقيّة للعاصمة.

يعيش في برازيليا أكثر من مليوني رجل وامرأة وطفل. ثمّة قوافل من الشاحنات، تحمل، طوال أربع وعشرين ساعة دون توقّف، نفايات المدينة إلى مكبّ القمامة، حيث تتعالى رؤوس أهرامات القمامة على مدى يتجاوز ثلاثة كيلومترات مربّعة. وإنّ الوصول إلى موقع المرمى يخضع لتنظيم صارم. فهناك حاجز حديدي تشرف عليه مفرزة من الحرس، تابعة للشرطة العسكريّة، ورجالها يرتدون ملابس زرقاء قاتمة، وهم مسلّحون برشاشات، وبقضبان طويلة من الكاوتشوك الأسود.

وهنا يقوم تجمّع من أكواخ الصفيح، يقطنه رسميّاً قرابة عشرين ألف عائلة. وهو يمتدّ بين آخر الأهرامات والحاجز الحديدي. إنّه بحر من العلب الكرتونيّة، والمساكن الخشبيّة والأكواخ المغطاة بالصفيح المتموّج... هنا يحتمي لاجئو الجوع، ضحايا المزارعين الكبار، والشركات الزراعيّة الكبرى، التي تحتكر الأراضي الخصبة، وتطرد العمال والمياومين الزراعيّين وعائلاتهم.

كلّ يوم، يحصل قرابة ستمائة رجل وشاب، من مجموع سكان مدينة الصفائح هذه، على بطاقة دخول إلى مكب النفايات. وفق أيّ معايير؟ لم يتسنّ لي معرفة ذلك. ولكني، لما كنت أعرف المألوف لدى الشرطة العسكريّة، أعتقد أنّ الفساد يلعب الدور الأكبر في منح البطاقات.

هناك أعداد لا تحصى من الأطفال، ذوي العيون السوداء الواسعة، والفرحين، على ما هم عليه من سوء تغذية فاضح، يذهبون ويجيئون في ممّرات مدينتهم، وسط المجارير المكشوفة، والكلاب الجائعة، والأكواخ الكرتونيّة. لقد أحاطوا بالتكسي الذي أستقلّه، وهم يضحكون ويصفّقون بالأيادي. اخترقت صفوفهم وتوجّهت إلى نقطة الحراسة. كان الضابط باسماً، ينتظرني عند عتبة الباب. وكان "ستيديليه" قد اتصل به هاتفيّاً في الليلة السابقة.

قال:

"كنا في انتظارك في وقت مبكّر".

كان الأطفال الرضّع، يرتاحون على صدور أمّهاتم، وعيونهم وأفواههم وأنوفهم يغطيها الذباب الأزرق بكثافة. والبراز يملأ كلّ مكان. وكانت أسراب الذباب تتنقّل ما بين أكوام البراز وعيون الرضّع.

في البرازيل، تقوم الشرطة العسكريّة بمهمّات الدرك في فرنسا. وهي بإمرة حاكم كلّ ولاية، عضو في الاتحاد. وهنا، كان النقيب، وهو يقارب الثلاثين من العمر، ذا وجه خلاّب، دقيق الملامح، وذا عينين فحميّتين. كان يقظاً وكفؤاً. ولكنّه لم يكن يستطيع إخفاء احتقاره للبؤساء، الذين يحيطون أبداً بنقطة الحراسة وينشغلون في الأرض الموحلة، على مبعدة من الحاجز.

كان حديثه مهذّباً، منسجماً على نحو تام مع أسئلة زائره. ولكن زيارتي أثارت شكوكه. قال:

« أنتم الأوروبيّين، أنتم أغنياء. أنتم تحرقون كلّ شيء... أما نحن، فلسنا نتصرف مثلكم... نحن بلد فقير... إنّ القمامة تتيح فرصاً للعمل لبعض هؤلاء المساكين... نحن لا نحرق شيئاً... كلّ شيء يمكنه أن يفيدنا... وسيدهشك أن تعلم ما يسع هؤلاء المساكين أن يفعلوه بقطعة من الخشب والألمنيوم... والكرتون يباع لتجار الجملة... إنّ علب الألمنيوم والبيرة تسوّى وتباع... والزجاج المجموع يباع هو أيضاً... بوسع الشخص الماهر أن يكسب حتى "الاورو" في اليوم الواحد... إنهم يغذّون خنازيرهم بفضلات الطعام والخضار، والثمار، وبقايا الحيوانات... إنّ هذا المكب يتيح العيش لهذا الحي كلّه، الذي تراه أمامك". وكانت يده تشير بحركة واسعة إلى الفضاء الواسع، الذي كان يفصل المكبّ عن خيالات ناطحات السحاب البيضاء في البعيد.

إنّ الشرطة العسكريّة لا تدخل البتّة في المساحة الواسعة التي تحتوي أهرامات النفايات. "مهمتنا تقوم على منح البطاقات في الصباح فقط، كي نراقب الدخول إلى المكبّ، ونحول دون تسرّب الأطفال إليـــه. إنّ في ذلك، إذا حدث، أذى لهم. ».

وقدّم لي النقيب رجلاً لا أسنان له، قوي البنية، يقارب الستين، ويرتدي سترة وبنطالاً أغبرين، مليئين ببقع الشحم. وكان يتكئ على عكاز. وكان وحيد الساق. وكانت قبعة من قشّ، ذات لون تائه، تعلو رأسه. كان شاحب الوجه، تغطي جبينه نقاط العرق. كانت له رائحة كريهة، ونظراته توحي بالجبانة، وكان واضح التزلّف. فشعرت على الفور بنفور منه. قال النقيب:

« "هوذا الفيتور".[26] إنه المسؤول عن سكان "المدينة". وهو يعـــيّن لكلّ رجل المكان الذي يحقّ له أن يعمل فيه... إنّ مثل هـــذا العمـــل يحتاج إلى سلطة، كما تعرف! والخصومات كثيرة... »

يدعو الرجل، صاحب قبّعة القش، رجلين مسلّحين، وهما زنجيّان، كان من الواضح أنهما مكلّفان بحمايته. ومعاً، سرنا في الممرّ المؤدّي إلى الجبال. كان تقدّمنا بطيئاً بالضرورة، لأنّ "المعلم" الوحيد القدم، كان يتقدّمنا بصعوبة، مستعيناً بعكّازه. وقد سرنا قرابة عشرين دقيقة تحت الشمس الحارقة.

كانت الرائحة الكريهة تقطع عليّ الأنفاس.

العرق يتصبب من جسمي بغزارة.

كان الممرّ، بفعل مرور الشاحنات، ذهاباً وإياباً دون توقّف، يبدو أشبه بواد، مع أنّه كان عريضاً، وتحدّه من جانبيه حفرتان تُستَخدمان بمثابة مجارير. وكان مليئاً بالحفرات العميقة التي تُحدثها فيه الدواليب العملاقة. وكانت الشاحنات تتأرجح تحت فرط حمولتها.

كان الرجال والمراهقون يحملون قضباناً طويلةً، غُرِس في رأسها كلاّب حديدي، يستعينون به في تسلق "الأهرامات". وكان أكبرهم سنّاً ينتعلون جزمات سوداء من الكاوتشوك. وكانوا يضعون على رؤوسهم قبّعات حمراء، يوزّعها عليهم بائع الكوكاكولا، الواقف عند مدخل المكبّ. وكانت جرذان كبيرة بحجم القطط، تركض هنا وهناك بين أقدام الفتيان. وكان الكثيرون من الفتيان أشبه بهياكل عظميّة، وقد سقطت جميع أسنانهم. وهم ينتعلون صنادل من الكاوتشكوك، وكثيراً ما يتعرّضون لجروح. وكانوا ينتزعون النفايات بأيديهم العارية، ويكدّسونها في أمكنة محددة. وكان أخ لهم أو أب أو قريب، يدفع عربةً يجرّها حمار. وكانت العربات مسطّحة، تتحرّك على عجلتين مهترئتين.

كانت كلّ عربة تحمل بضائع مختلفة. فبعضها ينوء بأكداس الكرتون والورق، وبعضها بقطع الحديد. وكثير منها كان ينقل الزجاجات الفارغة وكسر الزجاج. وكان وسطاء التجّار ينتظرون عند المخرج، في أرض بور، على مبعدة من الحاجز.

كان معظم العربات يحمل أغذية، وهي في واقع الأمر، أسطل من البلاستيك الرمادي اللون، يتحرّك فيها سائل كريه الرائحة، وذو ألوان غريبة. وكانت أسطل تحتوي الطحين والأرز والخضار المقطعة، وقطع اللحم، ورؤوس أسماك، وعظاماً - وأحياناً جثّة أرنب أو جرذ. وكانت رائحة فظيعة تتصاعد من معظم الأسطل.

وكانت أسراب الذباب ذي اللون البنفسجي، تغطي كلاً من هذه العربات. وكان طيرانها الدائم يُحدث طنيناً هادراً. وكانت حشود الذباب تتشبّث بعيون الفتيان، الملتهبة، أو بأقدام المسنّين المجرّحة.

سألت المراقب لمن يُحمَل محتوى السطول.

أجابني في لامبالاة: "إنه للخنازير".

فقدّمتُ له خلسةً ورقة نقدية بعشرة ريالات، وقلتُ له في نبرة رسميّة لا تخلو من السخرية: "أنا لست بسائح. أنا مقرّر خاص في الأمم المتحدة من أجل حقوق التغذية... أريد أن أعرف ما الذي يجري هنا.

كان المراقب لا يبالي قطّ بمهمّتي. ولكن الورقة النقديّة فعلت فعلها.

"أفهم أنّ أطفالنا يعانون من الجوع". قالها، وكأني به يعذرهم. فكدتُ أشعر بشيء من التعاطف، مع هذا الإنسان الجبان وحارسَيه المرافقَين له.

إنّ النقص، القاسي والمزمن، في التغذية، يدمّر الجسد شيئاً فشيئاً. فهو يضعفه، ويسرق منه قواه الحيويّة. فينهار لدى إصابته بأدنى مرض. إنّ الإحساس بالنقص قائم أبداً.

ولكن أسوأ الآلام التي يُحدِثها النقص في التغذية، هي القلق والشعور بالذل. فيخوض الجائع صراعاً يائساً ومستمرّاً، من أجل كرامته. أجل إنّ الجوع يسبّب العار. فالأب يعجز عن توفير الغذاء لأسرته. والأمّ تظلّ عاجزةً أمام طفلها الجائع، وهو يبكي.

وليلةً إثر ليلةٍ، ويوماً إثر يومٍ، يُضعِف الجوعُ القدرةَ على المقاومة لدى البالغ. وهو يرى بأمّ عينه اليوم الذي لن يستطيع فيه التجوّل في الشوارع، والبحث في حاويات القمامة، والتسوّل، أو ممارسة بعض الأعمال التافهة والآنيّة، التي ستمكّنه من شراء شيء من نبات المانيهوت، وكيلوغرام من الأرزّ، يسند فيه - ولو بصورةٍ بائسة - أسرته. فيتأكّله القلق. فيهيم في ثيابٍ رثّة، ينتعل صندلاً مهترئاً، والحرقة في عينيه. فهو يرى نبذَه في عيون الناس. وهو كثيراً ما يُضطرّ، مع أفراد أسرته، لازدراد البقايا الموجودة في حاويات قمامة المطاعم أو بيوت الأثرياء.

قام السوسيولوجي البرازيلي "ماريا سوارس ده فريتاس" (Maria Soares de FREITAS)، ومعاونوه في الجامعة الاتحاديّة في مدينة "باهيا" (البرازيل)، بتحقيقٍ استغرق فترةً طويلةً، في حي (Pela Porco de Salydor)، كي يفهم كيف يواجه الجياع أوضاعهم. ذلك بأنّ حي "بيلا بوركو"، وكذلك الحي المسمى "ألاغادوس" (Alagados)، هما أكثر أحياء عاصمة الشمال، بؤساً، تلك التي كانت العاصمة القديمة للبرازيل، يوم كانت تحت الاحتلال البرتغالي. فهنا يستشري الفساد والتعسف على نطاق الشرطة، والعنف على نطاق العصابات المسلّحة، كما تستشري البطالة المزمنة، والغياب المطلق لجميع البنى التحتيّة، المدرسيّة والاجتماعيّة والصحيّة، وهنا السكن البائس.

في هذا الحي، يعيش قرابة (11.000) عائلة. عنوان هذه الدراسة، التي لم تُنشر بعد، والتي جمع فيها فريقُ العمل أقوالَ الجياع، هو: "كتابات الجياع".

هذا النقص الدائم في التغذية، يعتمد ضحاياه، في سبيل تحرّرهم من الخجل، عباراتٍ مثل هذه: "الجوع يأتي من خارج الجسد". الجوع هو المعتدي، هو وحش ينقضّ علينا. أنا عاجز حيالَه. أنا لست مسؤولاً عمّا بي. ليس لي أن أخجل من الخرق التي ألبسها، ومن دموع أطفالي، ولا من جسدي بالذات الذي بات ضعيفاً، ولا من عجزي عن توفير الغذاء لعائلتي.

يقول الذين يضطرون لأكل البقايا، التي ينتزعونها من حاويات القمامة في مركز المدينة، أو بجوار الفنادق الفخمة، التي تقوم بمحاذاة شاطئ "ايتابوا" (ITAPOA)، ذي الرمال البيضاء:

"أنا بحاجةٍ لقهر خجلي من البحث في القمامات، لأنّ السرقة أسوأ".

إنّ العديد من النساء والرجال، إذ يُسألون، يُسمّون الجوع: "الشيء". يُقال: "إنّ الشيء يقرع بابي". أن يعتبر الإنسان الجوع منفصلاً عن

جسده، وأن ينظر إلى ذاته على أنّه ضحيّةُ عدوانٍ، وأن يعرف أنّه ضحيّة عدوّ بالغ القوة، إنّما ذلك يحدث من أجل مقاومة الخجل.

ثمّة من الناس مَن يقولون: "أشعرني مضطهَداً، إمّا من قبل الشرطة، وإمّا من قبل الجوع". ومنهم مَن يقولون: "الجوع هو أبداً ألم يجرح الجسد". إنّ الوحش يهاجمني، فماذا عساني أفعل؟ لا شيء أو الشيء القليل، "إنّ الوحش أقوى مني".

إن كلمة "يضطهدنا الجوع"، تكاد تتردّد في جميع الأجوبة.

إنّ بعضاً ممّن يُسألون، لا سيّما في صفوف المراهقين والمراهقات، يثورون ضدّ "الوحش". فهم يريدون أن يجابهوه ويقاوموه. "علينا أن نكون أقوياء، أن نجابهَه، أن نقوم بعملٍ ما، لا يحقّ لنا أن نخجل أو نخاف. يجب أن ننبش في القمامات. بعض الناس ينتهون إلى ارتكاب السرقة، والاعتداء على الآخرين، وسرقة أشياء الآخرين. لا يجوز لأحد أن يتوقّع سقوط الأشياء من السماء. يجب أن يكون لنا من الإيمان قدر كبير، كي لا ندع قوّتَنا تنطفئ. يجب علينا أن ننهض، وأن نمضي قدماً إلى الأمام... إلى الأمام...".

ثمّة قائمة من الأسئلة، البالغة الحساسيّة، كان "ماريا دو كارمو" ومعاونوه قد طرحوها، وهي تتعلّق "بالجوع الليلي". فإنّ غالبيّة من طُرِحت عليهم هذه الأسئلة، بغضّ النظر عن سنّهم وجنسهم، تَحدُث لهم رؤى ليليّة وأحلام تعويضيّة، يشاهدون فيها طاولاتٍ، تكسوها أغطية ناصعة البياض، وتنوء تحت ثقل تلال من الفواكه واللحوم والحلويّات. فتعوّضهم هذه الهلوسات عن الحرمانات الجسديّة، والقلق القاتل والألم.

قالت إحدى النساء، إذ سُئلت:

"خلال الليل، عندما يبكي الأطفال ويشتدّ العنف (عنف الشرطة والعصابات المسلّحة)، يهجرنا النوم وتحدث الرؤى".

إنّ الجائع، إذ يواجه مجتمعاً ينبذه ويحرمه التغذية، يتشبّث بالأوهام. فهي تعيده، عن طريق الخيال، إلى كرامته بوصفه كائناً حرّاً.

إنّ ملياري إنسان يعانون ممّا تدعوه الأمم المتحدة الجوع الخفي، وبتعبير آخر، سوء التغذية. وهو يُحدّد بفقدان الأملاح المعدنيّة والفيتامينات. وإنّ فقدانَها ليسبّب أمراضاً قاتلةً في معظم الأحيان.

إنّ مدن الصفائح، المسمّاة (collampas) في ليما، و(favelas) في ساو باولو، أو (smoky mountains) في مانيلا، إن هي إلا بؤرٌ أوبئة. ففي ضواحي مانيلا، يعيش نصفُ مليون إنسان، في أجواء تسودها رائحة العفن. وهنا جرذان تغرس أسنانها في وجوه الأطفال الرضّع. وفي أكواخ التنك، يملأ النساء والأطفال والرجال بطونهم ببقايا الأطعمة، المرميّة فوق جبال القمامة. وقد يكون نصيبهم من الحُرَيرات، أحياناً كافياً. ولكن ما يشكّل غذاءً لهم، يخفي أشكالاً من العوز خطيرةً.

إنّ طفلاً يعاني من سوء تغذيةٍ مزمنٍ، قد يصل بذلك إلى ما يشبعه، ولكنه قد يحتضر بتأثير مرضٍ يعود إلى نقصٍ في الأملاح الحديديّة والفيتامينات.

إنّ النقص في هذه الأملاح والفيتامينات، يُحدث إباداتٍ حقيقيّةً في 122 بلداً من العالم الثالث، يعيش فيه قرابة 80٪ من سكان الأرض.

أذكر بين الأمراض الأكثر شيوعاً وانتشاراً، بسبب هذا النقص في التغذية، مرض "كواشيوركور" (Kwashiorkor)، المنتشر في أفريقيا السوداء، وفقر الدم والكُساح والعمى. فإنّ الفتيان المصابين بمرض "كواشيوركور"، تنتفخ بطونهم، وتحمرّ شعورهم، وتصفرّ بشرتهم، ويفقدون أسنانهم. وكلّ مَن يُحرَم، على نحو دائم، من الكمّ الضروري من الفيتامين (A)، يفقد البصر. والكُساح يحول دون النمو الطبيعي لهيكل الطفل العظمي.

أما فقر الدم، فيضرب الجهاز الدموي، ويحرم صاحبَه من الطاقة، ومن كلّ قدرةٍ على التركيز.

ولنتّخذ مثلاً آخر. ورد في تقرير شهر آذار من عام 2006، للبنك الدولي، أنّ أكثر من 15٪ من الأطفال الفلسطينيّين دون العاشرة، والعائشين في الضفة الغربية وغزّة، يعانون من سوء التغذية، على نحو خطير ومزمن.

إنّ تدمير الأراضي الزراعية الفلسطينيّة، وتحويل المياه الجوفيّة، وحصار جميع المدن والقرى في فلسطين، بفعل جيش الاحتلال الإسرائيلي، قد جعل الناتج الداخلي الصافي الفلسطيني، يسجّل هبوطاً فاق 50٪، منذ بداية الانتفاضة الثانية، في شهر أيلول عام 2000.

وفي مدارس منظمة "الاونروا"، في خان يونس ورفح وبيت حانون، كثيراً ما يحدث للطلاب والطالبات أن يغشى عليهم ويفقدوا وعيهم، بسببٍ من فقر الدم.[27]

وبفعل سوء التغذية، يُصاب آلاف من الأطفال الفلسطينيّين الرضّع، بأشكالٍ من الأذى الدماغي، غير قابلة للعلاج.

لنتفحّص بشيءٍ من التفصيل، أشكال التلف الناجمة عن النقص في الأملاح المعدنيّة والفيتامينات.[28] إنّ الحديد ضروري لتكوين الدم، وغيابه يسبّب فقراً في الدم، يتبيّن خصوصاً في نقص الكريّات الحمر. ويعاني من فقر الدم في العالم، مليار وثلاثمائة مليون إنسان، فيهم قرابة 800 مليون يعانون من نمطٍ من فقر الدم، يعود إلى نقصٍ في الحديد. والحال أنّ فقر الدم يُحدِث خللاً في جهاز المناعة.

بالطبع، هناك أشكالٌ من فقر الدم، دون تلك خطورةً. وهذه تقلّص، في نسبٍ متفاوتةٍ، لدى مَن يعانون منها، قدراتِهم على العمل والإنجاب. وفي بلدان الجنوب، هناك قرابة 50٪ من النساء، و20٪ من الرجال، يعانون بشكل أو بآخر، من فقر في الدم يعود إلى نقص في الحديد.

إنّ الحديد ضروري في تغذية الأطفال، الذين تتراوح أعمارهم بين ستّة أشهرٍ وأربعةٍ وعشرين شهراً. وإنّ نقصَه يعطّل تكوين الخلايا العصبيّة في الدماغ. تلك هي حالة 30٪ من الأطفال في أفقر البلدان التسعة والأربعين. ولسوف يعانون طوال حياتهم، من أشكال القصور العقلي.

يموت كلّ عام قرابة 600.000 امرأة، خلال فترة الحمل، من جرّاء افتقارهنّ المفرط إلى الحديد. وإنّ ما يقارب 20٪ من جميع الأمّهات اللواتي يمُتنَ خلالَ الوضع، إنّما هنّ يمُتنَ من جرّاء افتقارهنّ إلى الحديد.

ثمّة مادّة أساسيّة أيضاً، هي الفيتامين (A). إنّ النقص في الفيتامين (A) هو السبب الرئيسي في العمى، الذي يفتك بالطبقات الفقيرة التي تعيش في نصف الأرض الجنوبي. فهناك إنسان يفقد بصرَه كلّ أربع دقائق، وأربعون مليون طفل دون الخامسة عشرة، يعانون من نقص في الفيتامين (A)، منهم 13 مليون يفقدون البصر كلّ عام.

إنّ "منظمة الصحة العالمية (OMS) أحصت فئة السكّان المعرّضين لبعض الأمراض (مثل التهابات أعصاب الجهاز المَعِدي والمعَوي أو المجاري التنفسيّة) الناجمة، على نحو غير مباشر، من نقصٍ في الفيتامين (A). وتبلغ هذه الفئة قرابة 850 مليون إنسان.

إنّ مادّة اليود (iode) هي أيضاً ضروريّة لتوازن جسم الإنسان. والحال أنّ النساء والرجال والأطفال، الذين يعانون من نقصٍ في اليود، يفوقون المليار. وهم يعيشون خصوصاً في المناطق الزراعيّة من كوكبنا، في حين أن إضفاء اليود على ملح المطابخ قد بات كثير التداول، منذ عشر سنوات على الأقل، من قبل السلطات في أوساط المدن. وإنّ نقص اليود في جسم الأمّ (وبالتالي في الجنين) يُحدِث كوارث. ففي عام 2006، وُلد قرابة 20 مليون طفلٍ، يعانون من عطبٍ دماغي غير قابل للعلاج.

وما عسانا نقول في الفيتامين (B)؟ فكلّ مَن لا يستمدّ منه كمّيّةً كافيةً في غذائه اليومي، سيتعرّض لمرض "البري بري"، وهو آفة تدمّر شيئاً فشيئاً الجهاز العصبي.

والنقص المستديم من فيتامين C، يُحدث داء المَغَر (acorbut).

إنّ حمض الفوليك أساسي بالنسبة للنساء في فترة الوضع، وللأطفال حديثي الولادة. والحال أنّ الأمم المتحدة تقدّر بـ 200.000 عدد الإصابات الخطيرة والمستديمة، التي تحلّ كلّ عام بالأطفال حديثي الولادة، بسبب نقص في حمض الفوليك. وهذا النقص هو أيضاً مسؤول عن كلّ وفاة، ناجمة عن إصابة في شريان القلب، من أصل عشرٍ منها في العالم الثالث.

في معظم الحالات، ينجم سوء التغذية عن أشكالٍ متداخلةٍ من النقص. كان الطفل المولود في كوخ في ضاحية "برنامبوك" (Pernambouc)، بجوار مزرعة كبيرة إقطاعيّة، من أبٍ عابر ومن أم مياومة، يتعرّض على نحو قاطع، لنقصٍ في اليود والحديد ومختلف أنواع الفيتامينات. فإنّ أكثر من نصف الناس، الذين يعانون من أشكال هذا النقص، يواجهون حالاتٍ متراكمةً من النقص.

إنّ الوفاة خلال الولادة، لمئات الألوف من النساء، اللواتي يُعانينَ من نقصٍ في التغذية، وإنّ ولادة الملايين من الأطفال المتخلّفين عقليّاً، وفقدان القدرة على العمل لدى عشرات الملايين من الرجال، هذا كلّه يحمّل المجتمعات ثقلاً باهظاً. وإنّ كلّ ذلك ليَحدُث، فيما هؤلاء النساء والرجال، الذين يعانون من أشكال النقص التي أرهقتهم في طفولتهم، سينقلون لأبنائهم وبناتهم "دماً فاسداً"، مصاباً أصلاً بفقر ذاتي، وبالكثير من اللعنات الأخرى الناجمة عن سوء التغذية.

ومع ذلك، فإنّه من الممكن إزالة سوء التغذية بسرعة، من الأرض

كلّهـا، دون مشـكلةٍ تقنيّـة تُـذكَر، ودون نفقـاتٍ ماليّـة باهظـة. فحسـبنا تطبيق التعليمات ذاتها المطبّقة في الغرب، على الأغذية المستهلكة في العالم الثالث. ففي مدينة جنيف، إنّ الملح الذي أشتريه قد اغتنى باليود، وفقاً للقوانين المعمول بها. ولذلك فإنّ فقر الدم الناجم عن نقص في الحديد، قد تلاشى عمليّاً في الغرب. فإنّ جميع التشريعات الخاصّة بالتغذية في البلدان المصنّعة، تتضمّن تعليماتٍ صارمةً جدّاً بشأن توفّر الأملاح المعدنيّة والفيتامينات، في الأطعمة المسوّقة. وإنّ مثل هذه التشريعات لا تتوفّر إلاّ بصورةٍ استثنائيّة في بلدان القسم الجنوبي من الأرض.

أجل، إنّ تحرير مليارات الكائنات البشريّة، في حدّ ذاته، من الجوع الخفي، لا ينطوي على أيّة صعوبة مفرطة، اللهمّ إلاّ الصعوبة الماليّة. ذلك بأنّ القدرة الشرائيّة لدى معظم الضحايا، معدومة. وحكوماتهم تفتقر في الغالب إلى الوسائل - وهي تفتقر بصورة عامّة إلى الإدارة - من أجل إغناء الغذاء المنتَج في البلد، أو المستورَد من الخارج، بالأملاح الحديديّة والفيتامينات. وإنّ المنظمات الدوليّة لا تملك من الأموال، ما يمكّنها من وضع برامج ترمي إلى استئصال سوء التغذية على نطاق العالم.[29]

إنّ النقص في التغذية وسوء التغذية، مجتمعين، يلعبان دوراً حاسماً في ظهور عدد واسع من الأمراض الفيروسيّة، التي لا تُحصى مباشرةً ضمن فئة أمراض الجوع، وفق "منظمة الصحة العالمية".

إنّ جسماً أنهكه الجوع لا يقاوم الالتهابات، لأنّ قواه المناعيّة ضعيفة. وإنّ أضعف هجمةٍ لأضعف فيروس، تُحدث الموت.

إنّ الانتشار الصاعق لمرض السلّ، في آسيا وأفريقيا، يعود بنصيبٍ كبيرٍ إلى اتّساع النقص في التغذية وسوء التغذية.

يصحّ الأمر نفسه بشأن انتشار الإيدز على نحو مريع، في أفريقيا

السوداء. ففي العالم اليوم، 39 مليون إنسان مصابون به، منهم 27 مليون في أفريقيا السوداء. وإنّ الرجال والنساء والأطفال الأفارقة، المصابين بالإيدز، هم في معظمهم، محرومون من العلاج، لأنّهم يفتقرون إلى المال.[30] صحيح أنّ الإيدز يعود إلى فيروس (HIV)، وليس إلى النقص في الحُريرات أو الفيتامينات. وهو يصيب المتخَمين، كما يصيب الجياع. إلاّ أنّ الصحيح أيضاً أنّ النقص في التغذية يساهم في انتشار الوباء. ففي أفريقيا السوداء خصوصاً، أنّ الأجسام التي تعاني من سوء التغذية والالتهابات، تفتقر إلى كلّ مقاومة مناعيّة.

كتب "بيتر بيوت" (Peter PIOT)، وهو مدير المنظمة المختصّة في الأمم المتحدة، المكلّفة بالكفاح العالمي ضدّ مرض "الإيدز" (UNAIDS)،[31] يقول، بعد عودته من رحلة إلى أفريقيا الوسطى، يقول: "ذهبت إلى "المالاوي"، والتقيت مجموعةً من النساء المصابات بفيروس "الإيدز (HIV). وكما هي عادتي دائماً، عندما أواجه أناساً مصابين بمرض "الإيدز"، أو فرقاً جماعيّة أخرى، سألتهنّ ما هي أولى أولوياتهنّ. فجاء جوابهنّ، في وضوح وإجماع: الغذاء. لم يقلنَ: المعالجات، ولا الأدوية المكافحة للمرض، ولا نهاية عزلتهنّ، بل الطعام".[32]

إليكم سيرةَ "فرجينيا مارامبا"، وهي سيّدة فتيّة، تقيم في مدينة "موزورابانـي" (Muzurabani)، في ولاية "ماشونالند" (Mashonaland)، في "زمبابوي". كان زوجها "اندرو"، قد توفّي عام 2003، بفعل مرض "الإيدز"، دون أن يخلّف أي إرث (إذ كان عاملاً زراعيّاً). وكان لفيرجينيا ولدان قاصران. فحاولت أن تبحث لها عن عملٍ مياومٍ في المزارع الكبرى التي يمتلكها البيض.

وعندما لا توفّق بعمل، تجمع الجذور والأعشاب في الأحراش، بجوار المزارع الكبرى، لتصنع منها حساءً لطفليها. وكان جيرانها لا يقلّون فقراً عنها.

إنّ النقص المزمن في التغذية، الذي كان يستبدّ بجسم فيرجينيا وولديها وعقلهم، لا يعود إلى مجرّد خمولٍ ما. فإنّ المرأة الفتيّة تعمل - وعملها مضنٍ. وفي عام 2003، تسنّى لها أن تقتني قطعةَ أرضٍ. فزرعت فيها الذرة والفاصولياء، والجزر، والمانيهوت والبطاطا الحلوة. إلا أنّ الأمطار ليست منتظمةً، وليس لدى فيرجينيا من المال، ما يمكنها من شراء سماد. فحصدت عام 2004، عشرين كيلوغراماً من الذرة فقط، ما يكاد لا يكفي لتوفير الغذاء لأسرتها طوال شهر. وفيرجينيا تعاني من جوع، فلم يصمد جسمها، المفتقر إلى الغذاء، في وجه الالتهاب.

في النقاشات الدوليّة حول الجوع، ترد كلمة "حتميّة" على نحو دائم. واجهت البنغلادش عام 1974، أي بعد استقلالها بثلاث سنوات، إحدى أسوأ الكوارث في تاريخها: فقد تسبّبت فيضانات "الغانج" و"البراهمابوتر" بمجاعةٍ قضت على أربعة ملايين إنسان. عندها تقدّم "هنري كيسنجر" بمفهوم "حالة السلّة"، وهو يعني به البلدان التي وجدت نفسَها في وضعٍ بلغت فيه من اليأس، ما يجعلها أسيرةً في "عمق السلة"، في الهاوية، بحيث لم يعد أيّ أملٍ يُرجى منها.[33]

هل نبوءة كيسنجر البائسة مقبولة؟ هل هناك بلدان سُجِنت إلى الأبد في "قعر السلة"؟ فلندقّق قليلاً في مصطلح "الحتميّة" هذا.

في كلّ عام تنشر "منظمة الغذاء العالمي" (خريطة الجوع في العالم)، (وهي خريطة جغرافيّة لانتشار الجوع في العالم، يُفترَض فيها أن تُعلّق داخل جميع المدارس في أوروبا). ففيها ألوان مختلفة تضمّ مختلف البلدان، وتشير إلى نسبة مَن يعانون من نقص دائم وخطير، في التغذية. وإنّ اللون البنّي الغامق، ليشير إلى نسبةٍ متوسّطةٍ من نقصٍ في التغذية، يطال أكثر من 35٪ من السكان. والحال أنّ هذا اللون يغطّي مساحاتٍ واسعةً من أفريقيا وآسيا،

وكذلك بعض بلدان جزر الكاريبي. ولكن منذ عام 2001، برز اسم مونغوليا على نحو دائم، بين الأسماء الثلاثة التي تأتي في طليعة هذه اللوحة المشؤومة.

إنّ منغوليا بلد رائع يتألّف من سهوب وصحاري، وجبال و"توندرا"، وهو يقع في قلب آسيا. تبلغ مساحته مليون وخمسمائة كم^2، ويسكنه مليونان وأربعمائة ألف إنسان، معظمهم من المغول، ولكن هناك أيضاً "القزاك" و"البوريا". وإنّ السكان الرحّل فيه يفوقون خمسين بالمائة من مجموع سكانه.

والصيف هناك لا يدوم سوى شهرين ونصف الشهر، ويمتدّ من منتصف حزيران إلى أوائل أيلول. ثمّ يحلّ الخريف فالشتاء. ومنذ أواخر شهر تشرين الأول، تهبط درجاتُ الحرارة فيه إلى ما دون 20 درجة تحت الصفر. وهي تهبط إلى ما دون الخمسين درجةً، خلال شهر كانون الأول. وطوال اثنين وخمسين يوماً، تظلّ سماء مونغوليا، متّشحةً بلونٍ أزرق باهتٍ وشفّاف، فيما الشمس تظلّ متوهجةً.

إنّ منغوليا، التي تجاور سيبيريا والصين وكازاخستان، تملك جمالاً خارقاً. ففي الشمال غابات الصنوبر المسمّاة "تايغا" (Taïga)، وفي الغرب جبال "الألتاي" (Altaï). وفي عمق الجنوب، التلال الرمليّة والهضاب الصخريّة، التي تلفحها رياح صحراء غوبي. في الوسط والشرق، تمتدّ إلى ما لا نهاية، تلال مغطّاة بعشبٍ كثيفٍ، وكأني بها أمواج لا نهاية لها.

ثمّة طريق واحدة إسفلتيّة، تصل، على امتداد 600 كم، العاصمة، "أولان باتور" (Oulan-Bator)، بمدينة "سيلنجيه" (Selenge)، وهي مدينة تقع على حدود سيبيريا. وهناك سكّة حديدية تجتاز البلد من الجنوب إلى الشمال: إنه القطار الشهير، عابر سيبيريا، الذي يربط بيكين بسان بطرسبرغ.

في مفارق المعابر الضيّقة المرسومة، التي تخترق السهوب، تنتصب أكوام من الحجارة، يعلوها عَلَمٌ زرقته سماويّة، وهي لون الشامانية - ولكنه أيضاً لون البوذيّة التيبيتيّة. وتبعاً لتقليد شاماني قديم، يُدعى المسافر للدوران ثلاث مرات حول التلّة الصغيرة، ولإلقاء ثلاث حجارات يلتقطها من الأرض في جواره.

في الصيف، تهبّ نسمةٌ دائمةٌ وخفيفةٌ فوق السهوب. وتجتاح السماء، منذ شهر تشرين الأول، رياح عنيفة. وما بين تشرين الثاني وشهر آذار، تهبّ عواصف ثلجيّة، كثيراً ما تبتلع البشر والوحوش.

في الصيف، تتفجّر الحياة. فيُحتفَل بالأعراس، وتُنظّم في مختلف الولايات مسابقاتٌ في المصارعة، والرماية بالقوس، والألعاب البهلوانيّة وسباق الخيل. وعندها تصدح الأغاني المغوليّة في الهواء، وكأني بها زفرات طويلة، رقيقة وساحرة.

يمتلك المغول ذاكرةً جماعيّةً، عريقةً جدّاً وحيّةً. وإنّ رموز ماضيهم لحاضرة في كلّ مكان. والحال أنّهم، منذ أواخر القرن الثاني عشر، حتى مطلع القرن الخامس عشر، حكموا أوسع إمبراطوريّة عرفتها البشريّة، وكانت تمتدّ من المجر إلى "جافا"، فكانت عمليّاً تضمّ القارة الآسيويّة كلّها (ما عدا اليابان).[34] كان مؤسّس هذه الإمبراطوريّة، هو جنكيز خان، الذي توفّي عام 1227. واسمه يعني "الملك الكوني". وكان حفيده "قوبلاي خان" قد غادر العاصمة "قاراكوزم"، وأسّس بيكين.

كان المغول يعيشون في خِيَامٍ مستديرة، تردّ عنهم البرد والأهوية، قطعٌ كثيفةٌ من اللبد، مصنوعة بصوف الخراف. وكانوا يملكون من القطعان ما يفوق الثلاثين مليوناً من الماعز (التي توفر لهم صوف الكشمير الفاخر، المصدّر إلى الصين)، ومن الخراف (على جميع أنواعها)، ومن البقر (الجائعة أبداً)، ومن الجِمال ذات الحدبتين (المسماة "سفن صحراء غوبي")، وعلى الأخص من الأحصنة الأصيلة،

السريعة، القويّة، وهي ساحرة الجمال، والقادرة على الإسراع على نحو خارق.

وكان حليب الحجر ولحم الحصان، والفودكا المستخرج من الحبوب المستوردة من روسيا، أفضل أطعمة المغول وأشربتهم.

بالغ العطب هو المجتمع الرَحّال، بالغاً ما بلغ من حيث غنى تقاليده السحيقة، وقيم الضيافة والتعاون لديه. ففي عامي 1999 و2002، تعرّض لشتاء فاقت قسوته ما كان مألوفاً، وأعقبته موجاتٌ كارثيّةٌ من الجفاف والجراد، فنَفَقَ ما يقارب عشرةَ ملايين حيوانٍ من قطعانه.

تظهر منغوليا على خريطة "منظمة برنامج الغذاء العالمي" (PAM)، بمعدل وسطي من نقص في التغذية، مزمن وخطير، يبلغ 43٪. وهي تستورد اليوم 70٪ من أغذيتها، من الصين وكوريا الجنوبية وروسيا.

يعيش قرابة 40٪ من السكان تحت خط الفقر المدقع. وهم يضطرّون للعيش بما هو أقلّ من 22.000 "توكريك" في الشهر (أي بما هو أقل من 22 دولار)، والحال أنّ الحد الأدنى الضروري للبقاء، وفق التعليمات الحكوميّة، يرتفع إلى 30.000 توكريك في الشهر، في العاصمة "اولان - باتور".

تضمّ العاصمة أكثر من نصف السكّان. وإنّ 30٪ من سكانها، لجأوا إليها منذ أقلّ من خمس سنوات، هاربين من كوارث الطبيعة والجوع، التي ضربت سهوبها.

إنّ وفيّات الأطفال فيها تبلغ إحدى أعلى النسب في العالم، حيث سجّلت 58 وفاة من أصل ألف ولادة، عام 2003.

وأمّا الفقراء، فإنّ وضعَهم في تدهور متواصل.

إنّ اعتماد الزراعة أمر بالغ الصعوبة، لأنّ فصول الصيف هناك

أقصر من أن تتيح الزراعة والحصاد. والسقاية مستحيلة في ثلاثة أرباع أراضيها، بسبب من نقص المياه. ولذا، فإنّ منغوليا تستورد عمليّاً كلّ أغذيتها، باستثناء اللحم والحليب. والحال أنّ أسعار المنتوجات الصينيّة والروسيّة ترتفع باستمرار. خلال إقامتي هناك، في صيف عام 2004، ارتفعت فجأةً أسعار الأغذية المستوردة من روسيا، من قمح وبطاطا الخ... وسطياً 22٪.

عاشت منغوليا، من عام 1921 إلى عام 1991، تحت الحكم السوفييتي. كانت مستقلّةً من حيث المبدأ، ولكنّها مع ذلك تدور في الفلك السوفييتي. فعانت ما عانت من جرّاء معسكرات الاعتقال، والشرطة السريّة المطلقة الأيدي (KGB)، والاعتداءات المتواصلة ضدّ المجتمع التقليدي. ولقد قتل رجال ستالين (30.000) راهب بوذي، في الثلاثينيّات.

ولكن المجتمع المغولي صمد في أعماقه. فظلّت القبائل متماسكةً عمليّاً، لأنّ التضامن هو أساسهم: ففي السهوب، خلال الشتاء، حيث تهبط الحرارة دون 50 درجة، أو خلال الصيف والجفاف، عندما تُفقَد المياه، لا يُكتَبُ البقاء لأحد، لولا تضامن سائر سكّان الخيم في السهوب، أو في الأحياء البائسة في العاصمة.

وإنّ هذا التضامن لحاضرٌ في كلّ مكانٍ. إنّه الرئة التي يتنفّس بها المجتمع المغولي.

ثمّة بيتٌ بطابقين يواجهني، بجدرانه المتشقّقة ذات اللون الأصفر. وهو يقوم بجوار أرضٍ مشاع في الضاحية الجنوبيّة البعيدة، من العاصمة "اولان - باتور"، عند سفوح تلال جرداء، يجتازها درب ضيّق نحو مدينة "دوندغوبي". ثمّة درجٌ صغيرٌ يفضي إلى الباب الحديدي.

سألت أحدهم أن يترجم لي الكتابة المعلّقة على قسمٍ من الجدار الخارجي، وقد جاء فيها: "المركز البلدي للتثبّت من عناوين الأطفال".

اتّجه نحوي رجل ربِع القامة، بثياب مدنيّة، يقارب الخمسين، وكان بادي الحذر والقلق. إنّه العقيد "باياربيامبا"، وهو مدير المركز. كانت تتبعه سيّدةٌ متوسطةُ العمر، ترتدي ثوباً أبيض، وهي الطبيبة "إنخما"، كما كان يتبعه مفتّشٌ في الشرطة بثياب زرقاء. كانت الشمس في كبد السماء، والهواء يداعب بلطف أغصان الشجرة الوحيدة، المنتصبة أمام البيت.

كنّا في الصباح، ولكنّ الحرارة كانت قد تجاوزت 35 درجة.

كيف لعقيد في الشرطة، أن يكون مسؤولاً عن مركز إيواء لأطفال مشرّدين؟ تردّدت لحظة في صعود الدرج الصغير. ولكن الباب الحديدي كان مفتوحاً، وكنت أسمع زقزقة الصغار.

إنّ مشهد شرطي في لباس أزرق مزركش، في أيّ من بلدان العالم غير منغوليا، كان من شأنه أن يجعلني أتراجع، لأني كنت عندها ظننت الظنون في ما يُدبّر لزوّار أجانب. ولكن الأمور كلّها مختلفة في منغوليا. أجل، هي شرطة الدولة التي تكتشف الصِّبْية والبنات في أنفاق التدفئة، والتي ترغمهم على العودة إلى سطح الأرض، والتي تجمعهم عند عتبات البوابات، وتأتي بهم إلى هنا... لأنّ الشرطة، هي أيضاً، مسكونة بهذا التضامن الذي يوحّد جميع المغوليين. إنها شرطة الدولة، التي توفّر ملجأ وحمامات ومراحيض، وثياباً وغذاء وعلاجاً لأطفال الأنفاق هؤلاء، الذين لولاها، لكانوا بمعظمهم محكومين بموتٍ أكيد. وهي تحاول أيضاً أن تتثبّت من هوية أهلهم، أو من تحديد مكان إقامة أحد أصدقائهم، القادر على رعاية الطفل. ولكن هذه التحرّيات عموماً فاشلة.

في هذا المركز 132 طفلاً، بين صبيان وبنات، من مختلف الأعمار. كانوا يتناولون الطعام في صحون من حديد. كانت الوجبة وافرة، تتألّف من لحم خروف مغلي وبطاطا.

إنّ 80٪ مـــن الأطفـــال الـــذين يصـــلون إلى هـــذا المركـــز، هـــم "مجروحـــون" أو مرضـــى. ومعظمهـــم مـــن "أطفـــال الأنفـــاق". يكـــاد معظمهـم، إبـان وصـولهم، يعـاني مـن نقـص في التغذيـة. وإنّ أكثـر مـا كانوا يعانون منه، هو أمراض الجلد والمعدة.

كانت العاصمة "اولان - باتور" قد بُنيت لخمسين سنةً خلَت، وفق قواعد الهندسة السوفييتيّة آنذاك. وكان معمل ضخم يوفر الكهرباء والتدفئة للمدينة بأسرها، وهو بدوره كان يعمل بطاقة الفحم. وكان يقضي توفير التدفئة الجماعية، بإدخال القساطل في أنفاق حفرت تحت الطرقات. وهكذا كانت تتوفّر المياه الدافئة أيضاً للمشعّات الموضوعة في البيوت.

في هذه الأنفاق بالذات، كان يأوي، منذ أواخر شهر أيلول من كلّ عام، أفقر الفقراء - ولا سيما الأطفال المشرّدون. فهم يخرجون إلى الهواء الطلق في شهر أيار، ويعودون إلى باطن الأرض في شهر أيلول. وكانت الشرطة تبحث عنهم، وتقودهم إلى أحد هذه المراكز، عندما تعثر عليهم.

ولقد هبطتُ في جوف أحد هذه الأنفاق، مستعيناً بسلّم حديديّة. كان مليئاً بالبراز. فرأيت فيه جموعاً من الجرذان. أما النتانة، فكانت لا تطاق.

كان معظم الأطفال ضحايا العنف المنزلي. كانت البطالة في المدينة تصيب عام 2004، 47٪ من السكان العاملين. وفي هذه الظروف، فإنّ الفودكا تفعل فعلها المريع. ومثلها اليأس. وكان الأطفال يتعرّضون للجروح، لاعتداءات جنسيّة، وللضرب المبرّح. فهم يسعون في الليل، للاختباء في الأنفاق، وفي النهار، كانوا ينبشون القمامات.

ترى، ما عددهم في "اولان - باتور"؟

"قرابة 4.000"، يجيبني العقيد "باياربيامكا".

"عشرة آلاف على الأقل"، يقول "برازان دا سلفا"، وهو هندي أحمر، متأمرك، يقود عمليات "رؤيا العالم" في منغوليا. و"رؤيا العالم" هذه هي منظمة عالمية غير حكوميّة، وهي أميركيّة، نشأت في الكنيسة المشيخيّة، وميزانيّتها السنويّة تبلغ مليار دولار، يأتي 59٪ من تمويلها، من محسنين أفراد. ومنظمة "رؤيا العالم" تساعد عدداً من التسعة وثلاثين مركزاً لإيواء أطفال الشوارع، القائمة في "اولان - باتور".

دُعيتُ لتناول الطعام مع الأطفال. بجانبي طفلة، تقارب العشر سنوات، وهي تُطعم طفلاً صغيراً هزيلاً، يبلغ من العمر ثمانية عشر شهراً. فكان يزدرد قطع اللحم الصغيرة، التي كانت الطفلة تطحنها له بأسنانها. وكان يبدو في غاية السعادة.

كان "دولغون" مراهقاً في الرابعة عشرة. وكان لا يغطّي جسدَه سوى بنطالٍ قصير، بسبب الحرّ الشديد. على ظهره آثار ضرب، وعلى جانبَي عموده الفقري، تنتشر كدمات كبيرة حمراء.

وهناك صبي آخر، دونه سنّاً، تغطي وجهه القشر.

بعض الأطفال يحدّق فينا بمودّة. بعضهم يبدي خوفاً. ولكنهم جميعهم، تقدّموا شيئاً فشيئاً، ليصافحونا.

ثمّة طفلة في الثانية عشرة، تُدعى "زايا"، وترتدي بيجاما مغطّاة بالورود، وقد تعرّضت لنقص في التغذية بلغ حدّاً أصاب دماغَها، وهي تصدر صرخاتٍ متقطّعةً غير مفهومة. في نظرتها ألم وجنون، وهي تحتاج إلى رفيقة صغيرة مثلها لتحملها، عندما تريد أن تنتقل.

ينهض الأطفال، إثر تناولهم الطعام، بهدوء، ويؤلّفون دائرة. ويمسكون بأيدي بعضهم البعض، ويغنّون: "شكراً أيها الطباخ!" يبدو لي هذا المشهد أشبه بلوحةٍ من مسرحيّات "بريخت".

وتتوالى الأغاني. أما "زايا"، التي لا تستطيع الوقوف، فقد وُضِعت بلطف وسط الدائرة.

طلبتُ أن أتحدّث طويلاً مع الأطفال، على أن يقوم بالترجمة "بات شوانبونغ"، مسؤول الخدمات الاجتماعيّة.

قصص الأطفال على درجة كبيرة من التفاهة، إنها الرواية المألوفة لما يمارَس من تدمير وبؤس وإذلال حيال الأطفال في العالم كلّه.

"سُندور"، صبي في السابعة من عمره، له عينان واسعتان، داكنتان ووديعتان. تحفر خدّيه ويدَيه ندباتٌ متشابكة. هو في هذا المركز منذ شهرين، بمنأى من الضرب. وهو يودّ أن يلتحقَ بمدرسة طوال النهار. والداه في السجن، حسب روايته.

"توغولدور" يدّعي أنه يبلغ 15 عاماً. وهو أليف الشارع، وبصورة أدقّ، أليف الأنفاق منذ ثلاث سنوات. وقد اضطرّ أهله لبيع الخيمة، بسببٍ من دَين لم يستطيعوا تسديدَه. هم أيضاً يعيشون في الأنفاق والشارع. و"توغولدور" لا يدري مكان إقامتهم.

"بيامبا" صبي هش، بشرته بيضاء، تكاد تكون شفّافة، وله من العمر اثنتا عشرة سنة، وقد أتى من ضاحية مدينة "اوم غوبي"، في الجنوب. إنّه يتيم. توفّي والداه يوم كان له من العمر ستّ سنوات. فاحتضنَته جدّته في "اولان - باتور". ولكنّها توفّيت بعد ذلك بقليل. وعندها، التحق "بيامبا" بالأنفاق، حيث عاش خمس سنوات، حتى شهر أيار الماضي. وعندما غادرتُ، كان "بيامبا" يتمسّك بسترتي، بحثاً عن الحنان العائلي الذي لم يعرفه يوماً.

كانت "شيندروف" صبيّةً في الخامسة عشرة من عمرها، وكانت جميلةً وحزينةً. وهي ترتدي ثوباً مهترئاً، زرقته سماويّة. وكانت تنتعل صندالاً أبيض. تخلّت عنها أمّها، بعد أن أنهكها اليأس والفودكا. وكان والدها عاطلاً عن العمل، فحاول الاعتداء عليها جنسيّاً، فالتحقت بدورها بالأنفاق، منذ شهر شباط من هذا العام.

يوم الثلاثاء 17 آب 2004، كنت جالساً مقابل اللواء "بوريف داش"،

مدير الوكالة الحكوميّة لمكافحة الكوارث، في بيت كبير ورمادي، يحمل رقم 6 في شارع "الموالين"، في "اولان باتور".[35] وكان يُبرز بكلّ اعتزازٍ أوسمتَه السوفييتيّة والمغوليّة، المغروسة في أعلى سترته ذات اللون الأخضر الغامق. له نظارات محاطة بالفولاذ، وكان شعره الأسود قد قُصّ منتصباً. وكان معتدل القامة، يضج بالحيويّة، وتسكنه تلك السخرية الباسمة، اللاذعة، التي باتت أليفة جدّاً لدى المغول.

وهو أيضاً يحمل شهادة دكتورا في العلوم. وكان مساعده، "يوجين اودخو"، هو أيضاً برتبة لواء، ويحمل إجازةً في العلوم. كان قصير القامة، بادي الاحترام لرئيسه - وفضوليّاً حيال الزوّار القادمين من البعيد.

يستعرض "داش"، أمامي، الكوارث التي يُفترض فيه أن يكافحها.

إنّ كابوسَه الأوّل، هو حرائق السهوب، التي تجتاح خلال أشهر الصيف، مئات الألوف من الهكتارات، وهو كذلك حرائق الغابات. فإنّ 8.30٪ من منغوليا مغطّاة بهذه الغابة الشماليّة، التي تمتدّ عبر سيبيريا حتى القطب الشمالي. هذه الغابة، المسمّاة "تايغا"، هي أعظم مساحة متّصلة من الغابات في العالم. وإنّ حرائق السهوب والغابات تعود بنصيب كبير إلى الجفاف، الذي أخذ يتفاقم منذ نهاية التسعينيّات. فلئن كانت الأمطار في ختام الثمانينيّات، تهطل وسطيّاً كلّ عام 200 ملم، فقد باتت أكثر ندرةً منذ فترات الجفاف الكبير، الذي حلّ عام 1999 وعام 2003. والحال، أنّ "داش" ليس في تصرّفه، لا حوّامات ولا طائرات، لمكافحة الحرائق، وإنقاذ العائلات والحيوانات.

وكان كابوسه الثاني، ظاهرة الأوبئة التي تضرب النعاج والأحصنة، والخراف والجمال - ولكن أيضاً البشر. فإنّ أخطر أعداء الحيوانات، هو الحمّى القلاعية. فقد قضت عام 2002 وعام 2003، على مئات الألوف من الضحايا. والخدمات البيطريّة تفتقر إلى كلّ شيء:

اللقاحات، مضادات الطفيليّات، والفيتامينات. أما الحلّ الوحيد، فهو قتل الماشية المصابة، وإحراقها، الأمر الذي ينجم عنه الخراب النهائي للعائلات الرحّالة.

أمّا الأوبئة المعادية للإنسان، فإنّ شبح الطاعون هو الذي يسيطر على الجنرال بشأنها. فإنّ البراغيث، حاملة هذا المرض، تُؤثرُ أن تختبئ في جلد المرموط. والحال أنّ الظباء والحمير الوحشيّة، هي مع المرموط، الصيد المفضل لدى المغول. وهي توفّر الدهن، وجلودها مطلوبة في الأسواق.

إنّ مكافحة الطاعون لأمرٌ صعب. وإنّه ليتوجّب على الجنرال أن يكتفي بأن يبثّ بالراديو، نداءاتٍ ملحّةً إلى الصيّادين: "دعوا الحيوان المقتول يرتاح. فعلى جسمه البارد، تنفق البراغيث من تلقاء ذاتها".

ثمّة هاجس آخر: إنّ وباء "سراس"، القادم من الصين، هو أشبه بسيف "داموكليدس" المعلّق فوق مونغوليا. وهنا، وحدَه الدكتور "روبير هاجن" (Robert HAGAN)، وهو دانماركي ذكي وحازم، يمثّل منظمة الصحة العالمية (OMS) في منغوليا، يستطيع أن يقدّم لنا شيئاً من الرجاء. ويعود إليه الفضل في إلحاق منغوليا منذ قليل، بنظام مراقبة الوباء، الذي أعدّته للقارة الآسيويّة كلّها، وكالة الأمم المتحدة.

إنّ العواصف الثلجيّة تبدأ في شهر تشرين الأوّل، كما قلت، وأحياناً منذ أواخر شهر أيلول. وهي تبتلع العائلات والحيوانات. ويحتاج الجنرال العام إلى تمويل ملحّ، كي يستطيع بناء ملاجئ شتائيّة للحيوانات. من ناحية أخرى، فإنّ الأعشاب يُفترض فيها أن تغذّي هذه الحيوانات، طوال أشهر الشتاء الثمانية. ولكن، منذ اجتياح الجراد في أواخر عام 2003، فقد دُمّرت مئات ألوف الهكتارات من الأراضي. ثمّ إنّ الحشرات ابتلعت أعشاب الصيف في السهوب، فلم يتسنّ لمربّي الماشية، إن صحّ التعبير، أن يجمعوا مؤونتَهم من الأعشاب.

إنّ إنقاذ القطعان يفترض الآن إذن، القدرةَ على استيراد آلاف من أطنان العشب، بالشاحنات، من سيبيريا.

في عام 2003، نظّمت إدارة التعاون التقني السويسري للتنمية، بالتنسيق مع وكالة الغوث الروسيّة، قافلةً من الشاحنات، ونقلت إلى مساحة تتجاوز ثلاثة آلاف كيلومتر، غذاءً وأعلافاً، خصّت بها عشرات الآلاف من "الخيم" المحاصَرة في الثلوج. ولكن عام 2004، يفتقر إلى المال.

سألتُ: "ماذا تنوون فعله؟"

أجابني الجنرال العام، وهو يرفع عينيه إلى السماء" "نرجو... نرجو أن يكون الشتاء حليماً".

في مونغوليا، يكون الشتاء حليماً، عندما لا تهبط الحرارة فيها، دون 30 درجة.

إنّ الوكالة تخزّن الحَبّ المستورد، تحسّباً للمجاعات، ولكنها لا تستطيع تخزين الماء، لافتقارها إلى المنشآت والأموال. والحال أنّ الجفاف يستنفد المياه الجوفيّة.

بعد مضي بضعة أيّامٍ على زيارتي للجنرال العام "بوريف داش"، وجدتني بعيداً في الجنوب، في منطقة "غوبي" (GOBI)، حيث كانت قد أسّست عام 1942، مدينة "مَندَل غوبي" (Mandal GOBI). كانت كتلة إسمنتيّة مقزّزة، من النمط السوفييتي، تحوي مكاتب حاكم الولاية، "يان شوفدو بوريين اديا" (Jan Chovdo Porjin ADIYA). كان هذا الرجل السمين والمرح، يحكم مقاطعة "دوندغوبي"، وهي منطقة تمتدّ على مساحة 76.000 كم^2، حيث يعيش 51.000 من الرحّل.

في هذه المنطقة، كان ثمّة تسعون بالمائة من الآبار التقليديّة، التي لا يتجاوز عمقها خمسين متراً، قد باتت خارج الاستعمال. وكان لا بدّ من حفر آبار بعيدة العمق، ولكنّ آلات الحفر والمضخّات

الكهربائيّة غير متوفّرة. فيعود الناس، خلال الصيف، إلى الأنهار والمستنقعات. فتتكاثر الوفيّات نتيجة الإسهالات، ولا سيما بين الأطفال الصغار.

تُرى، هل منغوليا حالة من حالات "السلّة المخنوقة"، حسب معايير هنري كيسنجر؟ وهل هناك "حتميّة خفيّة" تفسّر مصائب الأطفال المغوليّين؟

بالطبع لا. هذه المصائب تحمل اسماً هو الدَّين!

كان هذا الدَّين يبلغ ملياري دولار عام 2006. وإنّ هذا الرقم ليعادل تقريباً النتاج الداخلي الصافي، أي مجموع الثروات التي تنتجها منغوليا خلال عام واحد.

إنّ منغوليا تختنق. وإنّ جميع الأخطار التي تتهدّدها، وجميع الكوارث التي تحلّ بها، يمكن تجنّبها أو مكافحتها، باعتماد تقنيّة ملائمة. والحال أنّ هذه التقنيّة متوفّرة في أسواق الغرب. ولكنّها مكلفة.

وعلى الصعيد العملي، فإنّ كلّ الأموال التي تتوفّر في منغوليا، تبتلعها خدمة الدَّين!

مراجع القسم الثاني

[1] حول نشوء واستراتيجية "يوبيل 2000"، راجع هيئة أساقفة البرازيل (CBB) (A vida acima da divida)، ريو دو جانيرو، عام 2000

[2] إن شعب الهاوسا غير معني. عشت وضعاً مماثلاً قبل سنوات، في بيت فاخر في لاغوس.

[3] لجنة اقتصادية من الأمم المتحدة، لأميركا اللاتينية وجزر الكاريبي، "نظرة بانورامية اقتصادية عن أميركا اللاتينية 2002–2006"، مدينة مكسيكو عام 2007.

[4] وثيقة صادرة عن منظمة العفو الدولية، القسم الفرنسي، باريس 2004/8/6.

[5] "منتدى باريس" تأسس عام 1956، وهو يضم ممثلي أقوى 19 دولة دائنة. مركزهم في وزارة المالية الفرنسية، في باريس.

[6] "ايريك توسان": "المال ضد الشعوب"، بروكسيل، منشورات (CADTM)، 2004.

[7] إن مؤسسات "بريتن وودز" (Bretton Woods) تضم خصوصاً البنك الدولي وصندوق النقد الدولي. و"بريتون وودز" هي بلدة في ولاية نيوهامبشاير" (USA)، حيث أنشئت هذه المؤسسات.

[8] حول أصل وتطور الدَّين الخارجي لمختلف بلدان أميركا الجنوبية، راجع " Marcos ARRUDA" في كتابه: "الدَّين الخارجي" (External Debt).

[9] "موريس لوموان" (Maurice LEMOINE) "دولة وطنية وتنمية"، حديث قدمه خلال "اللقاءات الاشتراكية الدولية" في ريو دو جانيرو. 2–4 آب 2001 – وموريس لوموان، هو رئيس تحرير صحيفة Le monde Diplomatique.

[10] إن الفترة الزمنية التي يغطيها التحليل هي 1992–1997 – المصدر CADTM.

[11] منظمة اليونيسيف: "وضع الأطفال في العالم"، نيويورك 2003.

[12] منظمة التجارة العالمية

[13] منظمة الصحة العالمية

[14] برنامج الغذاء العالمي

[15] منظمة العمل العالمية

[16] منظمة الهجرة العالمية.

[17] "جان- بول مارا": "نصوص مختارة"، تقديم لوسيان شيلر (Lucien Scheler) – باريس، منشورات مينيوي (Minuit)، عام 1945، صفحة 97-98

[18] حملة "اليوبيل 2000"

[19] البنك الدولي: "تقرير 2000 حول التنمية في العالم. "مكافحة الفقر"، باريس، منشورات البنك الدولي – أيلول 2000

[20] هذا الرقم ارتفع من 71. مليار إلى 81. مليار شخص ما بين عام 1990 وعام 1998.

[21] ثمة اثنية ثالثة، تدعى "البتوا" (Batwas)، وهي تقيم في الغابات وقليلة العدد جداً.

[22] في اللغة المحلية، كلمة "انترهمويه" (Interhamwe) تعني "الذين يقتلون معاً".

[23] برزت بعض أشكال الندم في ما بعد. راجع "روميو دالير": "صافحت الشيطان"، تورنتو – 2003

[24] راجع (Colette Braeckman): "رواندا، عودة على إبادة جماعية"، في صحيفة "لوموند دبلوماتيك"، باريس شهر أيار 2004.

[25] راجع "منظمة الغذاء العالمي": "وضع انعدام الأمن الغذائي في العالم" – روما 2001، 2004، 2006.

[26] في عهد العبودية، وحتى عام 1888، كان "الفيتور" مراقباً للعبيد العاملين في حقول قصب السكر. واليوم تعني هذه الكلمة "رئيس العمال".

[27] الاونروا (Unrwa)، هي إحدى منظمات الأمم المتحدة، المكلفة، منذ عام 1948، بالمساعدة (الدراسية والصحية قبل كل شيء) المقدمة لأربعة ملايين من اللاجئين الفلسطينيين، العائشين في خمس من دول الشرق الأوسط.

[28] راجع اليونيسيف والبنك الدولي في تقريرهما المشترك: "النقص في الفيتامين والمعادن". تقرير شامل...

[29] توجد في جنيف، منذ عام 2003، مؤسسة سويسرية، تدعى "الاتحاد الشامل من

أجل دعم التغذية" (Global Alliance for Improved Nutrition) (GAIN)، يهدف إلى تقوية الغذاء المقدّم محلياً في بلدان العالم الثالث، بواسطة دعمه بالفيتامينات والمعادن، وموقعه على الانترنت: (www.gainhealth.org).

[30] في "باتوسالند"، دمّر مرض الايدز نصف اليد الزراعية العاملة: وفي زامبيا وزمبابويه يموت منتجو الذرة، بالآلاف، كل عام، بسبب الايدز. وفي اوغاندا، يقتل الايدز كل عام عشرات الألوف من الفلاحين ونسائهم. وإن الدولة والعائلات المتبقية تنهار تحت النفقات المالية والأعباء الاجتماعية التي يسبّبها مئات ألوف الأطفال الأيتام، صغار السن.

[31] مركزها في جنيف

[32] "بيتر بيوت" (Peter PIOT) في "خط الدفاع الأول، لماذا مادة الغذاء والتغذية، في المعركة ضد الايدز"، منشورات "برنامج الغذاء العالمي" (PAM)، روما عام 2004.

[33] "كريستوفر هيتشنس" (Christopher HITCHENS) "محاكمة هنري كيسنجر" لندن، منشورات (verso)، عام 2001، ص 50

[34] أخفق عام 1225 جيش مغولي مؤلف من 140.000. خيّال، حمله أسطول كوري، في الهبوط في سواحل اليابان.

[35] الاسم الرسمي: وكالة الاهتمام بالكوارث الطبيعية.

القسم الثالث

الحبشة: الإنهاك والتضامن

I- "عَلَم تسيهايه"

تلفح الرياح الدائمة هضاب "التيجريه" العليا. والسماء صافية. في الصباح، بضع غيوم بيضاء تسافر وئيداً نحو الغرب، متوجّهة نحو غابات السودان. الحرارة مرتفعة. الشمس في السماء قرص أغبر، ونورها ساطع. نحن في أواخر الفصل الجاف، في الأيام الأخيرة من شهر شباط من عام 2004.

تقع منطقة "التيجريه" على علوّ يتراوح بين 2000 و2500 متر. أرضها المغبرّة تمتدّ بعيداً في الأفق، ويعمل فيها منذ آلاف السنين، نساء ورجال، ذوو ملامح دقيقة، وعيون سمراء داكنة، وأجسام رشيقة، وبشرة كامدة. رجالها نحيلون، وشديدو المراس في العمل.

في منتصف القرن الرابع، قَدِم من الاسكندرية، رهبان أخذوا يصعّدون شيئاً فشيئاً في النيل. ولقد قهروا الشلال الأوّل، ثمّ الثاني، وهكذا بلغوا بحيرة "تاما"، ومن ثمّ ينبوع النيل. وأخذوا يبشّرون بالإنجيل في سفوح "الكوندار"، في بلاد الأمحريّين، وفوق هضاب "التيجريه". وقَدِم في الفترة إيّاها تقريباً، مبشّرون آخرون يتكلّمون لغات الجنوب العربي، وهي "الكيز" (Guèze) والآراميّة الفلسطينيّة. كانوا يهوداً متنصّرين، وكانوا تجّاراً وبحارةً من روّاد السواحل الغربيّة للبحر الأحمر. وإنّه ليسعنا اليوم أن نسمع، لدى بعض الجماعات

المسيحيّة، في الأديرة التي تخصّ الكنيسة الأرثوذكسيّة الحبشيّة، من يتحدّث باللغة السريانيّة، كما يسعنا مشاهدة ممارساتٍ موروثةً من الجماعات اليهوديّة القديمة.

ومنذ سقوط دكتاتوريّة الماريشال "هيلي مانغستو"، العسكريّة، المدعومة بأعوانهم الروس، ودخول المنتصرين من مقاتلي "الجبهة الشعبيّة لتحرير التيجريه"، في شهر أيّار عام 1991، تشكّل الحبشة اتحاداً فيدراليّاً يتألّف من تسع دولٍ إقليميّةٍ. ولكلّ منها حكومتها وبرلمانها وميزانيّتها، وقوانينها الإقليميّة، وخصوصاً إدارتها الخاصة.

وما خلا استثناءاتٍ قليلةً، فإنّ حدودَ الدول الإقليميّة تطابق حدود الحضارات القديمة، واللغات والثقافات، التي انتشرت منذ آلاف السنين في أراضي الحبشة. وتتجاوز مساحة هذا الاتحاد مليوناً من الكيلومترات المربّعة، ويسكنه 71 مليون إنسان.

تشكّل "التيجريه" دولةً إقليميّةً في أقصى الشمال. وفي الشرق تنتهي الهضاب بجرفٍ هو أشبه بهوّةٍ ضخمةٍ تُسمّى الجرف الأفريقي الكبير. وهي تمتدّ في واقع الحال، وكأني بها آثار جرحٍ قاتمٍ، على طول إفريقيا الشرقيّة، من الشواطئ الجنوبيّة للبحر الأحمر، حتى بحيرة "نياسا"، في المالاوي البعيد!

إنّ منخفض "داناكيل" (Danakil)، الذي ينسحب على طول شمال أثيوبيا، بالقرب من الحدود مع "اريتريا"، هو إحدى المناطق الأشدّ بؤساً في العالم. وهو يقع على عمق مئة مترٍ دون سطح البحر. وفيه، هنا وهناك، بقايا أشجارٍ محروقةٍ، ومناجم ملح، وحجاراتٌ شقّقتها الحرارة، وبضع أعشابٍ جافّة، وبعض تجمّعاتٍ من الرحّل هنا وهناك، وشمس حارقة في النهار، وظلمات مقلقة في الليل، وبضع آبار، وواحات نادرة، وسماء ملتهبة طوال اثني عشر شهراً، وحرمان كلّيّ من الأمطار الجديرة بهذا الاسم.

هذه الصحراء القمريّة، يعبرها شعبٌ يسمّى "الافار"، وهم رحّل على جِمالٍ، وتجّار ملح معروفون.

منذ اليوم الأوّل لوصولنا، على الطريق الرئيسي الذي يربط مدينة "ميكيليه"، القائمة فوق الهضاب المرتفعة في شمال أثيوبيا، بمدينة "اديكرات" (Addigrat)، التقينا قافلتَي ملح. كلّ منهما يضمّ من 30 إلى 50 جملاً، ذا سنام واحد، محمّلاً بمئة كيلوغرام من الملح، المستخرج من بحيرات "داناكيل" المعدنيّة، والمقطوع في شرائح ذات لون رمادي غامق. كانت الجمال تسير وفق إيقاعها المتماوج، الواحد خلف الآخر، عبر آلاف الكيلومترات، حتى أسواق أديس أبابا، وأحياناً أبعد من ذلك إلى الجنوب، حتى أراضي "كافا" المنخفضة.

كان شبّان "الافار"، ذوو الوشوم المصطنعة، بعيونهم الضاحكة وأجسامهم النحيلة، يرافقون القافلة ركضاً، وهم يصفّرون. وكانوا يحاولون، بعصيّهم الطويلة، أن يعيدوا، عبثاً، الجِمال إلى جادّة الطريق، إذ كانت الجِمال تتجاهل، على ما تحمل، في كِبَرٍ ولامبالاة وازدراء، هؤلاء الشبّان، على نحوٍ تام. فكانت سيّارتنا هي التي تضطرّ لأن تحيد عن الطريق، فتجاوزتنا قافلة الجِمال، بإيقاعها الأزلي...

يتألف "التيجريه" في أساسه، من هضبةٍ مرتفعةٍ وجافّة، وعرة وصخريّة. ولكن في أقصى الغرب منه، تنحدر الهضبة في حركةٍ وئيدة، نحو حقول الموز والذرى والغابات والحدائق شبه المداريّة. وهنا يجاور "التيجريه" السودان. والأراضي فيه ذات خصب مدهش. فتنمو فيه بغزارةٍ، البندورة والبصل والسورغو والاينيام. وتغطّيه الأشجار المثمرة، ومزارع البرتقال خصوصاً. أمّا ثمار أشجار المانغا فيه، فلها نكهة استثنائيّة.

تحاول حكومة إقليم "ميكيليه"، أن تحثّ الفلاحين وعائلاتهم، على الهجرة من الهضاب الكثيفة السكان، إلى أراضي الغرب المنخفضة ومزارعها المداريّة. وإنّه لأمرٌ معقول للغاية. ولسوف تساعد السلطات

الحكوميّة، طوال سنتين، المهاجر على استصلاح الغابة، والزرع وبناء كوخه. وطوال هذه المدّة، تظلّ عائلته تستثمر، كما في السابق، أرضه ومزرعته الأصليّة. وإن ثبُتت، بعد سنتين، صحّة اختباره للأراضي المنخفضة، يعود إلى الهضاب المرتفعة ليجلب أسرته. وإن أخفقت تجربته الزراعيّة، يعود الفلاح الرائد إلى أرضه على نحوٍ دائمٍ، وبذلك تنتهي المغامرة.

غير أنّ هناك لعبةً قديمةً تلاحق شعوب "التيجريه". فالأوبئة تنتشر في الأراضي الغربية وشبه المدارية. فإنّ الملاريا والبلهارسيا والحمّى الصفراء تقضي على العمّال، على الرغم من جميع الجهود الوقائيّة، التي تتّخذها السلطات العامّة. فثمّة جرثومة تُدعى "تريبا نوزوم"، وهي شديدة الخطورة. وتنتقل بواسطة ذبابة "التسي تسيه"، التي تتسرّب إلى الدماغ وتُحدث الموت.

إلا أنّ إرادة الحياة لدى سكان "التيجريه"، هي من القوّة بحيثُ أنّها تدفع المزيد من العائلات، للتخلّي عن منازلهم الحجريّة، والهجرة نحو الغرب، على الرغم من جميع هذه المعوّقات الشديدة.

في الهضبة الصخريّة المرتفعة في "التيجريه" الأوسط، يرتفع العديد من الكنائس الريفيّة، المنحوتة في الصخر. فهناك مائة وعشرون منها في مقاطعة "غيرالتا" (Geralta) وحدَها. ولقد زرنا الكنيسة المسمّاة كنيسة "ابريها واتسيبا"، المسمّاة أيضاً "ديبرانيغاست"، أي كنيسة الملوك. وهي تحمل اسم أخوين حكما في مطلع القرن الرابع، ولاية "أكسوم" (AKSOUM)، المزدهرة والقويّة.

إنّ المشهد يندّ عن كلّ وصف. ففي سفح الجرف ذي الصخور الحمراء، تضطجع القرية الحجريّة تحت ظلال أشجار الجمّيز الضخمة. في الأفق، قمم جبليّة ذات أشكالٍ غريبةٍ. ثمّة درجٌ ضخمٌ من حجر الغرانيت الأحمر، تآكلت درجاته بفعل الرياح، يصعد نحو

البوّابة المحصّنة، والنفق الذي يفضي إلى باطن الصخور. وتظلّل القبّة العالية ثلاثة هياكل، كرّست للملاكين جبرائيل وميخائيل، وكذلك للسيّدة العذراء. وترتكز القبّة على أعمدةٍ حُفِرت مباشرةً في الصخر، وكستها بالشقرة ألسِنة الشموع.

تعيش على مبعدة مئات الأمتار من البوّابة المحصّنة، "عَلَم تسيهايه ادان"، وهي أرملة حرب، في الخمسين من عمرها.[1] كان زوجها الشاب، "سيمون نيغيسيه"، مقاتلاً في الجبهة الشعبيّة لتحرير "التيجريه"، قد تفحّم في أحد خنادق الغرب، في تاريخ غير محدّد من أواخر عام 1980، بفعل نيران النابالم، الذي ألقته إحدى طائرات انطونوف السوفييتيّة.

هي هزيلةٌ وتقف منتصبةً. إنها ترتدي ثوباً من القطن الرمادي، وتنتعل سندالاً، وعلى خصرها زنار من القماش الملوّن. ثمّة وشوم غامقة الزرقة تجتاز بخطوطها الدقيقة، جبينها ومِحجَرَي عينيها وظهر يدَيها. هي بادية الثّقة، تضحك بارتياح، وتتصرّف بحيويّة. فاستقبلتنا في الباحة الثانية من بيتها الحجري. وإنّ الجرف إلى يمين الدرج الضخم، يحمي مزرعة الموز والبئر والقنّ، من الرياح الدائمة، والرمال التي تحملها.

لماذا الباحة الثانية؟ لأنّها تحتوي مفخرة "عَلَم تسيهايه": المراحيض!

منذ وصولنا إلى مدينة "ميكيليه"، في الصباح الباكر، على متن خطوط الطيران الحبشيّة، القادمة من "أديس أبابا"، قادنا "أبَادي زيمو غيبرو"، نائب رئيس حكومة "تيجريه" الإقليميّة، و"تيكليواني آسفة"، المدير التنفيذي لجمعية العون في "التيجريه"، في سيّارات تصلح لكلّ الأراضي، فمضينا عبر طرقاتٍ وعرةٍ نحو الغرب، في اتجاه مرتفعات "غيرالتا" الحمراء.

إني أقوم بمهمة لصالح الأمم المتحدة. فكان من الطبيعي جداً أن ترغب حكومة الإقليم وجمعيّة العون فيه، قبل كلّ شيء، في تنظيم لقاءات لي مع مواطنين نموذجيّين. وهذا ما يبرّر وجودي عند "عَلَم تسيهايه أدان".

كانت "جمعيّة العون" قد أُسّست منذ بدء التمرّد عام 1978، من أجل الاهتمام بمشوّهي حرب العصابات، ومن أجل تموين القرى المحرّرة. وكان يتوجّب أيضاً على الجمعيّة الاهتمام بنقل الجرحى الخطيرين نحو "كسالى" (في السودان)، أو حتى "بورسودان"، عند البحر الأحمر، حيث كان، بفضل تبرّعات التضامن الأوروبيّة، أطبّاء من السويد والنروج وفرنسا وإيطاليا وسويسرا، يقدّمون خدماتهم الطبية ليلاً ونهاراً دون توقّف، للمصابين بالشظايا، والطلقات المتفجّرة، والمحروقين بالنابالم، من مقاتلي ومقاتلات جبهة التحرير، الفتيان. وكان الجرّاحون يجرون أيضاً العمليّات الجراحيّة لنساء وأطفال القرى، التي أحرقتها قاصفات القنابل الروسيّة. واليوم فإنّ "جمعيّة العون" هي جمعيّة العون الرئيسيّة، ذات النفع العام في "التيجريه". وهي التي غطّت نفقات المراحيض، في بيت "عَلَم تسيهايه".

جلس "ابادي زيمو غيبرو" و"تيكليواني أسفة" هنا: إنّهما من الناجين! إنّهما، على تجاوزهما سنّ الستّين، يتمتّعان بمرونة وخفّة مدهشتَين. كلاهما أصلع، وهما من القلّة النادرة المتبقيّة من مؤسّسي "جبهة التحرير". وقد عرفا أدغال السودان، وعرفا الفترة الطويلة، المسمّاة فترة حشد القوى، ثمّ المسيرات الطويلة التي لا تنتهي عبر الجبال، وأخيراً معارك الشوارع الرهيبة في مدن الهضبة.

تعلو وجه "ابادي زيمو غيبرو" نظارات سميكة، إذ هو حسير النظر. وتعلو صلعته الملساء دائرة من الشعر الأبيض. فارغ هو كُمّ سترته

الأيمن، الذي تحرّكه الريح. ذلك بأنّه لعشرين سنةً خلَت، مزّقت كتفه شظيّة من قنبلةٍ روسيّة وأصابته غنغرينة. فتعاون صديقه "تيكليواني" مع أحد الرفقاء، وشحذ سكيناً على نارٍ من حطب، وقطع نتف اللحم، وقصّ ما تبقّى من عضلات وأوتار، وقصّ العظم، وبتر اليد عند الكتف. كلّ ذلك دون مخدّر!

لا يمثّل سكان "التيجريه" إلا 7٪ من سكّان الحبشة. ولكنّهم هم الذين قلبوا حاكمهم المستبدّ عام 1994. واليوم، هم المسيطرون على معظم بُنى السلطة. كيف تُراهم يفعلون؟

كان منشأ "الجبهة الشعبيّة لتحرير الحبشة"، من أصل ماركسي، ثمّ أصبحت (بفعل انتهازيّة سياسيّة صرف) حليفة الولايات المتحدة، فقرّرت الاستيلاء على المؤسّسات. وهكذا كان. ففي داخل كلّ من الحكومات التسع، التي تشكّل فيدراليّة الحبشة، يتحرّك أبناء "التيجريه"، إمّا بوصفهم وزراء، أو في الغالب، بوصفهم مستشارين في الظلّ. وعلى صعيد الفيديراليّة، فإنّ الجبهة تمسك منذ عام 1991، وبالتأكيد لفترة طويلة قادمة، بالمراكز المفصليّة: من رئيس الوزراء، إلى وزير الخارجيّة، إلى نائب رئيس الوزراء للتنمية الاقتصاديّة، إلى قادة الوحدات العسكريّة الرئيسيّة، وإلى رؤساء فروع الأمن.

خلال السفر، كان "أبادي زيمو غيبرو"، رفيقاً لطيفاً، ذكيّاً، متقشّفاً، صاحب نكتة، ولا يتورّع عن السخريّة من ذاته. هو ماركسي، ولما كان متأثّراً حتى أعماقه بثقافة الهضاب العريقة، الداعية إلى المساواة ونبذ الرتب، لم يكن ليخشى الكلام الصريح: سَألنا: "هل التقيت "ميليس؟"... لم تلتقِه بعد؟... لا حاجة بك إلى لقائه. نحن هنا، كلّنا "ميليس". وأنا أيضاً "ميليس!" قالها وانفجر بالضحك. (كان ميليس زيناوي الأمين العام السابق للجبهة الشعبيّة لتحرير الحبشة، وكان يومها رئيساً للوزراء).

واجتـاح باحـة الـدار فجـأةً جمهـرةٌ مـن الأطفـال الضـاحكين والمراهقين الفضوليّين، ذوي النظرات الفاحصة والعميقة. وكان طفلٌ صغيرٌ يرتدي كنزةً بالغة القصر، ولا يستر مؤخّرتَه شيء، يتأرجح بفخار بين يدي "عَلَم تسيهايه". فلهذه الأرملة ستّة أولاد تتراوح أعمارهم بين 18 و25 عاماً، كما أنّ لها ثلاثة أحفاد، أحدهم ذاك المتهلّل الذي تحمله على ذراعيها. في أسمائهم جميعاً، من أصغرهم إلى أكبرهم، ما يشير إلى سطوة كهنة كنيسة "ديبرا نيغاست" التي تُطلّ على القرية: "جبريماريام"، "عمانويل"، "شينوم نيكيسه"، "يوسف"، تسيدوق"، "زاسبيا"، "كوشيد".

من الواضح أنّ المراحيض لم تُستخدم قط، وهي عبارة عن مرتفع صغير، فيه ثلاثة ثقوب، ومؤطّر بالإسمنت، وهو يعلو الحفرة. وهي، بوصفها بناءً هاماً، تقوم شاهدة على التزام العائلة باستراتيجيّات التنمية، التي قرّرتها الجبهة الشعبيّة لتحرير الحبشة!

في الهواء الهادر أبداً، كانت "عَلَم تسيهايه" تجيب بمودّة على أسئلتنا. وبتّ أدركُ لماذا اقتادنا هذان المقاتلان السابقان، وقد أصبحا عضوَين في اللجنة المركزيّة للجبهة، ومسؤولَين في الدولة الإقليميّة، إلى هذه الباحة، تحت شجرة الجمّيز الضخمة، قبل أن يقودانا إلى أيِّ مكانٍ آخر. ذلك أنّ عام 2004 اعتُبر عام "حصاد جيد". وهذا يعني، في "التيجريه"، أنّ مليون إنسان فقط، من أصل 4.9 ملايين من سكان هذه الدولة، سيعتمدون على المساعدة الغذائيّة الدوليّة، التي تصل عبر مرفأ "دجيبوتي". والحال أنّ "عَلَم تسيهايه" توفّر الغذاء لأسرتها كلّها، وأنّ أسرتها هي بالتأكيد الوحيدة، من أصل اثنتين وثمانين عائلة العائشة في القرية - منها اثنتا عشرة تتولّى أمورها نساء ليس إلاّ - الأكثر بحبوحة... إذا جاز لي أن أستخدم هذا المصطلح الغريب في هضاب التيجريه هذه، المعرّضة للرياح.

بالمقارنة مع حجم الكوارث التي تنهال منذ قرون على الحبشة، فإنّ عام 2004 هو إذن بمثابة عام "جيد". وفي مجمل البلد، وحدَهم 7.2 ملايين شخص، يدينون بالبقاء للمعونة الغذائيّة.

ومع ذلك، كما هو معروف، فإنّ الحبشة تقع في منطقة الرياح الموسميّة. وهذه تخضع لعدم انتظامٍ يذهب في تفاقم. والمجاعات تتقارب: وهي تضرب وفق إيقاعٍ يزداد تسارعاً.

عام 1973، قضى الملايين من البشر، فوق الهضاب المرتفعة، من الجوع والعطش. وفي عام 1974، بلغ عدد الضحايا أيضاً مئات الألوف. صحيح أنّ آليّة الإنذار المبكّر قد تحسّنت منذ ذلك الحين. فثمّة منظمة في شارع "لوزان"، في "جنيف"، لم تُعرَف كثيراً بعد، وذات مسؤوليّات ساحرة حقّاً، تستبق الأعاصير، وموجات الجفاف، والعواصف: إنّها "المنظمة المناخية العالميّة". وأقمارها الفضائيّة هي ملك الأمم المتحدة. واليوم، فإنّ الرد الميداني بات بفضلها، أكثر فعاليّة وسرعة، ممّا كان عليه عام 1973 وعام 1974.

وأيّاً كان الحال، ففي هذا الشهر، شباط من عام 2004، يواجه المراقب وضعاً عبثيّاً. ففي ثمانية عشر منطقة إنتاجيّة في البلد، كان نتاج الحبوب فائضاً. وفيها مئات الألوف من أطنان "التيف" والذرة والقمح، يضربها العفن، لافتقار المناطق إلى وسائل نقل وإلى بُنى طرقيّة. ومن ناحيةٍ أخرى، فإنّ بُنية الأسعار، التي تحدّدها مضاربة البائعين على نحوٍ جامح، هي فاسدة بالكليّة. وإنّ تكاليف إنتاج طنّ من الذرة، تبلغ وسطيّاً 70 دولاراً. والحال أنّ الفلاحين، في الوقت الذي أجوب فيه المنطقة، يتلقّون وسطيّاً 23 دولاراً للطنّ الواحد. وإنّ "برنامج الغذاء العالمي" (PAM) من جهته، يدفع 140 دولاراً في الحدّ الأقصى، وسطيّاً، لنقل طنّ الذرة، من مرفأ دجيبوتي حتى مكان توزيعه.

إنّ توفير الغذاء لسبعة ملايين ومئتي ألف إنسان، جائعين ومحرومين من جميع المصادر، طوال عام كامل، يحتاج بالضرورة إلى 900.000 طنّ من الحبوب.

في 15 آذار عام 2004، وجّه "برنامج الغذاء العالمي" نداءً دوليّاً ملحّاً، كي تخصّص الدول 100 مليون دولار من أجل شراء 300.000 طنّ من الذرة البيضاء والقمح والذرة، من أثيوبيا بالذات.

ظلّ هذا النداء، عمليّاً، دون جواب.[2] فظلّت عشرات الآلاف من أطنان الذرة البيضاء والذرة والقمح الأثيوبي، عرضةً للعفن في الهواء الطلق، على بعد بضع مئات من الكيلومترات، من القرى التي كان يحتضر فيها الجياع.

في أثيوبيا الشاسعة، من شمالها إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها، تواصل الملاريا والسلّ والحمى التيفيّة والحمّى الصفراء، فتكها المنتظم والرهيب بالسكان.

إنّ لوحات مكافحة الملاريا، توزّع بكميّات غير كافية، بيد "مسؤولي التنمية"، وهم موظّفو حكومة الإقليم المحليّون. أما السلّ، فهو ناجم عن النقص في التغذية. وانتشار التيفوئيد يجد تفسيره في تلوّث الأنهار والمستنقعات، حيث تستقي معاً الحيوانات والناس الذين ليست لديهم آبار.

ما من دارٍ في القرية إلا وأصابته عمليّاً، الملاريا. كانت "عَلَم تسيهايه" الاستثناء الوحيد. وقد قالت لي، وهي تحدّق فيّ بعينيها البرّاقتين: "لم أفقد أحداً... ولا طفلاً واحداً!" وكان الصغير بين يديها يتحرّك بصخب.

يبدأ الصيام الكبير في شهر شباط. إنّه يسبق الفصح الأرثوذكسي. هذا العيد الضخم يهيمن على مجموع دورة حياة المسيحيّين في أثيوبيا، حيث نصف السكان مسيحيّون أرثوذكس، والنصف الآخر

مسلمون. وخلال الصيام الكبير، يصوم الفلاحون. وهذا يشكّل مفارقةً حقيقيّة، في بلدٍ يعيش في نقصٍ غذائي مزمن. ومع ذلك، ففي المطاعم الصغيرة، في البلدات التي كنّا نتوقّف فيها، كانت تُقدَّم وجبتان على الدوام - الوجبة العاديّة (المكوّنة من شريحة خبز مع اللحم، أو الدجاج أو البيض)، والثانية، مترافقة بكتابة بارزة، تذكيراً بالواجب الأخلاقي الذي يرتبط بها، وهي المسمّاة وجبة الصيام. ويُستبعَد من وجبة الصيام كلّ منتوجٍ حيواني. وكان جميع الزبائن من سكّان "التيجريه"، الذين صادفناهم على مقاعد هذه المطاعم، يلتزمون عمليّاً بالوجبة الثانية.

تعيش الحبشة وفق التقويم القمري. ففي عام 2004، استطال الصيام الكبير خمسةً وخمسين يوماً، من 16 شباط إلى 14 نيسان.

طوال الصيام، هناك علب معدنيّة ذات ألوان زاهية - من صفراء وخضراء وحمراء - ترفع على قواعد، عند تقاطعات الدروب. وهي تهدف إلى التأثير في المسيحيّين، الذين يرهبهم مصيرهم الأبدي، كي تُجمَع فيها تبرّعات الصيام.

ما الذي تضعه "عَلَم تسيهايه" في هذه العلب؟ إنها ترفض الإجابة. ولكني أفهم من ابتسامتها الذكيّة، أنها لا تخضع لحبائل الكهنة.

26 شباط عام 2004: عند مدخل جامعة "أديس أبابا"، يخضع جميع الناس للتفتيش، بسبب "التهديد الإرهابي". اشتريت صحيفة "الهيرالد تيربيون". في صفحتها الأولى نبأ لفت انتباهي. بدءاً من هذا اليوم، سيقلّص "برنامج الغذاء العالمي" بنسبة 30٪، الحصص الغذائيّة، الموزّعة في مخيّمات اللاجئين، فوق أرض الحبشة. ففيها يقبع 126.000 لاجئ، قَدِموا من السودان وأريتريا والصومال. ولسوف تحتوي الوجبة الغذائيّة الجديدة، 1500 حُرَيرة لكلّ شخص، وهي وجبة دون الوجبة التي تتحدّث عنها الأمم المتحدة، في حال حدوث مجاعة.[3]

وإنّه لمن المسلّم به أنّ المعايير الجديدة المستخدَمة في المخيّمات، ستعمّم بالتأكيد على مجموع المعونة الغذائيّة، التي تلتزم بها الأمم المتحدة في أثيوبيا.

كيف لنا أن نفسّر هذا التقليص الصارم؟ فلقد وجّه "برنامج الغذاء العالمي" في شهر شباط من عام 2004، نداءً جديداً للمتبرّعين: فعاد هذا النداء بـ 37 مليون دولار فقط، في حين أنّ المطلوب كان 142 مليون دولار. وكان جواب الدول الغربيّة الرئيسيّة: يتوجّب علينا أن نعطي الأولويّة لسياسة الأمن لدينا ضدّ الإرهاب.

إنّ الهاجس الأمني، الذي نشأ بسبب "الحرب ضدّ الإرهاب"، يحرف معظم الدول الأعضاء في هيئة الأمم المتحدة، عن مكافحة البؤس. فالأموال تنضب. وهيئة الأمم المتحدة، بسبب النقص في التمويل، لم تعد تستطيع أن تُبعِد المجاعة عن أثيوبيا.

II- المجاعة الخضراء

إنّ معظم الدول الإقليميّة التسع في أثيوبيا، تكاد تكون متجانسةً عرقيّاً: فثمّة شعب خاص (باستثناء أقلّيّات زهيدة جدّاً) يقطن كلاً منها. والاستثناء الوحيد هو "دولة الأمم والأقوام والشعوب الجنوبيّة" (SNNPR)، وهي تضمّ خمسةً وأربعين عرقاً، تكاد الأعراق الخمسة الكبرى بينها تتساوى عدداً.

تقع هذه الدولة في أقصى الجنوب من الفيديراليّة، في الأراضي الخصبة ذات المناخ شبه المداري، بالقرب من الحدود الكينيّة والسودانيّة. تبلغ مساحتها أكثر من 100.000 كم^2 وتضمّ قرابة 14 مليون إنسان. عاصمتها هي "أواسا". وهي تجمّعٌ من التنك، تتوسّطه هنا وهناك بعض الأبنية البيتونيّة. ويرتفع بجوار بحيرةٍ قريبةٍ جدّاً، تحيط بها حقول القطن ذات الورود البيضاء، مسجد جديد، مطلي باللون الأخضر، تقدمة من وهابيّي العربيّة السعوديّة.

الجوّ ثقيل. والعاصفة تزمجر. ورائحة الذرة تملأ الأجواء. وطوال الطريق، ثمّة نساء يحاولن أن يبعن أكياس الفحم الخشبي.

إنّ تعدّد الزوجات منتشر في الجنوب.

في قلب دولة هذا الإقليم (SNNPR)، في محيط مدينة "اواسا" كلّه وبحيرتها، ينبسط بلد "السيداموس". إنّهم شعب من مزارعي القهوة، وهم يُقدَّرون، عدداً، بثلاثة ملايين ونصف. وبلدهم ذو خصب مدهش.

إنّ "بيورن لونكفيست" لوثري عنيد، متوسّط البنية، قويّها، ذو عينين فرحتين، زاخر بالدعابة، شعره خرنوبي، ونظره صافٍ، وهو يضجّ بالطاقة. إنّه واحد من هؤلاء الاسكندنافيّين، الذين وقفوا

حياتهم لمحاربة تدمير الأطفال. زوجته من تنزانيا، وهي طبيبة، وقد أنجبت له ثلاثة أولاد. وهو يقيم منذ ثلاثين سنة في أفريقيا، دون أن يكون غادرها. وهو اليوم المنسّق الوطني لليونيسف في أثيوبيا.

هو في الثالثة والخمسين من العمر، وقد اكتنز خبرةً هائلةً. إلاّ أنّه من العبث محاولة الدخول معه في حوار سياسي، إذ إنّ الأمر لا يعنيه. فإبان إحدى رحلتيّ على متن طائرة أثيوبيّة، سألته، والعاصفة تهدر حولنا: "كيف هي نظرتك إلى العالم؟ إلى أين تمضي أثيوبيا؟ من أين تستمدّ تصميمك؟". كانت الطائرة تهتزّ على نحوٍ مقلقٍ للغاية، ويتوجّب علي الاعتراف بأني كنت أموت من الخوف. ولكن "بيورن" كان هادئاً مثل صخرة. وكان من الواضح أنّه لم يكن ليستوعب أسئلتي، ولا الخوف الذي كان يستبدّ بي. أجابني: "دوافعي؟ لقد علّمني أهلي، منذ نعومة أظفاري، ما هو حقّ وما هو غير مقبول. [...] يجب احترام البشر!". بدا لي الجواب مقتضباً، ولكني لم ألحّ. فجأةً، حدّق "بيورن" في عيني وقال: "يجب أن نساعد هؤلاء الأطفال! أليس كذلك؟".

بالطبع، يا رفيقي "بيورن"!

إنّه "بيورن" نفسه الذي أنشأ في شهر حزيران عام 2003، مركز التغذية في "ييركا عَلَم"، في منطقة "دال"، في دولة "السيدامو". وفي أحد صباحات شباط الجميلة من عام 2004، وقفت أمام سياج مدخل هذا المركز. في العام السابق، كانت العشرات من هذه المراكز قد أُغلقت.

ثمّة نساء ورجال يجلسون القرفصاء، فوق التراب، وهي الجلسة التقليديّة لدى شعوب الجنوب. كانت الحرارة خانقةً. الكلاب تركض في ما بينهم. وكانت كلّ امرأةٍ وكلّ رجل يحمل بين ذراعيه طفلاً على شفا الموت. الذبابات تحاصر العيون الواسعة المتعَبَة، من هياكل الأطفال العظميّة، فيما أهلهم يطردونها بحركة بطيئة.

كانـت أيـادي وأرجـل الأطفـال أشـبه بـأعواد الثقـاب، ونظـراتهم ملتهبـة. بعضـهم تغطّـي جسـمَه نُتَـفٌ مـن قمـاش. وأحيانـاً، كانـت حشرجةٌ ترتفع من قلب هذه الكتل من القماش.

كانت أشجار العندم الهندي والأكاسيا والكينا تلقي بظلالها على الساحة الملتهبة. كان الدكتور "اندال نيكيسو" هو المسؤول عن هذا المركز. وكانت "ايتافيراهو اليمايبهول"، رئيسة الممرّضات، وهي امرأة سمراء وجميلة، تفتح الباب بين حين وآخر، وتدعو أسرةً جديدةً للدخول إلى إحدى الخيم الثلاث، التي زُوّدت بأسرّة ميدانيّة وبُسط.

"مرتا شلاّما" هنا، وهي في الثلاثين، ومعها ثلاثة أولاد يعانون على نحو خطير، من نقص في التغذية، وطفل سليم. وكانوا كلّهم مقرفصين حول سرير في الخيمة الأولى. أسماؤهم: "بيلينش كاييمو"، "كافيتا كاييمو"، "ماموش" و"مينكيشه". ما خلا الطفل السليم، كان ثلاثتهم يحصلون مرّتين في النهار، على كأس "الحليب الطبّي"، الذي كان "بيورن" وزملاؤه قد صمّموه. وهو يحتوي بروتينات وشحوم وفيتامينات (A,D,E,C,B1,B2) ونياسين، وكذلك أيضاً خليطاً من الأملاح المعدنية.

في أساس هذه الوصفة، كميّة من بودرة الحليب خالية الدسم. وكان هذا الغذاء الخاص بالحالات الطارئة جداً، ينقل في أكياس من الألمنيوم. وكان اسمه العلمي هو "حليب طبي (F-1000 B-O-NUTRISET) وكان يُمزَج بماءٍ مغلي، ويُؤخَذ بطريق الفم. وكان ليتران من المياه، ينتجان 2.4 ليتر من "الحليب الطبي". وكان يتوجّب استهلاك محتوى الكيس، بعد ثلاث ساعات من فتحه، في الحدّ الأقصى.

إنّ بعث الحياة في أطفال يموتون جوعاً، عمليّة معقّدة، وهي تحتاج بالضرورة إلى مراقبة طبّيّة دائمة. غالباً ما يصل الأطفال إلى

المركز، وأفواههم مغطّاة بالدمامل، أو هم مصابون بأمراض تنفسيّة خطيرة، أو غارقون في سُبات. وعندها يستحيل ابتلاع أيّ شيء بطريق الفم. فيُحقَنون قبل كلّ شيء بحُقَنٍ من الفيتامينات.

وسيترتّب على هؤلاء الأطفال، متى عادوا إلى الحياة، وخرجوا من المركز، أن يواصلوا، فترةً من الزمن، تناول الغذاء الطبي. ولكن ماذا بعد؟

إنّ منظمة "اليونيسف" تنصح، دائماً وفي كلّ مكان، بالإرضاع بالثدي. ولكن، في أراضي "السيدامو"، المنخفضة، المداريّة، فإنّ معظم النساء اللواتي يعانين من المجاعة، لهنّ أثداء جافّة كالحجارة. فهنّ يعانينَ على نحوٍ خطيرٍ ودائمٍ من نقص في التغذية، ولذلك فهنّ يعجزنَ عن توفير الحليب الضروري لإطعام أطفالهنّ.

ولقد عمد "بيورن" وزملاؤه، كي يساعدوا الممرّضين والممرّضات، والعمّال الصحيّين، والأطبّاء الحفاة (ومعظمهم من كوبا) في الحفاظ على حياة الأطفال، بعد أن يغادروا المركز، إلى وضع كتاب، عنوانه "معالجة سوء التغذية، القاسي والحادّ، موجز خاص باثيوبيا".

وهو يضم 160 صفحة، والعديد من الرسومات، والنصائح العمليّة لتخزين الأكياس، ومراقبة وزن الطفل، وتأمين النظافة المنزليّة، ومكافحة أهمّ الأمراض الناجمة عن النقص في التغذية، وعن الجفاف بفعل الإسهالات، ونقص السكر الخ... وقد تُرجِم هذا الكتاب إلى أهمّ اللغات المحليّة. ولكن انتشاره يصطدم بعقبةٍ ضخمةٍ: فإن قلّةً من الأمّهات يتقنّ القراءة!

تقيم العائلات في المركز مدّة ثمانية أيّامٍ، وسطيّاً. ومَن كان من الأطفال، يعاني من أمراض خطيرة، مثل السلّ وسواه... يقيمون فيه بالطبع فترةً أطول بكثير.

إنّ الخيم الثلاث توافق ثلاث مراحل من العلاج. فينتقل الأطفال

والكبار من خيمةٍ إلى أخرى، ويتلقّون فيها العلاجات التي تسمح لهم، في انتهاء الدورة، بأن يغادروا الأمكنة، وقد استعاد جهازَهم قوّته وانتظامه. وإنّ الغذاء الطبّي الذي طوّره "بيورن" وزملاؤه، يُحدِث معجزاتٍ حقيقيّةً: فلقد قُبِل في "ييرغا عَلَم" مئات الأطفال والكبار، ووحدَهم 10٪ منهم لم ينقذوا.

في الخيمة الثالثة، يقيم المرضى الذين يوشكون على المغادرة. وهم، إذ يغادرون المركز، ينالون أكياساً من بودرة الحليب الطبّي، التي ستمكّنهم من مواجهة الأسابيع القادمة. ثمّ إنّ الممرّضة المسؤولة تعطيهم النصائح الأخيرة.

إنّ الممرّضة "ايتافيراهو"، ذات البسمة الدافئة، تقاوم وباءً مستديماً: فالأمّهات كثيراً ما يَعُدنَ إلى المركز، مع الأطفال إيّاهم، وقد أُصيبوا مجدّداً بنقصٍ خطيرٍ في التغذية. فتسأل عندها الممرّضة إحداهنّ: "لماذا لم تعطِ الحليب في انتظام للأطفال، كما كنّا تحدّثنا؟" فتجيب المرأة في حرج: "لقد أعطيتُ زوجي الأكياس!". والمرأة تعرف أنّ الممرّضة ستوبّخها. ولذا فهي تردف في همس: "سيعطيني الله أولاداً آخرين... ولكن ليس لديّ سوى زوج واحد!"

مرّةً أخرى، هو "بيورن" الذي وجد المصطلح الملائم، لوصف الوضع العبثي الذي تعيشه "مرتا شلاّما" وأولادها، والآلاف من عائلات الفلاحين في "سيدامو". فلقد قال إنّهم كلّهم ضحايا "المجاعة الخضراء".

إنّ الطبيعة المحيطة بخيم مركز "ييرغا عَلَم"، طبيعة سخيّة. فورود زهرة الجهنميّة الحمراء والزرقاء، تتلألأ عبر الأغصان الكثيفة. وأوراق الأكاسيا هي أيضاً ذات اخضرار متوهّج. لا أثر للجفاف في كلّ مكان. والتربة حمراء وكثيفة. ثمّة أعشاب بريّة تداني الرجل في انتصابها. والقادوميّات تحفّها عليّقات مزهرة، ومزارع البرتقال والموز.

وعلى بعد بضع مئاتٍ من الأمتار من مدينة "ييرغا عَلَم"، يتدفّق نهر، تبلغ قوة اندفاع مياهه البنّيّة، ما يمكّنه من اقتلاع كتلٍ من الأرض في جوانبه، وأدغال بأكملها. والأسواق في المنطقة - وحتى أسواق "زيوي" و"هوسان"، على مسافة كبيرة إلى الشمال - مليئة بالانيام والسورغو والفاصولياء، والعدس والتين!

وفي ليلتنا الأولى إثر وصولنا، هطلت بعض الأمطار فوق الخيام.

إذن، لِـمَ المجاعة، والنقص في التغذية، المدمّر، ولمَ الموت، في "سيدامو"؟

يُختصر الجواب في كلمات قليلة: إنّه الانهيار الكارثي والمفاجئ، لأسعار القهوة في الأسواق العالمية!

إنّ منطقة "كافا"، المجاورة لمنطقة "سيدامو"، الواقعة ضمن الأراضي تحت المداريّة في الجنوب الغربي، هي مهد القهوة. وعلى كلّ حال، هي منطقة "كافا"، التي أعطت اسمَها لهذه الحبّات البنّيّة (ما عدا أثيوبيا، حيث تُسمّى القهوة "بونا"...)

إنّ القهوة تلعب، منذ أزمنةٍ سحيقة، دوراً رئيسيّاً في حياة الشعوب الحبشيّة: إنّ "الاحتفال بالقهوةً" يُمارَس في جميع البيوت تقريباً. إنّه، أوّلاً، طقس استقبال وضيافة. ثمّ إنّه يقوم بوظيفة تعزيمٍ وطردٍ للأرواح الشريرة: إنّ "الاحتفال بالقهوة" يحمي البيت من الأذى.

إنّ ربّة المنزل تطحن الحبّات، ثمّ هي تشويها فوق قطعةٍ معدنيّةٍ صغيرةٍ، تكون من الفضّة في البيوت الثريّة، ومن الحديد لدى الفقراء. وهو يقوم على منصَب، فوق منقلٍ متّقدٍ. ويُخلط البخور بالفحم، فيمتلئ البيت برائحةٍ زكيّة.

ثم تُصَب القهوة في إبريقٍ من الطين المشوي. وتُكرّر العملية ثلاث مرّات. وأخيراً تُقدّم القهوة في فناجين صغيرة، أولاها للضيف الأجنبي.

يجري هذا الطقس في صمتٍ وأبّهة، وفقَ حركاتٍ تتّسم بأناقةٍ جليّةٍ ورقيقةٍ. ويتوجّب على الضيف أن يشرب ثلاثة فناجين متتالية. ذلك هو العرف. وإنّ خرق هذا العرف، فاللعنات ستنصبّ على المدعوّ وعائلته، وكذلك أيضاً على بيت المضيف.

إنّ القهوة هي أهمّ مواد التصدير لدى الأحباش. وهو المصدر الوحيد، مع جلود الحيوانات وبعض الحمضيّات، الذي يمكّن الحبشة من التطلّع إلى الحصول على بعض القطع النادر. ولذلك ألِف الناس هنا أن يدعوه "الذهب البنّي". والحال أنّ وضع القهوة في الأسواق العالميّة، بات منذ عام 2000، وضعاً كارثيّاً. فإنّ أسعار الشراء من المُنتِج، انهارت انهياراً كلّيّاً. وفي عام 2004، كانت الأسعار قد انهارت انهياراً لم تعرفه منذ مائة عام.

وإذا ما عرفنا أنّ أكثر من 95٪ من القهوة في الحبشة، هو من نتاج الفلاحين الصغار، العاملين مع أسرهم، ندرك النتائج.

إنّ "منظمة اوكسفورد لمكافحة الجوع" (OXFAM)، قدّرت أن سعر شراء كيلو القهوة، قد هبط في ثلاث سنوات (من عام 2000 إلى عام 2003)، من ثلاثة دولارات إلى 86 سنتاً.[4] وإنّ وزير الماليّة في أديس أبابا، يقدّر أنّ البلد، منذ ذلك الانهيار، قد خسر 830 مليون دولار في عمليّات التصدير. ولذلك، ففي عام 2004، تخلّى قسمٌ كبيرٌ من الفلاحين المرتبطين تقليديّاً بنتاج القهوة، عن قطافها، إذ بات سعر البيع دون سعر الإنتاج بما لا يُقاس.

إليكم بعض الأرقام: في عام 1990، كان مجمل البلدان المنتجة للقهوة، قد صدّر من الحبوب بما يُقارب 11 مليار دولار. وفي العام نفسه، كان مستهلكو القهوة في العالم كلّه، قد أنفقوا قرابة 30 مليار دولار في القهوة. وفي عام 2004، كانت عائدات تصدير الفلاحين، العاملين في زراعة القهوة، قد

هبطت إلى 5.5 مليار دولار. ولكن، في نهاية المطاف، كان المستهلكون قد أنفقوا 70 مليار دولار في استهلاكهم...

هناك عبر العالم أكثر من 25 مليون مُنتِجٍ للقهوة. وإنّ غالبيّتهم من المنتجين الصغار أو المتوسّطين، وهم يعملون في مزارع عائليّة صغيرة، تتراوح مساحة كلّ منها، ما بين هكتار واحد وخمس هكتارات. وإن 70٪ من منتوج القهوة العالمي، يأتي من مزارع تقلّ مساحتها عن عشرة هكتارات. وفي عام 2003، جميع هؤلاء الفلاحين، أنتجوا بمجملهم قرابة 119 مليون كيس، فيما الكيس الواحد يحتوي 60 كغ من الحَبّ.

كان سوق القهوة العالمي يتميّز دائماً بتباينات كبيرة في سعر الشراء من المنتج المحلي. ولكن الكوارث، كالتي يتحمّلها حالياً منتجو القهوة، هي لحسن الحظ، نادرةٌ جدّاً: وكان سعر القهوة الوسطي، خلال عقد 1980-1990، بحسب "منظمة القهوة الدولية" (ICO)، قرابة 1.2 دولار لنصف الكيلو من الحَبّ المشترى من المنتج المحلي. ولقد هبط اليوم إلى أقلّ من 50 سنتاً.

إنّ 94٪ من القهوة يغادر البلاد المنتجة، في شكل "حبّات خضراء"، أي حبّات لم تُشوَ بعد، إذ إنّ عمليّة الشواء تجري خارج البلد المنتج. والسوق العالميّة يسيطر عليها قبضةٌ من الشركات عابرة القارّات، تلك التي يسمّيها "نعوم تشومسكي" "الأشخاص العمالقة الخالدين". وفي الواقع، فهي تقرّر بقاء أو موت عشرات الألوف من العائلات الفلاحيّة، المنتشرة في سبعين بلداً، من البرازيل إلى فييتنام، ومن هندوراس إلى الحبشة. وإنّ أوّل هؤلاء "الأشخاص العمالقة الخالدين"، هي الشركة الزراعيّة - الغذائيّة، "نستله".

إنّ عدد سادة سوق القهوة العالميّة، لا يني يتناقص. فإنّ حرباً طاحنةً تقوم بينهم، حيث يبتلع الكبار الصغار. وفي عام 2004، كان السادة الخمسة الأقوى بينهم، يحملون أسماء: "نستله"، "سارا لي"،

"بركتر اند غمبل"، "تشيبو" و"كرافت". (وهي ملك "فيليب موريس"). مجموعهم يشتري وسطيّاً كلّ عام، أكثر من 45٪ من منتوج القهوة الخام العالمي، بكلّ مشتقّاته. وهم فضلاً عن ذلك، يسيطرون سيطرةً كاملةً تقريباً، على تحميص القهوة، وتحويلها وتسويقها.

في المتاجر الأوروبيّة الكبرى، يواجه المستهلك عروضاً متنوّعة جدّاً من أنواع القهوة القابلة للذوبان، والقهوة المطحونة أو قهوة الحَبّ. ولكن أبرز هذه المتاجر الأوروبيّة، تمتلكها في حقيقة الأمر، إحدى هذه الشركات الخمس عابرة القارّات. فإنّ "ماكسويل وجيكوبس"، يعودان لكرافت (KRAFT). و"نيسكافيه" و"نيسبريسو"، تعودان لنستله. وفيما تملك "بروكتر اند غمبل"، شركة "فولغرس"، فإنّ "سارا لي" تملك "دوي اكبرتس". أمّا الشركة العملاقة "تشيبو"، فإنّها تسوّق ماركات "تشيبو" و"ايدوشوا".

وفيما يفتك الجوع والنقص في التغذية والحليب، والاميبا، والسلّ، بأطفال "مارتا شلاّما"، فإنّ أرقام المبيعات والأرباح الصافية لسادة القهوة، تنفجر. من ذلك، أنّ أرباح "سارا لي" قد ازدادت بنسبة 17٪ عام 2000، (وهو العام الذي أخذت فيه أسعار الشراء من المنتجين، تنهار). وارتفعت أرباح نستله بنسبة 26٪. أما شركة "تشيبو"، فقد كان عام 2000 بالنسبة إليها، أعظمها ربحاً في تاريخها كلّه: إذ ارتفعت أرباحها الصافية بنسبة 47٪.

طوال أكثر من ثلاثين عاماً، خضعت سوق القهوة لتنظيم أجرته "منظمة سوق القهوة العالميّة" (International Coffee Agreement). بفضلها، كانت أهمّ الدول المنتجة للقهوة، وعمالقة السوق الزراعيّة والغذائيّة، تضمن للفلاحين أسعاراً ثابتة نسبيّاً. وفضلاً عن مناورات المضاربات في شيكاغو، والتقلّبات المناخيّة (بحيث يكون الحصاد وفيراً في تلك القارّة، وفي أحد الأعوام، وكارثيّاً في العام التالي)، فإنّ الكوارث

الناجمة عن بعض أمراض الأدغال، وأسباباً أخرى كثيرة، كانت مسؤولةً عن التقلّبات الدائمة في الأسعار. ثمّة حل وحيد: تنظيم هذه التقلّبات والعوامل، تنظيماً اصطناعيّاً. ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟

كانت "منظمة سوق القهوة العالمية" (ICA)، تفرض حصصاً محدّدةً من التصدير على البلدان المنتجة. فاستوحت، في سبيل ذلك، من الطريقة التي حدّدتها "منظمة البلدان المصدرة للنفط" (OPEP). وكانت هذه الحصص المحدّدة للتصدير، تضمن تقلّباً محدوداً في الأسعار، يتراوح بين 1.2 و2.4 دولار، لنصف كيلو القهوة الخام.

ولكن هذه المنظمة (ICA)، قُضِيَ عليها عام 1989، إثر تدخّل الشركات الدوليّة العملاقة المتاجرة بالقهوة. ما كانت دوافعها؟ إنّ لدى "منظمة أوكسفورد لمكافحة المجاعة" (OXFAM)، الجواب.

إنّ الذين ينتجون القهوة هم فلاّحون فقراء على العموم، ولكنّهم يسكنون بلداناً لها أهمّيّةٌ جيوستراتيجيةٌ هائلة. فطالما كان المجتمع الدولي يخضع لقطبين اثنين، أي طالما كانت المواجهة على الأرض كلّها، بين نظامَين اقتصاديَّين وسياسيَّين متعارضَين، كان يتوجّب، بالغاً ما بلغ الثمن، تجنّب أن يُؤخَذَ ملايين عائلات الفلاّحين بإغواء التصويت، أو الانتماء للحزب الشيوعي. فقد كان سادة الأرض يعيشون ما يشبه الكابوس، من تهديد دائم في تحوّل البرازيل وكولومبيا والسلفادور ورواندا، إلى الكتلة السوفييتيّة. وكان التثبيت المصطنع لأسعار الشراء من المنتج، عبر آليّات "منظّمة سوق القهوة العالميّة" (ICA) المعقّدة، تهدف إلى استبعاد هذا التهديد. ولكن الحدود الغربيّة للإمبراطوريّة السوفييتيّة انهارت عام 1989. وسرعان ما تفكّك الاتحاد السوفييتي نفسه. في هذه الظروف، لم يعد "لمنظمة سوق القهوة العالمية" (ICA) أي فائدة. وهكذا فقد خضع سوق القهوة العالميّة، خضوعاً مطلقاً لحقّ الأقوى، أي حقّ أقوى الشركات الدوليّة الخمس!

إنّ "أواسا" هي عاصمة دولة "السيدامو". في هذه المدينة، كان الفلاحون يبيعون الكيس الذي يحتوي 60 كيلوغراماً من حَبّ القهوة العربيّة، بقيمة 670 "بير" (العملة المحليّة)، عام 2000. وفي عام 2004 انهار هذا المبلغ إلى 150 "بيرا".

في هذه المنطقة، كان 2.8 مليون عائلة يعيشون من بيع القهوة حصراً. وكانت دولة "سيدامو" مزدهرةً حتى عام 2000: فلا الجفاف القاتل عام 1973، ولا جفاف عام 1984، أثّرا فيها. ولكن عائدات القهوة اليوم هي دون نفقات الإنتاج بفارقٍ كبير. فإنّ الحصاد باليد حبّةً فحبّةً، لحبّات القمح - التي تنمو بإيقاعها الطبيعي - يقتضي مهارةً وطاقةً وخبرةً هائلة. ومع ذلك، فإنّ هذا العمل لم يعد اليوم مربحاً.

إنّ عائلات الفلاحين، بعد إذ باتت محرومةً من كلّ ربح، لم يعد بوسعها أن تشتري من السوق المحليّة ما تحتاج إليه لبقائها (زيت القلي، الأدوية، الملح، الثياب، الخ...)

وإنّ نتائج هذه الحال، على صعيد تدريس الأولاد، كما نرى، كارثيّة، إذا ما علمنا أنّ القسط المدرسي لكلّ طفلٍ، طوال نصف السنة، يكلّف العائلة 20 "بيرا"، ذلك بأنّ الكتب والثياب المدرسيّة ليست مجانيّة. وهكذا فالمدارس اليوم أبنية تفرغ شيئاً فشيئاً.

من الفلاحين مَن يملكون بيوتاً لهم، فهؤلاء يبيعونها ويرحلون إلى المدينة. ومع ذلك، فهم لن يجدوا فيها في واقع الأمر، عملاً نظاميّاً، وأجراً كريماً. وعندها ستكون الدعارة والتسوّل أهمّ وسائل الدخل لهذه العائلات الفلاحيّة المنكوبة. وفي حالاتٍ كثيرةٍ، سيقضي عليها البؤس على نحو نهائي.

إنّ "هانس يوئر" (Hans JOEHR) هو مدير قسم "الزراعة" لدى "نستله". وهو يدرك أكثر من الكثيرين، العنف الذي يحلّ بمزارعي

القهـوة. وهـو يشـعر، علـى كـلّ حـال، بالأسـف، نتيجـةً لـذلك. ولكنّـه ينسبه إلى "قوى السوق العالميّة".

وماذا عن المضاربات التي تجريها نستله (وسائر الجمعيّات الدوليّـة المتخصّصة في الزراعة الغذائيّة)، حول أسعار القهوة العربيّـة وسـواها؟ إنّ "يوئر" لم يبلغه شيء قطّ عن هذه المضاربات. أجـل، هـو يلـحّ: إنهـا لَقِـوى موضـوعيّة، تلـك الـتي تحـرّك الأسـواق، في غفلـةٍ مـن الجميـع. فليس للبشر يدٌ فيها البتّة.

ولكـن "هـانس يـوئر" يتعـاطف مـع الضـحايا ويريـد مسـاعدتهم. واقتراحه أكثر من واضح: ثمّة 25 مليون عائلة منتجة للقهـوة، تعيش اليوم في العالم، فلا بدّ لعشرة ملايين منها على الأقلّ، "أن يتقبّلوا التلاشي". إنّه بذلك، كما فهمنا، "يحسّن" السوق!

إنّ "يوئر" ينصح الرجال والنساء الفائضين "بالتلاشي".

أجل التلاشي!

III- المقاومة

ما من أحد يملك أرضه في أثيوبيا. فليس لأحد فيها منذ القديم، سوى حقّ الانتفاع. فإنّ الرهبان، في قلاعهم فوق قمم الجبال، والكهنة العلمانيّين - وهم عموماً متزوّجون، يحملون عصا طويلة، يعلوها صليبٌ من نحاس، وتغطي رأسَهم عصابةٌ بيضاء - لا يخرجون على هذه القاعدة. فهم يفلحون أرضهم تحت شمس حارقة، وفي وجه ريح أبداً عاصفة، مثلهم مثل أبناء رعاياهم.

في بعضٍ من مناطق البلد، لا سيما في "وولو" و"التيجريه"، تقوم الحكومة بخطوات حذرة بشأن خصخصة الأراضي الزراعيّة، وهي تنظّم "تنسيب" الأراضي، وبعبارة ثانية، تسجيل أسماء المستفيدين، تحت ضغط البنك الدولي.

إنّ رفض الحكومة لإنشاء الملكيّة الخاصّة، يمليه التاريخ. فمنذ أقدم العصور، وحتى الانقلاب الذي أطاح بآخر إمبراطور، في أحد صباحات أيلول عام 1974، عاشت الحبشة تحت نظام إقطاعي متوحّش. فإنّ الارستقراطيّة، وهي من أصل أمهري صرف، كانت، بالتنسيق مع الأديرة والأساقفة، المالكَ شبه الوحيد للأرض الزراعية، وللغابات والمياه والمراعي.

كان الأمراء، والسادة، ورؤساء الأديرة الأمهريّون، يقتطعون من حصاد الفلاحين، وفقاً للمناطق، حتى ثلثي الحبوب، من أجل تجارتهم واستعمالهم الشخصي. كانت هذه الاقتطاعات تدمّر المنتجين، مع أنها كانت توفّر للطبقات الإقطاعيّة، وسائل تطوير ثقافة رائعة، في الفنون التشكيليّة والهندسيّة والأدبيّة. وتحت الحكم الإمبراطوريّ، كان جميع الفلاحين عمليّاً بمثابة مزارعين أقنان.

إنّ ذكريات الإقطاعيّة الفلاحيّة واقتطاعاتها الظالمة، تسكن حتى الأعماق الذاكرة الجماعيّة. وإنّ ثورة عام 1974، التي استولت عليها بسرعة، قبضةٌ من العسكريّين، يقودهم العقيد "هايله مريم منغستو"، ويتباهون بالماركسيّة، أمّمت جميع الأراضي. ولكن الجبهة الشعبيّة لتحرير التيجريه، التي قاتلت، في أيار عام 1991، آخر ما تبقّى من كتائب وفيّة "لمنغستو"، أبقت على الملكيّة الجماعيّة للأرض.

إنّ "بيلاي اجيغو" (Belay EJIGU) هو وزير الزراعة. وهو رجل سمين، مرح وعالي الصوت. فمنذ أكثر من ساعة، يدور بيننا نقاش هادئ حول فنجان القهوة التقليدي، بشأن العديد من القضايا التي يواجهها الإنتاج الزراعي في أثيوبيا. يرافقني اثنان من معاونيّ، متخصّصان في المسألة الزراعيّة. عندما أثرتُ مسألة الملكيّة الخاصّة للأرض، هبّ الوزير من مقعده، وضرب الطاولة الواطئة فجأةً، وهو يصرخ: "أبداً! أتسمع؟ لن نسلّم الأرض أبداً للمضاربين!" وكانت حجّة الوزير صحيحةً: ففي نظر الفلاحين العائشين أبداً على حافّة الجوع، الإغراء شديد من أجل بيع أرضهم، إلى أوّل شارٍ، قادمٍ من الصومال أو من اليمن!...

إنّ 82٪ من الأثيوبيّين يعيشون في أقصى دركات الفقر، و50٪ من الأطفال دون الخامسة، يعانون من نقص في الوزن غير طبيعي (حسب معايير اليونيسيف). وفي عام 2006، كانت 59٪ من وفيّات الأطفال دون الخامسة، تعود إلى النقص في التغذية. وما بين عام 1997 وعام 2000، ارتفعت وفيّات الأطفال بنسبة 25٪.

إنّ الأثيوبيّين يستهلكون من الحريرات، أدنى قدرٍ مسجّل في القارّة الأفريقيّة كلّها: هي 1750 حُرَيرة وسطيّاً، للفرد البالغ، وفي اليوم الواحد. أما أشكال النقص في اليود والحديد والفيتامين A، فشديدة.

إنّ 69٪ من الأثيوبيّين لا يحصلون البتّة على ماءٍ نظيفٍ للشرب.

وفي الريف ترتفع النسبة إلى 76٪. رأيت أطفال "السيدامو"، يشربون دون حذرٍ من مياه النهر البنّيّة والراكدة، حيث كانت ترتع الأبقار، وحيث كان الخنازير السود يبوّلون. وفي هضاب الوسط والشمال، فإنّ ملايين النساء والصبايا يقطعنَ كلّ يومٍ عشر كيلومترات أو أكثر، كي يبلغنَ ساقيةً أو بئراً، ليحملنَ إلى البيت السطول الثقيلة المليئة بالماء.

إنّ مليوني أثيوبي مصابون بفيروس الايدز، وهذا، قياساً للسكان، أحد أعلى النسب في العالم، بعد الهند وجنوب أفريقيا.

إنّ أمد الحياة، سواء لدى النساء والرجال، هو 45.7 سنة. وإن 2.9٪ فقط من السكان يبلغون 65 عاماً.

إنّ 40.3٪ من الأثيوبيّين الذين يتجاوزون 15 عاماً، هم أمّيّون. وهناك 12٪ فقط من السكان يحصلون على الرعاية الطبيّة.

إنّ النساء والفتيات، وهنّ في الغالب ذوات جمال ساحر، يعانين من تمييزٍ جنسي واجتماعي، قاسٍ. ففي معظم الاثنيات عمليّاً، يتمّ زواج الفتيات في سنّ مبكّرة جداً. وكثيراً ما يحدث الجماع الجنسي الأول، منذ الطمث الأوّل. وتصبح الفتاة الصغيرة أمّاً منذ بلوغها سنّ 12، 14، أو 15 سنة. وهي، لدى بلوغها الخامسة والعشرين، تكون قد وضعت ما بين 8 إلى 10 أولاد...

إنّ المرأة الأثيوبيّة تخضع لاستغلال ثلاثي: في البيت، في الحقول، وجنسيّاً. إنّ صبيّةً في الخامسة عشرة، وقد أُكرهت على الزواج، لن تحصل بالطبع البتّة، على تنشئةٍ مدرسيّة تامّة. ولن تعيش يوماً مراهقةً تمكّنها من عقد صداقاتٍ حرّة، ومن اكتشاف العالم، ومن بناء شخصيّة لها مستقلّة. فهي، من كوخ والدها، حيث تنجز مع أمّها وأخواتها، أقسى الأعمال المنزليّة، ستنتقل مباشرةً إلى الأعمال الشاقّة، التي يفرضها الزوج.

أنجزت اليونيسيف تحقيقاً ميدانيّاً في مناطق البلد الشرقيّة، حيث

استقرّت القبائل ذات المنشأ الصومالي: فهنا التعقيم (infibulation) يشوّه أكثر من 70٪ من الفتيات، وفي المناطق الأخرى سيطر البتر (exeision).

إنّ أكبر وأقدم مستشفى للنساء والأطفال، المعانين من الناسور، قد أُنشئ، منذ أكثر من ثلاثين عاماً، في أديس أبابا، على يد طبيبة أثيوبيّة، بمساعدة نساء بريطانيّات. وهو اليوم مستشفى نموذجي بالنسبة إلى القارّة كلّها، حيث تُعَدّ بالملايين النساء اللواتي يعانينَ من هذه الإصابة.

إنّ مرض الناسور شرّ مذلّ ومؤلم جداً، بسبب ضيق الرحم لدى فتاة حامل في سنّ 12 أو 14، فإنّ الولادة تُحدث تمزّقاً في اللحم بين الشرج والرحم. فلا يعود التحكم ممكناً، لا بإخراج البراز ولا التبوّل.

إنّ النتائج الكارثيّة للتمييز حيال المرأة في أثيوبيا، أيّة كانت ثقافتها، جليّة في شوارع المدن الكبرى: ففي العاصمة وحدها 60.000 طفل مشرّد، حسب اليونيسيف. وهي تقدّر أنّ عدد القاصرين الهائمين في البلد كلّه، يفوق 300.000. فالتسوّل والإيدز، وأشكال لا تحصى من الاستغلال، والموت المبكّر، كلّ ذلك يتربّص بهم.

من كلّ حدبٍ، يتدفّق البائسون نحو العاصمة. إنّ أديس أبابا هي بؤرة لصوصٍ حقيقيّة، وهي مرآة مذهلة لبلدٍ برمّته. ليلاً ونهاراً، دون ملل، فإنّ قوافل البائسين تنحدر إلى أعماق البركان. ومن بعيد، تحمل الشاحنات الشاحنات إليها عائلاتٍ بائسةً. وما من أحد يعرف، حتى على وجه التقريب، عدد سكان العاصمة. فقد كان محافظها يتحدّث في شهر آذار عام 2004، عن عدد (محتمل) هو خمسة ملايين.

في عام 1892، أقام الإمبراطور مينيليك الثاني، في قاع فوّهة بركان منطفئ، في قرية أديس أبابا. حتى ذلك الحين، كانت البلاطات الإمبراطوريةّ متجوّلةً (ولكن أيضاً البلاطات الملكيّة الخاصّة بمختلف

الاثنيات المتجمّعة في الإمبراطوريّة). وكان لهذا التجوّل الدائم، أسباب كثيرة، سياسيّة وعسكريّة واقتصاديّة. وكان له أيضاً سببٌ قاهر بامتياز، وهو أنّ كلّ بلاط كان مؤلّفاً من آلاف النبلاء والأهل والجنود والموظّفين، فكان الخشب الضروري للطبخ والتدفئة ينفد بسرعة. فيضطرّون مرة أخرى للرحيل.

وكان الإمبراطور مينيليك الثاني قد اكتشف، بفضل مستشاريه الأجانب، في استراليا، شجرةً ذات نموّ خارق بسرعته: إنّها شجرة الكينا. فجلب بذارها. وبذلك وجد حلاً لمشكلة التشجير السريع، وتجديد مخزون الخشب الضروري للبناء والطبخ. وهكذا أصبحت أديس أبابا العاصمة الدائمة.

اليوم، باتت أديس أبابا الملجأ الأخير للمحتضرين. ففيها أوقيانس من التنك الصدئ، وسلسلة لا تنتهي من بيوت التنك، تملأ قاع البركان. ثمّة قطعان من الزربان الجائعة، تهيم في الأراضي المشاع، بين أكواخ التنك والأطفال، الضاحكين والصاخبين.

فيها عدد لا يحصى من المتسوّلين، الذين لا يحصلون على أيّ عونٍ اجتماعي. ثمّة نساء نحيلات، يحملنَ أطفالاً يعانون من التجفّف، ورجال في أسمال ووجوه شوهاء، يملأون أيضاً أرصفة العاصمة. إنهم يندفعون نحو السيّارات الأجنبيّة، إبان الضوء الأحمر. وإنّ هذا الجمهور الثرثار والملوّن، يجتاح الساحات الواسعة، المليئة بأشجار الكينا التي تحيط بالكاتدرائيّات الثلاث الكبيرة، والأدراج التي تقود إليها، والشوارع المفضية إليها.

ليس بمقدور المحافظة ولا الحكومة المركزيّة، أن تفعلا أيّ شيء. وحدَها حسنة العابر تلطّف للحظة احتضار الشحاذ.

ثمّة ينابيع من مياه حارّة، تتدفّق في وسط العاصمة الأثيوبيّة، بسبب موقعها. وقد التقطت هذه المياه في قساطل تقودها إلى مجمّع

حمامات عامّة. باستثناء باعة "المركاتو" (وهو سوق ضخم يقبع في قمّة التلة، وقد احتفظ باسمه الإيطالي)، وباستثناء الضباط الكبار والموظفين، والدبلوماسيّين الأجانب، فإنّ سكان أديس أبابا كلّهم يرتدون ألبسةً رثّة، ويمشون حفاةً أو ينتعلون صنادل مهترئة. وكثيرون منهم يرتدون الأسمال. وهناك مسنّون يعانون من نقص في التغذية، وهم في الغالب معاقون أو عميان، يجرّون ذواتهم مستعينين بعصا. وإنّ عبور وسيلة نقل عامّ، يشبه المعجزة، إذ يتمّ الهجوم الفوري على الباص المهتزّ، من قبل الحشود التي كانت تنتظر منذ ساعات تحت المطر.

فوق قمّة الجبال، التي تحيط بفوهة البركان، على ارتفاع أكثر من 3000 متر، ترتفع أشجار الكينا. خلال موسم الشتاء، تتّسم منطقة الهضاب الوسطى بجمال خارق: فالغيوم الكثيفة تحوم فوق التلال، في تناقضٍ صارخٍ مع ألوان الورود الزاهية، والأرض الذهبيّة والكثيفة التي يتصاعد منها بخارٌ رقيق. والهواء محمّل بشتى أنواع العبق. وما إن يرعد الرعد، وتملأ البروق السماء، منذرةً بهطلٍ كثيفٍ جديدٍ، حتى يسارع المارّة للاختباء، وهم يضحكون، خلف ملاجئ بائسة، هي في الغالب إحدى الحانات/ الماخورات الكثيرة، التي تقوم على جوانب الطرقات.

حوالي السابعة مساء، يأخذ النهار بالتلاشي، وشيئاً فشيئاً يهبط الشفق، ويُقرَع جرسٌ في باحة كنيسة القديس جاورجيوس. فيتحرّك جمهور المتسوّلين، ويتمايل مثل ماء هادئة أزعجتها الرياح. وينهض الشحاذون بسرعة مع أطفالهم، ويتوجّهون عبر الدرج الضخم، نحو البوّابة. فينسلّون في صمتٍ بمحاذاة الأعمدة، تحت القبب العالية. ويرتفع همسٌ، هو همس الصلاة، من هذه الآلاف المؤلّفة من الحناجر. إنّ الأثيوبيين، بالغاً ما بلغ فقرهم وبؤسهم، هم أناس

يتحلّـون بكرامـةٍ عظيمـةٍ، وبخفـرٍ ورصـانةٍ مدهشَـين. وبعـد انتـهاء الصلاة - وهي تدوم ساعتين وثلاثـاً حسب الأمكنـة - يقـف صفّ مـن الكهنة أمام الهيكل الرئيسي.

إنهم مسؤولون مسنّون، ذَوو لحى رقيقة، يرتدون ثياباً طويلةً من الحرير الأسود، وينتعلون أحذيةً مزيّنةً بتطريزٍ مذهّب. ويُلحَظ أيضاً بينهم شمامسة شبّان، لهم نظر ثاقب. ويُقرَع الجرس من جديد، فيَرفَع الكهنة، على مستوى النظر، الصليب القبطيّ المزدوج. ويمدّ الكهنة أيديهم إلى مستوى صدورهم، ويقدّمون الصليب للجمهور، بحركةٍ في غاية النبل. ما من كلمة. نظراتهم تَسبَح فوق الجمهور، في عتمة الكنيسة. بعض الشموع تلقي أنواراً متأرجحةً. يمرّ الجمهور، فيقبّل كلّ واحد الصليب. ثمّ، إذ يبلغ آخر كاهن، يضع في صينيّة فضيّة، القسم الأكبر ممّا يكون قد جمعه تسوّلاً طوال النهار.

الليل، الآن، يجتاح الكنيسة. ثمّة شموع أخيرة تحترق. آخر من تبقّى من المتسوّلين، وأكبرهم سنّاً، ينسحبون. يأتي الحراس، ويضربون أرض الرخام بعصيّهم ذات المسامير، كي يسرّعوا في مغادرة المتأخّرين. وتغلق بوابة الكنيسة الثقيلة، محدثةً صوتاً حادّاً. ثم هي تُقفَل طوال الليل. في الخارج، المطر يسقط مدراراً. المسنّون والأيتام، وعائلات برمّتها يستعدّون للنوم، في الوحل، في الضباب، في البرد. ويتجمّع أعداد من الأطفال البائسين، بأسمالهم الرثّة، بجوار حائط السور - ثم يهدؤون شيئاً فشيئاً. وبعضهم سيموتون في هذه الليلة أيضاً.

إنّ الجفاف وسائر الكوارث المناخيّة، وانجراف الأراضي وإنهاكها، كلّ ذلك ظواهر طبيعيّة، أما المجاعات فلا! ولِمَ المجاعات؟ إنّ الزراعة في أثيوبيا تُعتبَر من أدناها إنتاجاً في العالم. لقد جبتُ طوال أسابيع دروب الشمال والجنوب. وخلال سبع ساعاتٍ متواصلة، بين أديس أبابا و"أواسا"، لم أرَ جرّاراً واحداً. إنّ التقنيّة الحديثة تكاد تكون غائبةً

بالكليّة من الهضاب - وحتى من الأراضي المنخفضة. وكثيراً ما يحمل المحراث سكّةٌ خشبيةٌ. وهو، إذ تجرّه بقرتان متعبتان يستأجرهما الفلاحون من بعضهم، يُضطرّ لأن يمرّ خمسَ مرّات أو ستّاً، فوق الأرض الحجريّة، كي يستطيع أن يقلبها ويجعلها قابلةً للبذار.

نادرةٌ هي الأسمدة. ويتوجّب شراؤها من الدولة، بسعر السوق العالميّة. قلّة من الفلاحين يملكون الأموال الضروريّة. والحال أنّ الأرض تزداد افتقاراً بسرعة. وكلّ موجة جفاف تدمّر ما تبقّى في التربة من قشرة رقيقة...

يشرح لي "جان كلود اسميو"، وهو الرئيس النشيط لبعثة الاتحاد الأوروبي في أديس أبابا، أنّ القسم الأعظم من العائلات، وهي الضحايا المتبقّية من مجاعة عام 1984 الفظيعة، لم يستطيعوا حتى اليوم استعادة مستواهم (الاجتماعي والاقتصادي)، والقدرات الإنتاجيّة، التي كانت لهم قبل الكارثة.

باستثناء بضع طرقات عسكريّة في التيجريه، وطريق أديس أبابا المعبّد، فإنّ البنى الطرقيّة التحتيّة شبه معدومة. والقرى، وسطيّاً على الصعيد الوطني، تقع تقريباً على بعد عشرةٍ كيلومترات من أقرب طريق يمكن استخدامه. وفي العديد من المناطق، فإنّ الوصول إلى أقرب سوق، هو بمثابة إنجاز.

إنّ أثيوبيا هي مستودع مياه أفريقيا الشرقية، فضلاً عن النيل الأزرق. فهناك 12 نهراً ضخماً ينبعون منها. في عام 2003، خطّط "بيلاي ايجيغو" (Belay EJIGU) ومهندسوه الزراعيّون، لإرواء 4.000 هكتار من الأراضي. فلم يستطيعوا أن يرووا سوى الربع، أي ألف هكتار. لم؟ بسبب النقص في التمويل. ولكن أيضاً، وهذا أمر صحيح، لأنّ الفلاحين ينظرون بريبةٍ إلى مخطّطات المياه، إلى الخزانات وإلى

القنوات، لأنّ ذبابة التسيه تتوقّف عندها. ولقد قال لي فلاح من مدينة "اديغرات" (Addigrat): "إنّ القنوات تجلب الموت".

باختصار، إنّ الزراعة المعيشيّة في أثيوبيا، لا تضمن إلاّ حياةً هشّةً. وتبعاً للأرقام التي قدّمها لي عام 2006، "جان كلود ايسميو"، الذي يقود، منذ ثلاثين عاماً، في تصميمٍ وفهمٍ، وفود الاتحاد الأوروبي في أفريقيا، فإنّ قرابة 53٪ من المزارع الأثيوبيّة، ليست في الحقيقة، قابلةً للاستمرار.

والحال، أنّ المجتمع الأثيوبي لا يزال متماسكاً، على الرغم من مجموع هذه الشدائد. فإنّ التصميم وإرادة البقاء والكرامة، التي يبرهن عليها العديد من الفلاحات والفلاحين الذين التقيتهم، قد تركت لديّ انطباعاً مدهشاً. فما هو سرّ هذا الصمود؟

إنّه شبكةٌ كثيفةٌ من الجمعيّات، التي تروي هذا المجتمع. فهناك آلاف منها، من مختلف الأنماط: جمعيّات الجوار، التي تجمع أعضاءها حول الاحتفال المعروف بالقهوة، وجمعيّات التعاون الاقتصادي، المنظّمة حول المهن، وجمعيّات دينيّة، خاصّة بأحد القدّيسين (مسيحيّاً كان أم مسلماً)، وجمعيّات صيّادي "الكاروس" (Karos)، وهي أقرب إلى الجمعيّات السرّيّة منها إلى القانون المدني، وجمعيّات فلاحين يديرون معاً شؤون هذه البئر أو تلك، وجمعيّات ذات منفعةٍ عامّةٍ، تضمن حسن سير الخدمات العامّة (القمامة... الخ...)، والحي الشعبي الخ...

ثمّة أنماط ثلاثة من الجمعيّات، ذات أهميّةٍ خاصّة، يصادفها الإنسان في كلّ مكان، أو تقريباً: إنها "الايدير" (IDIR)، و"الايكوب" (IQUB)، و"الديبا" (DEBA).

إنّ جمعيّة "الايدير"، هي جمعيّة دفن الموتى. فإنّ الموت يحتلّ، في الحياة الاجتماعيّة وفي المخيّلة الجماعيّة، مكاناً مركزيّاً حقّاً. وقد

اتخذ ذلك صيغةً طقسيّةً مميّزة. فالمآتم تشكّل لحظةً عظيمةً في حياة الأحياء الاجتماعيّة. فالعائلة التي تفقد أحد أفرادها، تضطرّ لأن تدعو لأمسية الوداع، التي تدوم سبعة أيّام، جميع أقربائها، القريبين والبعيدين، والجيران وزملاء عمل المتوفّى. ويُعاد الاحتفال ذاته، مع المدعوّين أنفسهم، بعد أربعين يوماً، ثمّ بعد مرور سنة.

والأسرة المحزونة تستمدّ قوّةً وعزاءً من هذا الحضور الكثيف. والجمهور هادئ صامت، يحيط بالأحياء، يحدّثهم بصوت خفيض. وطوال سبعة أيّام وسبع ليال، يملأ المكان همس خفيف ودائم. ولكن المآتم مُكلِفة. صحيح أنّ قبور المسيحيّين هي، بصورةٍ عامّة، على جانبٍ عظيمٍ من البساطة. ومثلها قبور المسلمين. إلاّ أنّ الذي يُرهق كثيراً ماليّة العائلة، هو، بالمقابل، مآدب العزاء هذه، التي لا تنتهي، والتي يجب أن تقام للمعزّين. وهنا يأتي دور "الايدير"، بوصفه صندوقاً احتياطيّاً في حالة الوفاة. وإنّ الرجال والنساء لَيساهمون فيه منذ مراهقتهم، وطوال حياتهم الناشطة، كي يكونوا في وضع يمكّنهم، في حال وفاة قريبٍ لهم، من الحصول على المال الضروري لتغطية نفقات المآتم.

في عام 2003، كانت الأمطار قد هطلت على نحو شبه طبيعي، فاستعادت الحياة الاقتصاديّة حركتها. ولقد كنتُ شاهداً على مأتمين نُظِّما في منطقة "جيرالتا" (Gueralta)، في أوائل شهر آذار من عام 2004. وقد جمع كلّ منهما بضعة آلاف من الناس، ليستسمحوا من قريبَين، ماتا ودُفنا، أحدهما منذ عشر سنوات، والثاني منذ 12 سنة. ولمَ هذا التأخير؟ لأنّ السنوات السابقة كانت قد تعرّض فيها الناس لمجاعةٍ حادّة، فلم تكن المساهمات الماليّة كافيةً. كانت صناديق "الايدير" فارغةً - فلم يكن من الممكن إقامة طقوس الوداع لهما!

إنّ "الايكوب" (IQUB) نمطٌ من التجمّع يقوم بدور مصرف. ذلك

بأنّه لا توجد مؤسّسات مصرفيّة بالمعنى الدقيق للكلمة، في المناطق الريفيّة (فلا مصرف تنمية، ولا مصرف زراعي، ولا أيّ معهد في خدمة الفلاحين)، ولذلك ينشط المرابون في الأرياف، وأحياء المدن.

إنّ "الايكوب" يوفّر في الواقع شبكة من القروض الصغيرة. فيُقترض منه مبلغ متواضع لشراء دجاجتين أو ثلاث، حمار، بذار، أجر للبيت... إنّ الخبراء الأوروبيّين والأميركيّين في منظمة "برنامج الأمم المتحدة للتنمية" (PNUD)، لمدهوشون: فالمديونون يسدّدون في انتظام، على الرغم من بؤسهم ومن جميع هذه الشدائد. وهم يدفعون في الغالب الفوائد والدَّين الكامل، في اليوم والساعة المحدّدين.

إنّ "اندرياس ايشنته" (Andreas ESHENTE)، وهو يمتهن الفلسفة، قد أمضى نصف حياته كمنفي، في الولايات المتحدة. وهو متوقّد الحيويّة، ولا يعفّ عن انتقاد الحكومة الأثيوبيّة. وهو اليوم، عميد جامعة أديس أبابا. وفضلاً عن جامعة العاصمة، التي اتخذَتْ إدارتُها وجامعةُ الحقوق فيها، مقرّاً لها، قصراً قديماً "لهايلا سيلاسيه"، فإنّ أثيوبيا تعدّ سبع جامعات إقليميّة. ويبلغ إجمالي عدد الطلاب 60.000 طالب، منهم 16.000 طالبة فقط. أمّا جامعة أديس أبابا ذاتها، فإنّها تضمّ 12.000 طالب.

إنّ "اندرياس ايشنته" قد ابتكر نظاماً ذكيّاً. فإنّ الطلاب أنفسهم يدفعون نفقات دراستهم (بما فيها نفقات الطعام والسكن)، عن طريق قرض تقدّمه الجامعة. ويتعهّد جميع المستفيدين منه، بتسديد 42٪ من نفقات دراستهم، خلال السنوات السبع الأولى من حياتهم المهنيّة. وقد نجح هذا النظام نجاحاً تامّاً. فإنّ استحالة التسديد تكاد تكون معدومةً. فتلك هي السمة الأبرز في الحضارة الأثيوبيّة: فالجميع وَفيّ لكلمته. وهكذا فإنّ الأثيوبيّين والأثيوبيّات يسدّدون بأمانة ديونهم.

إنّ "الايكوب"، مثله مثل "الايدير"، قائم من عهود سحيقة. فما من حلقة واحدة من حلقات شبكة هذه القروض الصغيرة، قد أفلست حتى اليوم (أقلّه ضمن حدود معرفة خبراء منظمة "برنامج الأمم المتحدة للتنمية" (PNUD)، الذين حدّثوني عنها).

وإنّ "الديبا" (DEBA)، هي الجمعيّة التي تشبه إلى أبعد حدّ، نقابة ما، أو تنظيماً تعاونيّاً. وفيها يدافع معاً زارع القهوة والعاملون في الجلود عن مصالحهم التعاونيّة ضدّ موظّفي الدولة، والمضاربين والتجار.

جميع هذه الجمعيّات، أيّاً كان عدد أعضائها، أو الأهداف الاجتماعيّة التي ترمي إليها، تقودها تجمّعات يتمتّع فيها جميع "أرباب الأسر"، بحقوق متماثلة. وعندما يتّسع بإفراط أحد هذه التجمعات - مثل جمعيّة المنفعة العامّة في هذا الحيّ أو ذاك من أديس أبابا، أو "ديرداوا"، أو "هرار"، أو أية مدينة هامة - تتشكّل جمعيّة من المندوبين، فتعقد اجتماعات دوريّةً، وتتّخذ القرارات، وتوافق على الحسابات، وتخطّط للنشاطات الآتية. فثمّة ديمقراطيّة أساسيّة، وتضامن اجتماعي صارم، هما السرّان الكامنان وراء الاستمرار والفعاليّة، النفسيّة والاجتماعيّة على السواء، لدى جميع هذه الشبكات التعاونيّة.

إنّ الثقافات العظيمة والعريقة، مع أنّها تعاني كثيراً من العقلانيّة التجاريّة، هي التي توفّر، في كلّ مكان من العالم الثالث، لشعوبه، مخزوناً ثميناً من المعاني. فإنّ الذاكرة الجماعيّة، وبُنى القرابة الواسعة، وتصورّاتهم الكونيّة الغريبة، والعديد من روابط التضامن بين الأفراد، كلّ ذلك يحمل لمجتمعات الجنوب، التماسك والثقة، ويشهد على ذلك الوضع في أثيوبيا. ومع ذلك، فإنّ هذا الشعب، على الرغم من حيويّته الخارقة، وصموده، وشجاعته أيضاً، هو شعب منهك اليوم.

إنّ الدَّين يضيّق عليه الخناق شيئاً فشيئاً.

إنّ تسديد الدَّين كلّف الدولة الأثيوبيّة، عام 2006، 167 مليون دولار، وهو مبلغ يفوق جميع خدمات الصحة، الوطنيّة والإقليميّة والمحلّيّة. فلقد استُهلِك 12٪ من العائد الوطني الخام، لتسديد فوائد الدَّين. واستخدم بالتالي 6٪ فقط من العائد الوطني، لتغطية نفقات الأسمدة، والريّ، والزراعة الريفيّة، أو تسويق المنتوجات الزراعيّة.

تُرى، متى ينال الشعب الأثيوبي قليلاً من السعادة؟

على كلّ حال، لن يتحقّق ذلك، طالما سيكون هناك دَين!

مراجع القسم الثالث

[1] في أثيوبيا، رجاء الحياة بالنسبة إلى النساء، هو 42 سنة

[2] إن الولايات المتحدة هي، دون مقارنة، المساهم الأكبر في "برنامج الغذاء العالمي": فإن 60% من الحبوب الموزعة في أثيوبيا عام 2004، تأتي من الفائض الأميركي. وهذا بمجمله مؤلف من المنتوجات المعدّلة جينياً. ولكن الولايات المتحدة ترفض أن تموّل شراءه في أرضه. فالفلاحون في ولايات (IOWA) و(Kansas Indiana) هم أيضاً ناخبون! والشركات الزراعيّة الكبرى التي تسوّق حبوبهم، لديها عملاؤها المتنفّذون في واشنطن. وهم يرون في كلّ مجاعة، بركة: فالحكومة تشتري منهم بأثمان باهظة فائض مزروعاتهم، الذي تموّله المساعدات الفيدرالية، وترسله إلى أثيوبيا.

[3] إن منظمة الصحة العالمية تحدد الدعم الغذائي الأدنى للبالغين، بـــ 1900 حريرة في اليوم.

[4] هو الرقم الذي قدمه لي وزير الزراعة، خلال بعثتي في أثيوبيا في شهر آذار عام 2003.

القسم الرابع

البـرازيل: طُرُق التحرر

I- لولا

ثمّة ثورة ضخمة، ديمقراطيّة، معادية للرأسماليّة وسلميّة تقوم في البرازيل. وعلى مآلها، يتوقّف لا مصير شعب يضم 180 مليوناً وحسب، ولكن أيضاً مصير قارّة بأكملها. وستقرّر أيضاً، على نحو واسع، مستقبل الحركة الديمقراطيّة، الشعبيّة والمعادية للرأسماليّة، العالميّة.

كما هي حال معظم أمم أميركا اللاتينيّة، فإنّ البرازيل يعاني من هيمنة الشركات الدوليّة الخاصة. فإنّ دَينه الخارجي، وهو يفوق 240 مليار دولار، يشكل 52٪ من الناتج الداخلي الصرف. فإنّ أكثر من نصف ثروة البلد الوطنيّة (من صناعات، وتجارة، ومناجم، وأراض، وطرقات، وسدود) يملكها سادة الشمال الأميركي.

هذه الثورة تكاد تكون مجهولة بالكليّة في أوروبا. ومآلها غير أكيد.

الكل يتذكّر المشهد الرئيسي من مسرحيّة بريخت، "حياة غاليليو". إنّه يحدث في 22 حزيران من عام 1633، في روما: ففي هذا اليوم، واجه "غاليليو" قضاء محكمة التفتيش والكردينال "بيلارمان". في هذه الأثناء، يدور نقاش بشأن هذه الأمور، في قصر سفير جمهوريّة فلورنسا، بين تلميذه "اندريا سارتي" والعامل "فيدرزوني"، وابنته "فرجينيا". كلّهم يفيضون إعجاباً ببطلهم "غاليليو"، الذي يرون فيه مَن يبدّل مجرى التاريخ، إذ يحمل إلى العالم نور العلم. وفجأةً يقف "غاليليو" عند العتبة، متعباً، وقد فقد بعضَ بصره. فيواجه حماس الحاضرين، بهذه العبارة: "الويل للبلد الذي يحتاج إلى أبطال!".

بالطبع بريخت محقّ في هذا القول. ولكن الصحيح أيضاً أنّ ثمّة منطقاً خفيّاً يقوم بين بعض الأفراد والشعب، بين بعض الإرادات الخاصة والوجدان الجماعي. وبوسع هذا المنطق أن يحوّل مجرى الأحداث، في بعض الظروف المحدّدة.

لولا، "لويز اناسيو لولا دا سيلفا" - لولا مسيرته الذاتيّة، وقصّة عائلته، وآلامه الشخصيّة وتصميمه - ما كان لسيرورة الثورة البرازيليّة الحالية، أن تتّخذ المنحى الذي تُعرَف به اليوم. ولسوف يغوص هذا الفصل، قبل أيّ شيء آخر، في صوت "لولا" ومصيره.[1]

في أشهر الصيف الجنوبي هذه، قلّما تحدث عواصف رعديّة فوق مرتفعات "غويا" (GOIAS). ففجأةً، تغطّي السماء قشرةٌ كثيفةٌ من الغيوم الداكنة. وما هي إلاّ لحظات قليلة، حتى يتمزّق سقف السماء الأسود، فيُطلق طوفاناً. عندها تتحوّل الأرض الحمراء، أرض الممرّات والحدائق، إلى طين كثيف يعيق تقدّم السائر. ولكن القصف والبروق لا تدوم طويلاً. وسرعان ما يعود النور المذهّب في ما بعد الظهيرة، إلى سطح الكاتدرائيّة النحاسي، ويسقط ضوءه على بقع المياه، التي تتوهّج فوق فسحة القصر الرئاسي، المدعو "بلانالتو"، ويُعيد البريقَ إلى سيّارات الليموزين السوداء الفاخرة، التي تنساب عبر الشوارع...

تنحدر الشمس الحمراء وراء ناطحات البيتون والزجاج. والليل يهبط في برازيليا، خلال الصيف، منذ الساعة التاسعة عشرة. وفي مكتب رئيس الجمهوريّة الرحب، حيث تخترق أشعّةٌ حمراء أقمشة الستائر، تتواصل المقابلة منذ ساعتين ونيف. كان "لويز اناسيو لولا دا سلفا"، يتحدّث عن طفولته ومراهقته، اللتين اتّسمتا بالحرمانات والجوع.

وجهه أسمر، عينه متوهّجة، وساخرة في الغالب. إنّه يحدّق بيقظة في زائريه. وجهه المنحوت، وجه إنسان من الشمال، قوي وصبور، تغطّيه لحيةٌ رماديّة. صوته دافئ. وهو، بيده المشوّهة - إذ تنقصها

إصبع - يدعم بحركات واسعة، هذه أو تلك من الكلمات التي ينطق بها، والتي تبدو له على درجةٍ من الأهميّة. وطبعه مجبول قبل كلّ شيء، بالتصميم والحنان. إنّه إنسانٌ آسرٌ جدّاً.

في البرازيل، 2٪ من الملاّك، يملكون 43٪ من الأراضي الزراعيّة. وإنّ قسماً كبيراً من هذه الأراضي، غير مزروع أو هو يستثمر في غير انتظام. فإنّ "المعهد الوطني للاستصلاح والإصلاح الزراعي" (INCRA)، يقدّر أنّ قرابة 90 مليون هكتار من الأراضي الزراعيّة، مهملة. إنّ نظام ملكيّة الأراضي القديم، الذي خلّفه العهد الاستعماري، يتعايش مع الاستثمار الزراعي الحديث (وتربية الماشية)، الذي يحظى برؤوس أموال ضخمة ومَكْنَنة ناجعة. وإنّ العديد من هذه الملكيّات الكبيرة، تسوسها جمعيّات دوليّة خاصّة، هي، في الغالب، أميركيّة، يابانيّة أو أوروبيّة.

ولكن، في حين أنّ البرازيل هو اليوم أحد أهم مصدّري الحبوب في العالم، فإنّ عشرات الملايين من سكّانه يعانون من نقص في الغذاء، خطير ودائم.

ولد "لولا" عام 1945، في بلدةٍ صغيرةٍ تُدعى "كاييتاس" (CAETAS)، في مقاطعة "غاراهونس" (GARAHUNS)، التابعة لولاية "برنامبوك". كان أهله، كالملايين غيرهم من العائلات التي تسكن الأراضي الجافة في الشمال الشرقي (Nordeste)، يعيشون في مستوى من الكفاف الهشّ، يسكنون في كوخ، ويزرعون أرضهم الصغيرة، ويشتغلون لدى الملاّكين الكبار في البلدة، إبّان حصاد قصب السكر.

أنجب "اوستيد اناسيو دا سيلفا" وزوجته "اوريديس فيريرا ديميلو"، المسمّاة "دونا ليندو"، ثمانية أولاد، كان "لولا" آخرهم.

بالأمس، كما هي الحال اليوم، في ولاية "برنامبوك"، تمتلك سبع وعشرون عائلة، 25 مليون هكتار من الأراضي الحمراء. ومعظم هذه

العائلات تنحدر في خطّ مستقيم، من العائلات القديمة، التي مارست العبوديّة والإقطاع، والتي تلقّت صكوك ملكيّاتها من أيادي ملوك البرتغال، في القرنين السادس عشر والسابع عشر. تملك الولاية 80 مليون هكتار من الأراضي الزراعيّة. والحال أنّ مَزارع قصب السكر، ومثلها مطاحن السكر، التي تعود لملاّك الأراضي الكبار، يحتكرون أكثر الأراضي خصباً.

إنّ اقيانوس قصب السكر الأخضر، يبدأ عند مسافة من مدينة "ريسيفه"، تقارب خمسين كيلومتراً. فالأرض الحمراء، الكثيفة والخصبة، حيث ينمو قصب السكر، هي لعنة الشعب. فهي تحيط كسياج من حديد، القرى والمدن الصغرى في الداخل، ذلك بأنّ مَزارع قصب السكر، تمنع الزراعات المنزليّة. ينجم عن ذلك أنّ أكثر من 85٪ من الأغذية العاديّة، في ولاية "برنامبوك"، مستورد. كما أنّ نسبة وفيّات الأطفال فيها هي من أعلاها في العالم (وهي تقارب نسبة جزيرة هاييتي).[2] وإنّ مئات ألوف الأطفال مصابون بالإعاقة منذ نعومة أظفارهم. فإنّ النقص في البروتينات يَحُول دون نموّ خلايا الدماغ، نموّاً طبيعيّاً.

أمّا ملاّك الأراضي الواسعة، فإنّهم يعيشون في تخمة، في قصورهم في "ريسيفيه"، وفي فيلات خياليّة، وفي أبنيتهم الضخمة على سواحل ريو دو جانيرو - أو في شارع "فوش" بباريس.

في البرازيل، يبلغ 4.8 ملايين عدد العمال القرويّين "المحرومين من الأرض". والعديد منهم يُمضون حياتهم على الطرقات، ويؤجّرون قوّة عملهم بوصفهم عمالاً مهاجرين، وهم في الغالب يفتقرون إلى سكن ثابت. ثمّة آخرون يعيشون في القرى، وفي البلدات الريفيّة، أو في جوار المزارع الكبرى، في أكواخ. وهم، في هذه الحالة، يحصلون على ما هو الحدّ الأدنى من الخدمات الاجتماعيّة.

إنّ وسط البرازيل وشمال شرقيّها، على نحوٍ خاصّ، يألفان وجه العامل، المسمّى "البقرة الباردة". فالعمّال المحرومون من الأرض، يفدون كلّ صباح من صباحات الأسبوع، إلى ساحة المقبرة في البلدة. فيأتي مساعدو الملاّك الكبار، ليختاروا منهم مَن سيلتزمون بعمل محدّد، في إحدى ملكيّات المنطقة. وقبل أن يغادر العاملُ كوخَه عند الفجر، ليمضي إلى الساحة العامة حيث يتمّ اختيار العمّال، تُعدّ له زوجته علبةً من الفاصولياء السوداء والأرزّ وقطع البطاطا. فإنّ اختاره "المعلّم"، يتوجّب عليه أن يعمل مثل "البقرة". وإن رُفِض، فهو سيمضي النهار ينتظر، ينتظر في الساحة العامة، في ظلّ الشجر، ويطول الانتظار... وفي كلا الحالين، فهو سيأكل طعامه "بارداً".

كان والد "لولا" ينتمي إلى فئة عمّال "البقرة الباردة".

كان "لولا" في الخامسة من عمره، عندما غادر والده البيت، بعد أن حطّمه اليأس. فهاجر إلى مدينة "سانتوس"، المرفأ الكبير على الأطلنطي، في ولاية "ساو باولو". فقد كان أحد جيرانه، وهو يملك راديو ترانزيستور، قد أخبره أنّ إدارات المرفأ تبحث عن حمّالين ينقلون أكياس القهوة إلى البواخر، وأنّها تعد بأجور مجزية.

إنّ "مالك الأرض" حيوان مفترس. في عام 1952، كان "لولا" في السابعة من عمره، قصير القامة، قويّ البنية، ذا شعرٍ مجعّدٍ، أسود، ونظرته قاتمة. وقد أرغم مسلّحو أحد كبار الملاّك، والدته "دونا لندو"، على بيع كوخها وأرضها الصغيرة، بما فيها من شتلات "المانيهوت" والموز. كان ثمنها 100 "ريال"، ما يعادل يومها 50 يورو. ففعلت السيّدة "لندو" ما فعل قبلها مئات الألوف من أمّهات العائلات في الشمال الشرقي، طوال القرنين الماضيَين: ومضت مع أولادها نحو الجنوب، بحثاً عن زوجها.

تطلق تسمية "أظلاف الببغاء" على أفراد يلبسون الأسمال، وليس في

جعبتهم سوى قربة الماء وبضعة أرغفة من المانيهوت، ويسافرون دونما أموال لديهم، ويتنقلون، متعلّقين على الشاحنات المنطلقة نحو الجنوب.

من داخل ولاية "برنامبوك" حتى ساحل "ساو باولو"، يستغرق السفر ثلاثة عشر يوماً. فيتمسّك المسافرون، وكأنّي بهم ببغاوات، بأكياس السكر المصفّى، أو بأكوام الحطب المكدّسة في الشاحنة. وكان السائقون يرضون بأجور هي على العموم زجاجات من "الكاشاسا" (عصير قصب السكر)، أو قبضة من "الريال". وخلال الاستراحات الليليّة، يرقد الركاب ذوو "أظلاف الببغاء"، على الأرض، قرب الشاحنة، أسوة بالسائقين، وقد لفّوا ذواتهم بأغطية.

ما إن وصلوا إلى خليج "السانتوس"، حتى أخذ "لولا" وأخوه الأصغر "خوزيه"، يبحثان عن والدهما. فتاها في قرى التنك وأرصفة المرفأ، وهما يسألان حمّالي المرفأ. وأخيراً، انتهى بهما الأمر إلى العثور على سكن والدهما، حيث استقبلتهما امرأةٌ فتيّةٌ مع طفليها الصغيرين. كان والدهما قد طوى صفحة الماضي، وأسّس عائلة جديدة. ولسوف يُصرّ على رفض أي اتصالٍ بولده "لولا"، وبالسيّدة "لندو" وسائر أفراد أسرته السابقة.

وقد كتب "فراي بيتو" (Frei BETTO) في السيرة التي خصّ بها "لولا": "لن يتحدّث قطّ عن جرحه هذا، مع مطلق إنسان".[3]

في عام 1956، استقرّت السيّدة "لندو" مع أولادها، في غرفتين معتمتين، واقعتين خلف ملهى، في أحد أحياء "ساو باولو"، البائسة. وكانت المراحيض مشتركة بين السكارى والمستأجرين.

يروي "لولا":

« كنتُ طفلاً سعيداً. كانت أمّي تحبّني. كانت كلّ شيء بالنسبة إليّ. لست أدري كيف استطاعت أن تطعمَنا وتضمنَ لنا البقاء! »

كانت السيدة "لندو" آنئذٍ تمارس الخياطة، ليل نهار.

ثمّة حادثان فقط، قد تركا أثرهما الاجتماعيّ المُذِلّ في ذاكرة "لولا".

الأول: "لم يكن لدينا كراسي في البيت، نُجلس عليها ضيوفنا".

الثاني: "حوالي الرابعة عشرة من عمري، قدّم لي أحد الأصدقاء أوّل بطاقة سينما. ولكني مُنِعت من الدخول، لأنّ ثيابي لم تكن لائقة".

البؤس في كلّ مكان. تُوفّيت اثنتان من أخواته، بسبب التهابات عاديّة، ولكنّهما كانتا قد أنهكتا من النقص في التغذية.

كان في سنّ الثانية عشرة، عندما كسب "لولا" أوّل أجرٍ له في محلّ لتنظيف الثياب. كان عليه أن ينظّف الثياب ويكويها، ويقوم بتسليمها. فيما بعد، سيُتاح له أن يقوم بعمل "الخزمتشي" في أحد المكاتب في مركز المدينة. وعندما بلغ الرابعة عشرة، حدثت المعجزة. فقد أتيح له أن يحصل على مركز عامل متدرّب في معمل للحديد، بفضل أخيه الأكبر "جوزيه"، العامل في أحد معامل "ساو برناردو دو كامبو"، وهي مدينة صناعيّة في ولاية "ساو باولو". فكان يعمل من السابعة صباحاً حتى السابعة مساء، كلّ يوم، ما عدا يوم الأحد.

في عام 1964، إذ كان في التاسعة عشرة، أصبح عاملاً خرّاطاً في "مصانع فيلاريس" في "ساو برناردو دو كامبو". وحلّ ذات يوم محلّ أحد زملائه على آلة تقطيع شرائح الألمنيوم، فأصيبت الآلة بعطلٍ، ما تسبّب في قطع الإصبع الصغرى في يده اليسرى.

آنذاك كان عهد الدكتاتوريّة العسكريّة.[4] وهي بالكلّيّة في خدمة الشركات الأجنبية الدولية الكبرى، والطبقات الثريّة وملاّكي الأراضي المحلّيّين. وكان الجنرالات يقمعون بوحشيّة الاحتجاجات العماليّة. وكان بؤس الطبقات الشعبيّة يتفاقم.

كانت الإضرابات العاصفة تتوالى. لم تكن لها إدارة سياسيّة قويّة، لأنّ جميع التنظيمات النقابيّة والديمقراطيّة، كانت قد دمّرتها عمليّاً الشرطة السريّة. وكان "لولا" يشارك في أنشطة المقاومة السلميّة والإضرابات.

تجلّت في ذلك الحين مواهبه التنظيميّة الاستثنائيّة. وما كان يتمتّع به من ذكاء حادّ وحيويّة خارقة، فرضه بوصفه زعيماً طبيعيّاً لعمّال الحديد، أوّلاً في نطاق مصنع "فيلارس"، ثمّ في نطاق جميع مصانع "ساو برناردو دو كامبو". وكان "لولا" يقف دائماً في طليعة الصفوف المقاومة، يدفعه إلى ذلك شعور عميق بالعدالة.

كان أرباب العمل يواجهون كلّ ذلك بإغلاق المصانع. وسرعان ما انقطع كلّ مدخول عن "لولا"، فعاش في فقر مريع. خلال هذه الفترة، حدث أمر امتنع "لولا" دائماً عن التحدّث عنه. وهو لم يذكر هذا الحدث المأساوي إلاّ أمام "فري بيتو" بكلماتٍ قليلةٍ، ولم يعد إليه البتّة في ما بعد.

كان "لولا" آنذاك متزوّجاً بعروسٍ فتيّة. وكانت حاملاً في شهرها الثامن، بطفلها الأول. وأُصيبت بالتهاب، فارتفعت حرارتها إلى حدّ خطير. فاشتدّت عليها الآلام المبرّحة، وتعرّضت للهذيان طوال الليل. عند الفجر، جاء "لولا" صديق له من النقابة السريّة، ومضيا معاً بالمريضة إلى المشفى العمومي في "ساو برناردو دو كامبو". فطالبهما طبيب الطوارئ بسلفة نقديّة، لم يكن لهما منها فلسٌ واحد. فرفض الطبيب استقبال المريضة. فتوفّيت زوجة "لولا" وجنينها، في أحد ممرّات المشفى.

في تلك الفترة، كان رئيس أساقفة "ساو باولو"، الكردينال "باولو ايفاريستو أرنس" (Paulo Evaristo ARNS)، يحمي بفعالية "الكهنة - العمّال" والنقابيين. وكان "ارنس" قد أنشأ حركة سيكون لها تأثير

حاسم على "لولا" ورفاقه: إنّها "الحركة الرعائيّة". وكانت هذه المؤسّسة تنشط في مكافحة الأمّيّة، وتنشئة العمّال، الفكريّة والروحيّة، لا سيما أولئك المهاجرين من الشمال الشرقي، اللاجئين إلى ضواحي مدينة "ساو باولو".

بعد ظهر يوم 13 آذار عام 1979، تجمّع في الملعب البلدي الخاص بمدينة "ساو برناردو دو كامبو"، أكثر من 80.000 من عمّال الحديد المضربين عن العمل. وكان هذا الإضراب، وفق الأحكام السارية في عهد الدكتاتوريّة، غير شرعي. كان المضربون يصغون إلى قادتهم، ومنهم شاب ملتحٍ في الرابعة والعشرين، هو "لويز اناسيو لولا دا سيلفا". وكانوا يتوقّعون كلّ لحظةٍ هجوم القوات الخاصّة، التابعة للشرطة الفيديراليّة، وتوقيف قادتهم.

في هذه اللحظة، تقدّم من الشاحنة، التي كان صندوقها يُستخدَم بمثابة منبر للخطباء، رجل نحيل أصلع، يرتدي ثوباً طويلاً أبيض. كان هو "دون كلاوديو هوس"، أسقف "ساو برناردو"، وتحدّث بصوت وديع (فكانت كلماته تتكرّر من صفّ لآخر، حتى بلغت آخر الصفوف في الملعب الشاسع): " إنّ الكنيسة تدعم الإضراب، لأنّها ترى فيه عملاً عادلاً وسلميّاً. وهي ترجو أن تظلّوا كلّكم ملتفّين حول قادتكم الذين انتخبوا بحريّة... أنا لست هنا لأقول لكم ما يتوجّب عليكم أن تقرّروا، ولكن لأساند القيم الإنجيليّة التي تدافعون عنها... وإني لأريد بحضوري هذا، أن أجنّب عيالكم آلام النتائج السلبيّة الناجمة عن هذا الإضراب".[5]

ولما كانت الدكتاتوريّة العسكريّة تدّعي بإلحاح التمسّك بالقيم الكاثوليكيّة، بات من الصعب عليها أن تُجرِّم هذا الإضراب.

في شهر كانون الثاني من عام 1980، بمناسبة اجتماع سرّي عقدته "الحركة الرعائية"، التقى "لولا" رجلاً استثنائيّاً هو: "كارول البرتو

ليبانوكريستو"، وكان يُدعى في السلك الرهباني: "الأخ بيتو". كان قد ولد في مدينة "بيلو اوريزونته" عام 1944، وكان راهباً دومينيكيّاً، وهو أحد أقطاب دعاة لاهوت التحرير في أميركا اللاتينيّة. كان هزيل البنية، يحمل نظارات سميكة، تخفي عينين ساخرتين، وهو ذو مزاج لاذع وإرادة حديديّة. وكان يقارب "لولا" من حيث السنّ. فتوطّدت الصداقة بين الرجلين، منذ لقائهما الأوّل.

كان "الأخ بيتو" عندها خارجاً من السجن. وكان بالنسبة إلى الحركة الشعبيّة التي ينتمي إليها "لولا"، أسطورة حيّة. وإنّ إدراك هذا الأمر، يقتضي التذكير بتاريخ البرازيل الصاخب، في الربع الأخير من القرن العشرين.

في مدينة "ريو دو جانيرو"، في عهد الدكتاتوريّة العسكريّة، كان جلادو الاستخبارات الجويّة يعذّبون سجناءهم في مرائب القاعدة الجويّة "سانتوس - دومون"، في مركز المدينة. وهي بناء ضخم أبيض، ذو ثماني طوابق، يقع على بعد بضع مئات من الأمتار من "ساحة كوينسيه" (Praçaquince)، ومن قاعات محاضرات "جامعة كانديدو منديس" (Candido MENDES)، حيث أُتيح لي أن أعلّم.

كلّ ليلة، كان مغاوير الجيش، يحملون قوائم المشبوهين، ويتجوّلون بلباس مدني في أحياء "فلامنكو"، و"بوتافوغو"، و"كوباكابانا"، وكذلك في ضواحي المنطقة الشماليّة، ذات الزواريب المتشعّبة والبائسة، حيث تقوم أكواخ "الفافيلات" والأحياء العمّالية.

كانت المقاومة ناشطة، من مصبّ نهر الأمازون إلى حدود "الأوروغواي". وكان معظم المقاومين، من طلاب وكهنة وأساتذة ونقابيين - رجالاً ونساء - يكافحون ضمن تنظيمين مختلفين: "حركة التحرير الوطنيّة"، بقيادة "كارلوس ماريغيلا"،[6] الذي كان خلاسياً رائعاً، ذا شجاعةٍ لا تقهر، وحركة "مار- بلماريس" (Vanguarda Revolucionária-

Palmarès).[7] وكــان التنظيمــان يقــودان حــرب العصــابات ـ في المــدن، خصوصاً ـ في الجنوب، وهم ـ في انصهار مطلق ضمن المحيطات البشريّة، المتواجدة ـ في المدن الكبرى، مثل "ساو باولو"، "بيلو اوريزنته"، "بورتو اليجريه" و"ريو دو جانيرو". وكانت خسائرهم مروّعة.

فمنذ عام 1969، كانت الشرطة السرّيّة قد استطاعت أن تخترق ـ في "ساو باولو"، شبكة من "حركة التحرير الوطنيّة". وكان أحد الشبّان قد اعترف، تحت التعذيب، بمكان وساعة الاجتماع الذي حدّده "فاريغيلا". و ـ في 4 تشرين الثاني، كان ثمانون عنصراً من مخابرات الشرطة الفيدراليّة، ينصبون كميناً، والرشّاشات بأيديهم. فاغتيل "فاريغيلا" ومساعداه عند الرصيف.

كان ثمّة أربعة كهنة دومينيكيّين، ينتمون إلى شبكة الدعم لجماعات "ماريغيلا" المقاتلة ـ في محيط مدينة "ساو باولو"، وهم: "تيتو"، "لوريندو"، "ايفو"، و"بيتو". وغداة مقتل "ماريغيلا"، اقتحم رجال الشرطة الفيدراليّة، دير الآباء الدومينكيّين، القائم ـ في حي "برديشيه"، ـ في "ساو باولو". واعتقل الكهنة الأربعة، وأخضعوا لتعذيب مروّع، وحكم عليهم بالسجن سنواتٍ طويلة.

عرف "تيتو" مصيراً على جانب كبير من الألم. فبُعَيد اعتقال الآباء الدومينكانيّين، اختطف مقاتلون من رجال العصابات، ـ في "ريو دو جانيرو"، سفير سويسرا. وتمّت المفاوضات حول إطلاق سراحه مقابل إطلاق سراح عدد من السجناء السياسيّين، ومنهم "تيتو". فاقتيد عندها "تيتو" وسجناء القائمة الآخرون، إلى كوبا. وانتقل "تيتو" من كوبا إلى دير الآباء الدومينكيّين ـ في باريس. وحظي هناك برعاية نفسيّة. ولكنه لم يستطع أن ينسى مشاهد الهول التي عاشها ـ في سجن "تيرادنتس" ـ في "ساو باولو". وكانت الكوابيس تستبدّ به. فترك باريس إلى مدينة "ليون"، وهنا انتحر هرباً من الذكريات التي كانت تلاحقه.[8]

أما الأخ "بيتو"، فهو يحتلّ اليوم، في قصر "بلانالتو" الرئاسي، في برازيليا، المكتب الملاصق لمكتب رئيس الدولة.

ثمّة مفارقة. إنّ رئيس الدولة التي تمتدّ مساحتها على ما يفوق نصف القارة الأميركيّة الجنوبيّة، وتملك الاقتصاد الحادي عشر بين أقوى اقتصادات الأرض، لا يعترف لنفسه بأيّ انتماء سياسي محدّد.

وإذ سألتُ "لولا"، انفجر ضاحكاً: "جذوري السياسيّة؟" حقّاً لا أتذكّرها البتّة. أنا أحبّ الصلاة. أحبّ أن أقرأ ما كتب القدّيس فرنسيس الأسيزي... قبل أن آكل، أرسم إشارة الصليب. تعرف أنّني كثيراً ما عانيت من الجوع... في الأوّل من شهر أيّار، لا أفوّت عليّ حضور قدّاس العمال، في أقدم كنيسةٍ في مدينة "ساو برناردو دو كامبو..." هذا الخمر وهذا الخبز، ثمرة عناء وعمل البشر"... أمّا بشأن النظريات السياسيّة، فعليك بسؤال ماركو اوريليو!"، وهو يحدّق بنظره في مستشاره للشؤون الدوليّة، الجالس في كرسيه مقابلنا. وهو يضيف بقسوة: "إنّ مثقّفينا اللامعين يعرفون هذه النظريات أكثر منّي بكثير!". وعندها، كان "ماركو اوريليو غارسيا"، المعروف بماركسيّته المتقدّمة، والمدرّس السابق في جامعة "باريس - فانسين"، يحتفظ بهدوء حذر.

لماذا أراد "لولا" إنشاء حزب العمّال، منذ مطلع عام 1980؟ يأتيني جوابه المفاجئ: "لأنّ العمال، طوال تاريخنا كلّه، لم ينتخبوا يوماً للعمّال... ففي أعماق الفلاحين، والعمال، أحكام مسبقة مريعة كانت تشلّ كلّ عملٍ مشترك مستقلّ". وفي كتاب صدر عام 2002، يقول "لولا" مفسراً: "... هناك أحكام طبقيّة مسبقة، كانت تقبع في قلوب وأفكار العمّال أنفسهم، وتجعلنا نشكّ في قدرتنا على التصرّف ككائنات لها تاريخ!".

إنّ عمّال الطبقات المحكومة تشكّل أكثر من 82٪ من سكّان

البرازيل. ولكنهم طوال قرون، تمثّلوا هذه الأحكام المسبقة، الصادرة بحقّهم من قبل الطبقات الحاكمة: ولقد آمنوا في صدق أنهم عاجزون عن قيادة أنفسهم بأنفسهم.

هذا الزمان، قد طوي إلى غير رجعة: ففي 27 تشرين الأول عام 2002، انتُخِب "لويز اناسيو لولا دا سيلفا"، رئيساً لجمهوريّة البرازيل الاتحاديّة، بأكثر من 52 مليون صوت، وكانت أعلى نسبة أصوات ظفر بها رئيس برازيلي يوماً.

إنّ حزب العمّال، ليس بحزب، بل هو جبهة. فهي تتألّف من حركات اجتماعيّة، وحلقات ثقافيّة، ونقابات، وتنظيمات من جميع أشكال القاعدة الشعبيّة - جماعات نسائيّة، جمعيّات محلّيّة، حركات دينيّة الخ... ثمّة قائد متميّز يسهر على المستوى الديمقراطي الجيّد، للحوار الداخلي القائم فيها، وهو "جوزيه ديرسو" (José DIRSEU)، القائد السابق للمقاومة المسلّحة... وفي عام 2004، كان "جوزيه ديرسو" وزير "البيت المدني"، المعادل في النظام البرازيلي، لرئيس الوزراء في فرنسا. كان مقاوماً أسطوريّاً، وقد اعتقلته الشرطة السياسيّة، ثمّ أطلق سبيله، لقاء إطلاق سبيل سفير الولايات المتحدة في البرازيل، الذي كانت المقاومة المسلّحة قد اختطفته. وفي كوبا، خضع لعمليّات جراحيّة تجميليّة. وبعد أن حصل على هويّة جديدة و... وجه جديد، عاد إلى البرازيل ليواصل الكفاح المسلّح داخل ولاية "ساو باولو".

إنّ جميع الحركات الرئيسيّة، التي صدرت عن المجتمع المدني، والتي وُلِدت من المقاومة للدكتاتوريّة والأنظمة الفاسدة والليبراليّة الجديدة، التي أعقبت الدكتاتوريّة، تعترف بولائها لحزب العمّال، وهي: "التجمّع المركزي للعمّال" (CUT) و"حركة الفلاحين من دون أرض" (MST) و"التجمّع الوطني للحركات الشعبيّة" (Anampos)، وعدد آخر كثير من الحركات التي تضمّ بمجموعها عشرات الملايين

من الأعضاء. فإنّ "التجمّع المركزي للعمّال" وحدَه، يضمّ أكثر من عشرين مليون عامل ومستخدم.

إنّ واقعيّة "ابن الشمال الشرقي" تسكن "لولا". فلقد قال لي: "نحن في الحكم، لا في السلطة. إنّ تغيّر البنى الاجتماعيّة في بلد ما، لا يكفيه لا رئيس جمهوريّة، ولا برلمان. إنّه يحتاج بالضرورة إلى الشعب". وهذا يعني أنّ الانتصار على النخبة الداخليّة الحاكمة، وعلى مصاصي الدماء الأجانب، يتوقّف على تجييش وتصميم الخدمات الاجتماعيّة والشعبيّة والديمقراطيّة.

إليكم كيف نجا "لويز اناسيو لولا دا سيلفا" من الموت.

في ليلة يوم الجمعة 18 نيسان عام 1980، كان قد توجّه إلى مشفى "أسونسيا"، في مدينة "ساو برناردو دو كامبو"، برفقة "ايرتون سواريس"، لعيادة اثنين من رفاقهما، اللذين كانا قد جُرِحا إثر هجومٍ الشرطة على مركز نقابي.

كان "لولا" يعرف أنّ الشرطة تراقبه، وكان يتوقّع اعتقاله بين يوم وآخر. وعندما عادا في الساعة الثانية والنصف فجر ذلك اليوم، اقترح عليه "ايرتون" أن يخبّئه في صندوق سيارتِه القديمة، "الفا روميو"، وأن يمضي به إلى مخبأ يقع في إحدى مدن الداخل، في ولاية "ساو باولو".

رفض "لولا" وعاد إلى بيته. وفي البيت الصغير المؤلّف من طابقين، الذي كان يسكنه مع زوجته الثانية، "ماريز"، وولديهما القاصرين، كان، في تلك الليلة، ينام أيضاً على بساط الصالون، الأب "بيتو" والنقابي "جيرالدو سيغيرا".

يروي الأب "بيتو":

« سمعتُ صوت سيّارات الشرطة، المعروف، إذ توقّفت فجأةً أمام البيت [...] وعلت أصوات الشرطة باسم "لولا". فصعدت بسرعة

درج الطابق الأوّل، وقرعت على باب غرفة النوم: "لــولا، الشــرطة هنا!". في الخارج، كان رجال الشرطة ينادون: "السيد لويز اناســيو! السيد لويز اناسيو! نحن الأمن الوطني!".

"استيقظ "لولا" للحظته، وفتح باب غرفته، وقــال لي بــألاّ أقلــق لصراخ الشرطة. وكانت السيّدة "ماريزا" بالمقابل، تُلحّ كــي ينــهض ويرتدي ثيابه. فنَزَلت. وشاهدتُ عبر شباك الطابق الأرضي، ستّة رجال باللباس المدني، وبأيديهم رشاشات. كانوا منتصبين أمام الباب. فصعدتُ الدرج وقلت للولا: "انزل وسلْ هؤلاء الرجال أن يبرزوا لك بطاقاتهم كشرطة".

نزل "لولا"، وفتح الباب.

أبرز رجال الشرطة بطاقاتهم.

"ودّع لولا زوجته وأصدقاءه. وقال لهم وهــو يخــرج: "اسمعــوا. حافظوا على هدوئكم. اهتمّوا بعائلتي. المهمّ، هو المضي حتى نهاية هذا الكفاح!"

ثم خرج. »

خــلال هــذه الليلــة بالــذات، في كامــل ضــاحية "ســاو بــاولو" الصــناعيّة، اعتقــل مئــات النقــابيّين، مــن نســاء ورجــال. ولكــن رجــال الأمــن ارتكبــوا خطــأً جســيماً. فهــم لم يعتقلــوا لا "بيتــو"، ولا "جيرالــدو". ولم يقطعــوا خطــوط الهــاتف في البيــت، ولــذلك، فمــا إن غابــت ســيّارات الشــرطة، حتــى أخطــر الصــديقان الكردينــال "أرنــس" والمطــران "هــومس"، اللــذين أخــبرا بــدورهما الصــحافة الأجنبيّــة، فتبنّــت منظمــة العفــو الدوليّــة، "لــولا"، بوصــفه ســجين الشــهر. ومنــذ شــهر أيــار اضــطرّت الطغمــة العسكريّة الحاكمة أن ترخي قبضتها. وأطلق سبيل "لولا".

وكان أوّل شيء قام به "لولا"، فور عودته إلى بيته، أنّ فتح باب قفص العصافير، المعلّقين في الصالون، ونظر بارتياح عظيم إلى تحليق طيور الكناري عبر النافذة!

مساء الرابع من شهر شباط عام 2003، كنت جالساً مقابل الرئيس "لولا" في مكتبه الواسع، ذي المقاعد الحمراء، فأثرت مجدّداً هذه الأحداث. فروى لي الرئيس:

"جاؤوا ليلاً ليقتادوني".

كان يشير إلى رجال أحد أكثر الطغمة العسكريّة الحاكمة، وحشيّة، وهو "روميو توما". وأضاف باسماً:

« لكم كنت مرتاحاً!... أنا لا أفهم: أوَليس التعذيب وأبشع أشكال الإذلال، نصيب السجناء السياسيّين؟ »

ويلحّ "لولا" بقوله:

« أجل، أجل، كنت مرتاحاً! لم أكن أتوقّع أن أعتقل. كنت مقتنعاً بأني سوف أقتل كما حدث للعديد من رفاقنا، على يد كتائب الموت ».

II- برنامج إلغاء الجوع

يوم دخل "لولا" قصر "البلانالتو" الرئاسي، في 2003/1/1، كان الوضع الاجتماعي والاقتصادي بالنسبة إلى الشعب البرازيلي، وضعاً كارثيّاً: فهناك 53 مليون إنسان فقط يعيشون فوق الحدّ الأدنى الحيويّ. وكان ثمانون مليوناً عاجزين عن توفير 1900 حُرَيرة على الأقلّ، كلّ يوم، وهو القسط الغذائي الأدنى، وفق منظمة الصحّة العالميّة. وكان 119 مليون إنسان يعيشون بعائد شهري يقلّ عن 100 دولار.

إنّ البرازيل اليوم، هي، مع أفريقيا الجنوبيّة، أكثر دول الأرض عرضة للتفاوت الاجتماعي.

في مدن التنك، تكتظّ ضحايا الهجرة الريفيّة، بسبب بنية في الملكيّة الزراعيّة، قاتلة بكلّ معنى الكلمة. هذه المدن التنكيّة تتسلّل في فجوات المدن، وتحاصر المدن العملاقة. والجوع يفتك بسكّانها. ففي القرى الريفيّة الصغيرة وفي الأرياف، حيث يعيش 42٪ من السكّان، يقضي، كلّ عام، العمى الناجم عن نقصٍ في الفيتامين (A)، وفقر الدم، والإسهالات القاتلة، الناجمة عن تلوّث في المياه، على مئات الألوف من الضحايا - لا سيّما بين الأطفال.

إنّ 6.5 من سكّان البرازيل يعيشون في أكواخٍ من تنك أو من كرتون، لا تصلح البتّة للسكن. وإنّ 40٪ منهم يعيشون دون ماء جارية، ودون مجارير صالحة.

إنّ البرازيل هي إحدى أكبر الدوّل المصدّرة للمنتوجات الزراعيّة في العالم. ولكن هذه الصادرات تكاد تكون كلّها خاضعةً للشركات الزراعيّة الغذائيّة، وهي بمعظمها في أيدي جماعاتٍ أجنبيّة. والبلد، على الورق، يعيش في اكتفاء ذاتي، من الناحية الغذائيّة، ولكنّه، في

الواقع، فإنّ الملايين من الرجال والأطفال والنساء، يعانون من نقص في الغذاء، مزمن، ومن أمراض ناجمة عن الجوع.

ما هو عددهم؟ تتحدّث الحكومة المركزيّة عن 22 مليون يعانون على نحو خطير (ودائم) من النقص في التغذية. وقد انتهى تحقيق مستقلّ، أجري عام 2002، على يد باحثين مكلّفين من قبل "حزب العمّال"، إلى وجود 44 مليون جائع. أمّا المطران "مورو موريلي" (Mauro MORELLI)، مطران مدينة "كاشياس" في ولاية "ريو دو جانيرو"، ورئيس مجلس الأمن الغذائي، فإنّه يقدّر عدد ضحايا النقص في التغذية، الدائم والخطير، بـ 53 مليون. وقد أكّدت هذا الرقم هيئة رعاية الطفولة، والهيئة الوطنيّة لأساقفة البرازيل.

فضلاً عن النقص في التغذية، فإنّ سوء التغذية يضرب العمّال المهاجرين وعائلاتهم، والمستخدمين الخاضعين لاستغلال مفرط، وعائلات أصحاب الملكيّات الصغيرة جداً، والحشود الواسعة، المتنوّعة والمجهولة، التي تملأ ضواحي المدن العملاقة في وسط البلاد وجنوبها. وقد قدّرت منظمة اليونيسيف عام 2007، أن 9.5٪ من الأطفال البرازيليّين دون العاشرة، ذوو قامة دون القامة الطبيعيّة في مثل هذا العمر. ويقال إنّهم يعانون من توقّف في النمو. وإنّ النقص من الفيتامين (A) والحديد واليود، تترتّب عليه نتائج كارثيّة: كثيراً ما ينهار الأطفال من الإنهاك في المدرسة، وهم في معظم الأحيان عاجزون عن التركيز خلال فترةٍ زمنيّةٍ مقبولة. وفي هذه الأحوال، يقارب عجزهم عن الحفظ، درجة الصفر. أمّا البالغون، فهم في الغالب، يبلغون حداً من الضعف يحول دون عملهم في الأرض، أو دون ممارستهم، في انتظام ودأب، أيّ عمل مأجور - مهما كان طفيفاً.

خلف محطة القطارات المركزية، في "ريو دو جانيرو" - كما في مدن أخرى في الجنوب والوسط - يقوم منذ فترة قريبة، مطعم شعبي

يُدعى "بيتينـو" (Betino)، وذلـك نسـبة إلى "هربرتـو دو سـوزا"، المسـمّى "بيتينـو"، وهـو الـذي أنشـأ عـام 1982، الحملـة الوطنيّـة الأولى ضـدّ الجوع. الدولة هي التي تغطّي نفقات هذا المطعم، وهو بإدارة مؤسّسة خاصة.

يتـألّف البنـاء مـن طـابقين يضـمّ كلّ منـهما قاعـةً واسـعةً، جذّابـة الألوان والأثاث. تقوم بخدمته، في مودّة وحرارة، نادلاتٌ يرتـدينَ كلّهـنّ ثياباً زرقـاء. ثمّـة مبشّـرون إنجيليّـون يروحـون ويجيئـون في مدخلـه، بـالقرب مـن الصـناديق. وهـم يرتـدون قمصـاناً بيضـاء، ويوزّعـون ابتسـاماتٍ مشـجّعة لأرتـال المنتظـرين... الـذين لا يُبـدون حيـالهم أي اهتمام.

يسـتطيع كلّ فـردٍ، بمـا قيمتـه "ريـال" واحـد، في اليـوم (= 50 سـنتاً أميركيّاً)، أن يحصل هنا على وجبةٍ دسمةٍ من ثلاثة صحون. والمطعم يفتح طيلـة خمسـة أيّام في الأسبوعٍ. ويحـقّ للمسـتهلك أن يأتيَـه مـرّةً واحدةً في اليوم. وعليه أن يتناول وجبتَه فيه.

ضـمن أرتـال الانتظـار الطويلـة، الـتي تقـف منـذ الفجـر علـى الرصيف، شاهدت نساء في متوسط العمـر، لا يكدن يسـتطعنَ السـير، لهنّ بشرةٌ رماديّةٌ، وشبه صليعات. بعض الأطفال، لهم بطون منتفخة بسبب الـ (Kwashiorkor) أو الديـدان. والجميـع تقريبـاً لهـم أسـنان في حالـةٍ سـيّئة جـدّاً. والرجـال ذوو البشـرة القاتمـة، المجـدِّرة، والـذين لا تتجاوز قامتهم متراً وخمسين سنتيمتراً، ليسوا بقليلي العدد...

لـئن كـان الوضـع مريعـاً في "فـافيلات" "الريـو" الكـثيرة، فإنّـه لـيس بأفضـل حـال في "ريسـيفيه". إنّ الخـدمات الاجتماعيّـة في محافظـة "ريسيفيه"، تملك سجلاً بعشرة آلاف من "القاصـرين الشـاردين"، وهـم أطفال تخلّت عائلاتهم عنهم، ويحاولون العيش في الشوارع. تقدّم لهـم "البلديّـة" أحيانـاً، ثيابـاً، وحسـاء، ثـلاث مـرّاتٍ في الأسـبوع. ومنـذ عـام

2003، فالمختار مسؤول ينتخبه "حزب العمّال"، وهو مدرّس سابق، حصيف، ثائر، حار، ولكنه يفتقر إلى وسائط كثيرة.

من نافذة مكتبه، ألمح نهر "الكابيري" الذي ينساب ببطء نحو البحر. "الفافيلات" تقوم على ضفّتيه. قال لي المختار: "إنّ نصف شعبنا يعيش في أقصى حالات الفقر، دون عمل نظامي، دون تغذية كافية، دون سكن لائق... وغالباً ما تدمّر البطالة والجوع، العائلات. يتعرّض عددٌ كبيرٌ من الأطفال، للضرب والاستغلال الجنسي. فيهربون من البيت، ويهيمون في الشارع، وينامون في الليل بجوار الكنائس. وهم، هنا، في "ريسيفيه"، لا يقلّون عن خمسين ألفاً، بين صبيانٍ وبنات. وأصغرهم سنّاً لمّا يبلغوا الثالثة من أعمارهم. وأحياناً، وليس دائماً، يهتمّ الكبار منهم بالصغار".

إنّ عشرات الملايين من البرازيليين يفتقرون إلى عملٍ ثابت. فهم يحاولون، يوماً بعد يومٍ، وليلةً إثر ليلةٍ، أن يتدبّروا أمور بقائهم، من خلال أعمال صغيرة طارئة: من بيع للبوظة على الشواطئ، في الأيام المشمسة، وتجميع وبيع لعلب البيرة الفارغة، الملقاة في الحدائق وعلى الأرصفة، وتجميع للأوراق المستعملة، وحراسة للسيّارات أمام المطاعم الفخمة، وبيع متجوّل للسجائر بالمفرّق، وما هو أخطر من ذلك، فثمّة خدمات طفيفة لأمراء الكوكايين والهيروين...

ولكن، فحتى الذين ينعمون براتب نظامي، يعانون في الغالب، من الجوع، لأنّ الطبقات الحاكمة البرازيليّة تتفنّن في الاستغلال المفرط للعمّال. وهؤلاء يتحمّلون في الواقع جميع أصناف الإذلال، في استسلام، وهم ملايين. فثمّة عشرة منهم، مقابل متمرّد واحد، مستعدّون للحلول محلّه.

إنّ محافظ "ساو باولو" القوي، "مارتا سوبليشي"، يقدّر بأربعة ملايين عدد سكّان "الفافيلات"، المحيطة "بساو باولو". وهذا العدد

يقارب 25٪ من مجمل سكان المدينة. هذه الأحياء، قلّما تدخلها الشرطة. وليس فيها للمؤسّسات العامّة، إلا حضور نادر. والوضع الصحي فيها هو، في الغالب، مروّع. وقد رأيت عائلات من اثني عشر فرداً، تعيش في غرفة واحدة. وغالباً ما يترافق هذا الاختلاط بالاستغلال الجنسي للأطفال، والعنف الزوجي، وسوء الأحوال الصحيّة.

إنّ أكثر من 80٪ من العائلات العائشة في وسطٍ ريفي، ليس لها حتى اليوم، ما يوفّر لها، على نحو نظامي وكافٍ، ماء للشرب، حسب معايير منظمة الصحة العالميّة. وفي أوساط المدينة، فإنّ 10٪ من العائلات تعيش في ظروف مماثلة.

ولكنّ النقصَ في التغذية وسوءَ التغذية يضربان الشعب البرازيلي على نحوٍ يختلف كليّاً، بين منطقة وأخرى. فإنّ أكثر الولايات فقراً هما ولايتا "مارانياهو" و"باهيا". فهناك، في عام 2003، كان 17.9٪ من الأطفال المعاقين، دون العاشرة من العمر، قد أصيبوا بالشلل بسبب النقص المزمن في التغذية. وفي الولايات الجنوبيّة، كان 5.1٪ منهم في الوضع عينه.

إنّ لأقصى الفقر وللجوع، لوناً أيضاً.

إبان الإحصاء الأخير، عرّف 45٪ من البرازيليين أنفسهم، على أنهم "برازيليّون من أصل أفريقي"، أو على أنهم "سود". والحال أنّ السود الواردين في فئة "الأكثر فقراً" (أي البالغين، ذوي الدخل اليومي الذي يقلّ عن الدولار الواحد) يفوق عددهم مرّتين عدد البيض.

وفي صفوف الأمّيّين، فإنّ عدد السود يفوق مرّتين ونصف المرّة، عدد البيض. وأما إحصائيّة الرواتب، فإنّها تكشف عن تمييز عرقي رهيب: ففي عام 2003، لم يكن السود الذين ينعمون براتب منتظم، لينالوا وسطيّاً إلا 42٪ من معدل مدخول البيض.

ثمّة تمييزٌ آخر يصيب النساء - ولا سيما النساء السوداوات. فإنّ مداخيل النساء، على اختلاف أحوالهنّ، هي، في الواقع، تقلّ بنسبة 37٪ عن مداخيل الرجال. ولكن المدخول الوسطي للمرأة السوداء، لا يمثّل إلا 60٪ من المدخول الوسطي للمرأة.

إنّ بنية ملكيّة الأراضي في البرازيل اليوم، هي من المخلّفات المباشرة للحكم الملكي البرتغالي والنظام الاستعبادي، اللذين سيطرا فيها طوال ثلاثمائة وخمسين عاماً. وكان ملك البرتغال قد ألِف أن يقدّم "هدايا" لأوفيائه، من رجال حاشية وقادة عسكريّين وأساقفة.

طوال القرن السادس عشر كلّه، وفترة هامة من القرن السابع عشر، كانت سواحل القارة الأميركيّة الجنوبيّة، وحدَها ترسم على الخرائط. وكانت أراضي الداخل، "أرضاً مجهولة". فكان الملك يقتطع لأوفيائه قسماً معيّناً من السواحل. وكانت جميع الأراضي التي يتسنّى لرجل الملك، في الداخل، أن يفتحها ويحتلّها و"ينشر فيها السلام"، تعود إليه. وكانت هذه الأراضي المفتوحة تسمّى " قبطانيّة".

كتب "جوزيه دو كاسترو" في مؤلّفه "جيوسياسيّة الجوع":

"إنّ نصف البرازيليّين لا ينامون، لأنهم جياع. والنصف الآخر لا ينام بدوره، لأنه يخاف ممّن يعانون الجوع".[9]

إنّ الاستراتيجيّة التي ينتهجها "لولا" من أجل التغلّب على بؤس الشعب، وتقليص غطرسة الأقوياء، سمّيت "برنامج إلغاء الجوع". وهي في القلب من السياسة التي يقودها "حزب العمّال" برمّتها. إنّها جوهر الثورة المضادّة للرأسماليّة، الثورة الشعبيّة والديمقراطيّة، الراهنة في البرازيل.

إنّ كلمة (الجوع) تُستخدَم هنا في أوسع معانيها. فالغرض هو إشباع جميع أشكال الجوع التي تستبدّ بالإنسان - جوع إلى الطعام

طبعاً، ولكن أيضاً جوع إلى المعرفة، والصحّة والعمل والحياة العائليّة، والحريّة، والكرامة. فإنّ هذا البرنامج، الذي يهدف إلى تحطيم بنى القهر، الواحدة تلو الأخرى، يتوجّب عليه أن يبدع الظروف الماديّة لتحرير جسم البشر وروحهم. وللرجل المتحرّر أن يقرّر بعد ذلك استخدام حرّيّته. فإنّ المسؤوليّة الفرديّة (والجماعيّة) هي في قلب هذا البرنامج. فالضحيّة تصبح فاعلاً. والفقير هو صانع تحريره الذاتي.

يحتوي البرنامج واحداً وأربعين إجراء فوريّاً. فثمّة عشرون وزارة ملتزمة بتحقيقه. والإجراءات ترتبط بثلاث فئات مختلفة:

السياسات البنيويّة لمكافحة الجوع.

السياسات المتخصّصة بمكافحة الجوع.

السياسات المحلّيّة في مكافحة الجوع.

إنّ السياسات البنيويّة تهدف إلى تقليص الهشاشة الغذائيّة لأكثر العائلات فقراً، بإتاحة الفرصة لها كي تحقّق بوسائلها الخاصة غذاءها المناسب. وهذه السياسات البنيويّة تتضمّن زيادة الحدّ الأدنى من الرواتب، وزيادة فرص العمل والتخفيف من العمل الموسميّ، وتأسيس وكالات متضامنة للقروض الصغيرة، وتكثيف الإصلاح الزراعي، وتعميم الضمان الاجتماعي، وتعميم المنحة الدراسيّة والمدخول الأدنى للعائلات الفقيرة، ودعم الزراعة العائليّة.

إنّ السياسات المتخصّصة تهدف إلى ضمان التحصيل المباشر، لتغذية أكثر الناس هشاشةً. وهي ضروريّة على المدى القريب، لمساعدة الذين لايملكون أيّة وسيلةٍ للحصول على تغذيةٍ ملائمة. وتضمّ هذه السياسات المتخصّصة تعميم البطاقة الغذائيّة وقسائم غذائيّة، وتوزيع سلل غذائيّة طارئة، ومراقبة سلامة ونوعيّة الأغذية، وإصلاح برنامج العمال الغذائي، ومكافحة النقص في تغذية الأمّ والطفل، ونشر مبادئ التربية الغذائيّة، وتحسين الوجبات المدرسيّة.

وتهدف السياسات المحليّة إلى تطبيق "البرنامج" على مختلف ظروف الحياة، في الريف، في المدن الصغرى والمدن العملاقة. وتنطوي هذه السياسات على دعم الزراعة العائليّة، والإنتاج الهادف إلى الكفاية الغذائيّة العائليّة في الريف، وعلى تنظيم الأسواق المحليّة، وتحسين التبادلات بين المنتجين والمستهلكين داخل المنطقة الواحدة، في المدن الصغرى، وعلى إحداث مطاعم شعبيّة، ومصارف غذائيّة، وعلى الحدّ من مركزيّة أماكن تبادل الأغذية في المدن الكبرى.

بدأ العمل بهذا البرنامج في شهر شباط من عام 2003، في ولاية "بياوي" (Piaui)، وهي ولاية شماليّة مجاورة لولايات "مارانيو" و"باهيا" و"بارا" و"برنامبوك". ولكن في بدء الفصل الثاني من عام 2004، لم تكن قد استفادت من هذا أو ذاك من إجراءات "برنامج إلغاء الجوع"، إلا 140.000 عائلة. إنّه لإخفاقٌ إذن حتى الساعة. لماذا؟

إنّ "برنامج إلغاء الجوع" يحتاج، كي يتحوّل إلى واقع، إلى ملايين الدولارات في الاستثمارات العامّة. ولكن صناديق الدولة في "برازيليا" خاوية. إنّ فوائد وتغطية الدَّين، تبتلع عمليّاً كلّ الأموال المتوفّرة!

III- شبح سلفادور الينديه

لا يترتّب على البرازيل اليوم، كما في رواندا، تسديد أثمان الفؤوس التي استوردها قتلة الشعوب، ولكن تسديد الديون الفلكيّة التي فرضها مصرف "الاكسيمبنك" (وهو مصرف أميركي عمومي، متخصّص في تمويل الصادرات) وصندوق النقد الدولي، والمصارف الخاصّة، الأوروبيّة واليابانيّة والأميركيّة الشماليّة، على الدكتاتوريّين العسكريّين والرؤساء الفاسدين. ذلك لأنّ الدكتاتوريّين لم يكتفوا في الواقع، بإلغاء الحريّات العامّة وتعذيب دعاة الديمقراطيّة، بل كانوا قد نهبوا البلد من ثرواته، وموّلوا أعمالاً "عملاقة"، في خضوع تامّ للمصالح الماليّة لا غير، التي تعود لرعاتهم في الشمال الأميركي. وأمّا الرؤساء الذين تعاقبوا فيما بعد، فقد شجّعوا (في معظمهم) الفساد،[10] وأخضعوا للخصخصة المشاريع العامّة المنتجة، لصالح الرأسمال المضارب الأجنبي.

إنّه إذن لدَينٌ كريهٌ حقّاً، يُفترض بالرئيس "لولا" أن يسدّده اليوم.

إنّ "ماركوس اروداً" (Marcos ARRUDA) هو النظير البرازيلي لـ "اريك توسان" (Eric TOUSSAINT). فهو، منذ عقود، يكرّس في نضاله ضدّ مشنقة الدَّين، طاقته الجبّارة، وعلمه الموسوعي وذكاءه كباحث. فقد أمضى سنوات منفاه في جنيف (وهو، عائليّاً، مرتبط بسويسرا)، وهو ينتقد دون هوادة، ليس فقط سياسة الاستدانة في بلده، ولكن أيضاً الخطط المصرفيّة الأوروبيّة والأميركيّة، المسؤولة عن هروب رؤوس الأموال الخاصّة من البرازيل.

في عام 2002 - وهو العام الأخير في رئاسة فرناندو كاردوزو - ابتلعت فوائد الدَّين وحدها، 9.5٪ من النتاج الداخلي الصرف. وكان

هذا المبلغ يفوق خمس مرّات، جميع النفقات التي قامت بها الدولة الفيدراليّة، وجميع الولايات التي يتألّف منها الاتحاد، في ميدانَي التدريس والصحة.

وفيما يتعلّق بعام 1999، فقد أجرى "اروداً" هذا الحساب. في ميزانيّة الدولة الفيدراليّة، فإنّ خدمة الدَّين فاقت خمسَ مرّات خدمة الصحّة العامّة، وتسع مرّات خدمة التربية الوطنيّة، وتسعةً وستّين مرّةً خدمة "المعهد الوطني لاستصلاح الأراضي والإصلاح الزراعي" (INCRA).

عندما تسلّم السلطة "لولا" في 2003/1/1، كان الدَّين الخارجي (الديون العامّة والخاصّة مجتمعةً) يبلغ أكثر من 235 مليار دولار. وهو يحتلّ المركز الثاني في ترتيب جميع الديون الخارجيّة في بلدان العالم الثالث. وهو يعادل المداخيل التي حصدها البرازيل من مستورداته، خلال السنوات الأربع الأخيرة. ولسوف يبقى "برنامج إلغاء الجوع" حبراً على ورق، طالما لن يتسنّى للحكومة البرازيليّة الحالية، أن تفرض تأجيلاً - أحادي الجانب إن اقتضى الأمر - لتسديد دَينها.

كيف وصلوا إلى ما وصلوا إليه؟

يوم قام الانقلاب (في نيسان عام 1964)، كان دَين البرازيل الخارجي يبلغ 2.5 مليار دولار. وفي نهاية حكم الجنرالات، بعد مضي إحدى وعشرين سنة، كان الدَّين قد بلغ 100 مليار دولار. لماذا؟

كانت ثمّة استراتيجيّتان تهيمنان على الأنظمة العسكريّة المتلاحقة بين عام 1964 وعام 1985: إنهما استراتيجيّة "الأمن الوطني"، واستراتيجيّة "التنمية المتكاملة". فأُقيم جهاز قارّي واسع، من أجل الرقابة والقمع، ومطاردة الديمقراطيّين. وكان يقتضي نفقاتٍ هائلةً. فاسترخصوا أعلى النفقات من أجل ضمان "الأمن الوطني". فساهم

مصرف "الاكسيمبنك"،[11] والمصارف الخاصّة الكبيرة، وصندوق النقد الدولي بمليارات الدولارات، في الوسائط الضروريّة للحفاظ على هذا الجهاز وتطويره.

إنّ ما قامت به الأنظمة العسكريّة من توسّع ضخم، ومن إعادة تسليح وتنظيم وتحديث، في البحريّة والقوى الجوية والبريّة، قد استهلك بضع عشرات من مليارات الدولارات، من قروض عامّة وخاصّة أميركيّة، إضافيّة، كان يقدّمها دائماً مصرف "الاكسيمبنك" والمصارف الخاصّة أو صندوق النقد الدولي.

إنّ استراتيجيّة "التنمية المتكاملة"، من جهتها، كانت تهدف إلى فتح المناطق البرازيليّة، القليلة السكّان، عن طريق إنشاء شبكات طرقيّة ومدن استيطانيّة. وقد استهدفت، قبل كلّ شيء، غابة الأمازون، وهي أوسع غابة استوائيّة في العالم. فإنّ حوض الأمازون يغطّي مساحة تقارب ستّة ملايين كيلومتر مربّع.

طوال الإحدى وعشرين سنةً التي تواصلت فيها الدكتاتوريّة العسكريّة، دُمِّر وأُحرِق أكثر من مليون كيلومتر مربّع من الغابات. ومُنِحت أكثر من 90٪ من هذه الأراضي المستصلحة، إلى الشركات الدوليّة المختصّة بالزراعات الغذائيّة وتربية الماشية. فأقامت فوق المساحات المحروقة، الشركات الأميركيّة الشماليّة، المختصّة بالزراعات الغذائيّة، والشركات الدوليّة المختصّة بتربية الماشية، مزارع ضخمة لزراعة لشجر المطاط والبلاذر والقمح، ومراعٍ مختصّة برعاية الأبقار على نطاق واسع.

ونُقل مئات الألوف من فئة عمّال "الأبقار الباردة"، والعمال الريفيّين الذين لا أرض لهم، بوصفهم يداً عاملةً شبه مستعبَدة، من ولايات الشمال والشمال الشرقي، الجافّة، إلى المجمّعات الزراعيّة-الصناعيّة في أراضي "الأمازون" و"البارا" و"الأكر" و"روندونيا".

إنّ جميع هذه الإنشاءات، من طرق ومدن جديدة، وأعمال تدمير الغابات، وعمليّات تهجير العمّال وعائلاتهم، وإقامتهم في أماكنهم الجديدة، وإنّ جميع أعمال البنى التحتيّة، وجميع مراكز توليد الكهرباء بالطاقة المائيّة، والسدود الضخمة المقامة على الأنهر، كلّ ذلك، بالطبع، تمّ بتمويل قروض أجنبيّة. ولكن الدَّين تضاعف أيضاً بالشروط الممتازة التي منحتها الدولة للشركات الدوليّة، في ما يتعلّق بنقل أرباحها وامتيازاتها الضريبيّة، بالقطع النادر...

في أواخر عام 1979، رفعت الولايات المتّحدة فجأةً، نسبة فوائدها. فغاص البرازيل في الأزمة. وفي سعيه إلى تمويل تسديد الفوائد، وأهمّ ما عليه من دَينه القديم، عمد النظام العسكري إلى استدانات جديدة من الخارج، معظمها من المصارف الخاصّة في الولايات المتحدة - وبالدرجة الأولى من مصرف سيتي بنك.

ولكن لم يطرأ أي تحسّن. فما بين عام 1979 وعام 1985، نقل الجنرالات على حساب خدمة الدَّين، 21 مليار دولار أكثر ممّا تلقّوا من قروض جديدة.

وفي عام 1985، حلّ رئيسٌ مدني غير منتخَب، يدعى "جوزيه سارنيه"، محلّ الجنرال الدكتاتور، "فيغيريدو"، وهو الرئيس الأسبق للاستخبارات. وقد عيّنه البرلمان، الذي يسيطر عليه حزب (ARENA)، (وهو الحزب السياسي الذي أحدثه العسكريّون)، فقرّر "جوزيه سارنيه" التوقيف المؤقّت لتسديدات القروض السنويّة.

ثمّ عاد الرؤساء اللاحقون إلى تشغيل الألة الجهنميّة: الاستدانة من أجل التسديد، وذلك ضمن شروط جَلَبت المزيد من الكوارث للبرازيل.

كان 27 مليار دولار من المبالغ المسدّدة، يأتي من الصندوق العام في برازيليا.

وقد مارس الرئيس "فرناندو كاردوزو"، خلال ولايته الثانية، سياسة بلغت فيها نسبة الفوائد ارتفاعاً حادّاً. وكان هدفه مفهوماً ومشروعاً بالكليّة: كان يريد جلب أكبر قدر من رؤوس الأموال. ولكن هذه النسب كانت أعلاها على وجه الأرض: وفي بعض الأحيان، بلغت حدوداً غير معقولة. فجلبت هذه السياسة نتائج اقتصاديّة داخليّة، كارثيّة.

وفي الواقع، لم يكن بمقدور أي صناعي متوسط، وحرَفي أو تاجر، مقيم في البرازيل، أن يجيز لنفسه أن يلجأ إلى قرض مصرفي، ليطوّر مشروعه وينشئ فرص عمل. وجميع الذين كان مشروعهم (أو ممتلكاتهم الخ...) مثقلة بالقرض، اضطرّوا لأن يقلّصوا أعمالهم، ويطهّروا مشاريعهم، ويسرّحوا موظّفيهم وعمّالهم.

وكان لسياسة الفوائد المرتفعة، نتيجة أخرى خبيثة: فقد شجّعت المضاربة الماليّة. فكان المضاربون الوطنيّون والأجانب يرتبطون في السوق العالميّة، بقروض شخصيّة، تتراوح فوائدها بين 10 أو 12٪، ثمّ يشترون أقساطاً من الدَّين البرازيلي العام، تعود عليهم بفوائد فلكيّة. فكانت بمثابة فرصة العمر. حتى لو أخذنا بالاعتبار، إرغام المقترض، على الالتزام بضمان، في ما لو بات عاجزاً عن التسديد.

واليوم، فإنّ الدَّين البرازيلي الخارجي يقابله هؤلاء الأطفال المرضى، الذين تملأ الديدان بطونهم، والذين باتوا محرومين من النظام المدرسي، ومحرومين من الحياة العائليّة، الذين يستبدّ بهم اليأس والأفق المسدود.

قالت لي طفلة من الشوارع، على درج دير الكرمل، في مدينة "ريسيفيه":

"لدي صمغ (وهو المخدر الذي يشمّه الأطفال لينسوا جوعهم)، لأنه ليس لي حياة".

إزاء الوضع الكارثي للاقتصاد البرازيلي، منح صندوق النقد الدولي لبرازيليا، في مطلع عام 2002، ما كان قد رفضه في الوقت نفسه، للأرجنتين: قرضاً "للخروج من الأزمة". وكان قرضاً ضخماً، وكان أكبر قرض يقدّمه صندوق النقد الدولي لبلد ما، عبر تاريخه كلّه. كان يبلغ 30 مليار دولار. وكان لصندوق النقد الدولي سببان لإقدامه على ذلك.

كان مصرفيّو "وول ستريت"، نظراً للانهيار المتسارع للوضع الاقتصادي في البرازيل، يخشون على قروضهم. أفلم يكن "سادة الأرض" يجازفون بخسارة قسم كبير من استثماراتهم، في صناعة الأغذية، والصناعة، والخدمات والسوق الماليّة المحليّة؟ فمارسوا إذن الضغط على صندوق النقد الدولي.

أذكر بعد ظهر مغمور بالشمس، تملأه زقزقة العصافير الواقفة على أشجار السنديان في حديقة "فيلا بارتون"، في جنيف. كان آنذاك ختام ورشة عالية التقنيّة، في قاعة المحاضرات الكبرى، فوق كافيتيريا المعهد الجامعي للدراسات الدوليّة العليا. وكانت السيّدة "آن كروغر" (Anne KRUEGER)، المديرة العامّة المساعِدة في صندوق النقد الدولي، قد طرحت أفكارَها حول السياسة القادمة للصندوق، إزاء الدول العاجزة عن التسديد. وكان في القاعة، حشدٌ من الطالبات والطلاب ومن الأساتذة، ومحلّلي الشركات الماليّة، وأصحاب المصارف الخاصة المحليّة، ومدراء البنك الوطني، ومسؤولون كبار في هيئة الأمم المتحدة.

إنّ "آن كروجر" امرأة مربوعة القامة، ذات أناقة نسبيّة، ولكن لغتها قشيبة، علميّة ومباشرة. إنها منفّرة بعض الشيء. وهي أستاذة سابقة في جامعة "ستانفورد"، والمسؤولة الأولى عن اقتصاد المصرف الدولي، في عهد الرئيس "رونالد ريغن"، وهي المتحكّمة كلّيّاً بمجريات صندوق

النقـد الـدولي. وإنّ جهلـها لحيـاة الشـعوب اليوميّـة، لسـحيقٌ. وإنّ تحكّمها بالآليّة الماليّة الدوليّة، لمدهشٌ.

إنّها، اليوم، مع "جين كيركباتريك"، المتبقية أيضاً من عهد ريغن، ومـع "كونـدوليزا رايـس"، أقـوى امـرأة في الجنـاح اليمـيني مـن الحـزب الجمهوري. وإنّ "جورج دبليو بوش" ليستشيرها في انتظام.

في ختـام محاضـرتها، أرادت التجـوّل في الحديقـة. كانـت ترتـدي ثوبـاً رمادياً وتنتعـل حـذاءً مسـطّحاً، ولهـا نظـارات سـوداء. كـان شـعرها الملـون المنكوش يلوّحـه الهـواء. فاتّجهـت بخطـوات واسـعة نحـو البحيرة. كـان برفقتها جمعٌ صغيرٌ من المصرفيّين، وبعض موظفي هيئة الأمم المتحدة. كنت أسير في الصف الثالث خلفها. ولكني سمعت الحوار دون عناء.

سـألها في خجـل، مصـرفيٌ مـن جنيـف، وقـد اسـتبدّ بـه القلـق ممّـا سمع في المحاضرة، كيف يمكن لصندوق النقـد الـدولي أن يقـرّر قرضـاً بثلاثين مليار دولار، لصالح بلدٍ في شبه إفلاس. وجاءه جواب "كروغـر" صاعقاً: "بسبب الضغط القوي لمصرفيّي وول ستريت".

أمّـا السـبب الثـاني الـذي دفـع صـندوق النقـد الـدولي إلى مـنح البرازيل هذا القرض الخيالي، فهو أكثر دقّة.

إنّ البرازيل تتمتّع تقليديّاً بقطاع عمومي قوي، وهو مـربح بصـورة عامّـة. فـإنّ جميـع الفعاليّـات الصـناعيّة، التابعـة لقطاعـات تسـمّى اسـتراتيجيّة - مـن نفـط وكهربـاء ومنـاجم وأنظمـة مواصـلات الخ... - هـي ملـك للدولـة: إنهـا إرث الدكتاتوريـة التعاونيّـة مـن عهـد "جيتوليـو فارغاس"، وقد احترمتها الدكتاتوريّة العسكريّة احتراماً تامّاً... والحـال أنّ "كاردوزو"، الذي كان يؤيّد المبادئ الليبيراليّـة تأييداً كاملاً، كـان قـد حاد عن هـذه السياسـة، فخصـخص عـدداً كبيراً مـن شـركات الدولـة - خصوصاً في ولايته الثانية.

وعنـدما طبّقـت هـذه السياسـة المتسـارعة في الخصخصـة، اختفـت

على نحو غريب مليارات الدولارات، في جيوب أعضاء من مجلس الشيوخ، والنواب ووزراء آخرين (أو بعض الوسطاء). فاصطدمت على الفور سياسة الخصخصة، منذ عام 2001، بمقاومة شعبيّة متفاقمة. من ذلك إنّ الإداريّين والمستخدمين والعمّال في شركة "بتروباس" (PETROBAS)، قاوموا، بالإضراب والعديد من الدعاوى لدى المحاكم، بيع مشاريعهم في المزاد العلني.

وكان أن انزعج جداً سادة الشركات الدوليّة الكبرى، واللصوص الآخرون، وقد باتوا مهدّدين بفقدان صفقات ممتازة. وفجأةً رفض "كاردوزو" أن يواصل اللعبة. فبات الوقت ملائماً جداً لتلقينه الدرس: "عليك أن تواصل سيرورة الخصخصة، أو نعاملك بالطريقة التي عاملنا بها الأرجنتين!".[12]

لقد قُيِّد قرض "الخروج من الأزمة"، إذن، بضرورة مواصلة الخصخصة.

كانت الانتخابات الرئاسيّة مقرّرة في شهر تشرين الأول عام 2002.

إنّ البرازيل بلد عصري، يمتلك معاهدَ موثوقةً لسبر الرأي العام. وخلال الأشهر الأخيرة من شتاء 2002، أخذت المنحنيات والأرقام التي تنشرها هذه المعاهد، تُبدي تبدّلاً شاسعاً في الرأي العام. وكان المرشح الليبرالي الجديد، "جوزيه سيرّا"، وهو وزير صحّة سابق، ورجل "كردوزو"، يفقد النقاط بسرعة في عمليّات سبر الرأي. وكان "لويز اناسيو لولا داسيلفا"، وقد انضمّ تدريجيّاً إلى قطاعات كاملة من الصناعة الثقيلة، والماليّة، والقسم الأعظم من الطبقات الوسطى، فضلاً عن الطبقات الشعبيّة، يواصل استقطاب الأصوات حول اسمه.

وبدءاً من شهر آب، كان صعوده صاعقاً.

في واشنطن، أخذت صفارات الإنذار تُعوِل. ودبّ الهلع في زوريخ، ولندن وفرانكفورت وباريس ونيويورك.

وكان السبب وجيهاً. فمنذ أكثر من عشرين سنة، كان موقف "حزب العمال" وزعيمه، ثابتاً، لم يطرأ عليه أي تبدّل: يجب إلغاء الدَّين، عن طريق المفاوضات الدوليّة، إن أمكن، ولكن، إن ألحّت الضرورة، بمبادرة أحادية الجانب وإراديّة.

كان برنامج "حزب العمال"، منذ صيغته الأولى عام 1979، يحتوي بالفعل تحليلات ومواقف، على جانب تام من الوضوح، ومن الصرامة القوية، بشأن مساوئ الدَّين وضرورة رفض الدفوع المرتبطة به. فكان يرى "حزب العمال" أن لا مخرج ممكناً من البؤس، إلا بإلغاء الدَّين.

كان "لولا"، مثل "سلفادور اليندیه"، قد رشّح نفسَه مرّاتٍ عديدةً بتصميم وعناد، للعديد من الانتخابات الرئاسيّة. ففي عام 1989، لم يخسر أمام "فرناندو كولورديه ميلو"، إلا بفارق طفيف. وبعد أربع سنوات، واجه للمرة الأولى، "فرناندو كردوزو"، وخسر خسارةً مؤلمةً، إذ انتخب "كاردوزو" منذ الجولة الأولى. وبعد أربع سنوات، تبدّل السيناريو، إذ كان "كاردوزو" يكافح من أجل إعادة انتخابه، فواجهه "لولا" بقوة. ومع ذلك، فقد انتخب "كاردوزو" في الجولة الثانية.

أما معركته عام 2002، ضدّ "جوزيه سيرّا"، فقد ربحها "لولا" بأغلبيّة ساحقة كما هو معروف.

وبمناسبة كلّ من حملاته الرئاسيّة، وضع "لولا" في صميم برنامجه، إلغاء الدَّين، كما وضع تشكيل تجمّع بين المديونين. وكانت الفكرة قد اختمرت داخل الاشتراكيّة الدوليّة. وكان "ويلي برانـدت" (Willy BRANDT)، زعيم الاشتراكيّة الدوليّة منذ عام 1976، قد كافح بقوة في سبيلها، حتى وفاته في شهر أيلول من عام 1992. كان إنشاء جبهة من البلدان المديونة، تبدو له، في الواقع، ضرورة مطلقة. ذلك بأنّ بلداً منفرداً - حتى لو كان بلداً قويّاً مثل البرازيل - لن يظفر بشيء، لا ضدّ صندوق النقد الدولي، ولا ضدّ الدائنين الخصوصيّين المتحالفين. كان لا بدّ

للمفاوضات أن تكون جماعيّةً بالضرورة. فإنّ تحطيم القيود يقتضي تحالف العبيد. ولن يمكن فكّ حبل المشنقة، إلاّ بالعمل المشترك.

لم يصبح "حزب العمّال" على نحو رسمي، عضواً في الاشتراكيّة الدوليّة، إلاّ في مؤتمرها المنعقد في "ساو باولو"، في شهر تشرين الأول عام 2003. ولكن منذ عقدين من الزمن، كانت روابط قويّة قد عُقدت بين الاشتراكيّة الدوليّة و"حزب العمّال". وقد تمّ ذلك خصوصاً بفضل العمل الدؤوب الذي قاده قائدان برازيليّان مستقلاّن (خارج كلّ تصنيف سياسي): إنهما "ادواردو سوبليشي"، عضو مجلس الشيوخ عن "حزب العمّال" في "ساو باولو"، والقائد التروتسكي "لويس فافر"، وهو من أصل فرنسي - أرجنتيني، والمستشار في شؤون السياسة الدوليّة في قيادة "حزب العمّال".

قبل انتخاب "لولا" بفترة طويلة، دار هذا الحديث بينه وبين "اريك توسان". قال له "لولا": "نحن نعتقد أنّ ما من بلد في العالم الثالث، قادر على تسديد دَينه. ونعتقد أنّ كلّ حكومة في العالم الثالث، تقرّر مواصلة تسديد دَينها الخارجي، تقود شعبها إلى الهاوية. فهناك انعدام توافق تام بين سياسة التنمية في بلدان العالم الثالث، وتسديد الدَّين. ونحن ندعو إلى الامتناع فوراً عن تسديد الدَّين".

لماذا؟

يجيب "لولا":

« يسعنا بالأموال غير المدفوعة أن نشكّل صندوقاً للتنمية، يُخصَّص لتمويل البحث وتطوير التكنولوجيات، والتعليم، والصحة، والإصلاح الزراعي، وسياسة التقدّم لمجموع دول العالم الثالث. وهذا الصندوق سيخضع لمراقبة البلد نفسه، انطلاقاً من مرجعيّة يجب إنشاؤها، وعليها أن تضمّ البرلمان والحركات النقابيّة والأحزاب السياسيّة. وعليهم أن يشكّلوا هيئة، مهمّتها إدارة هذا الصندوق ».

وكيف نواجه الخصم؟ وكيف نفاوضه؟

"لولا":

« يجب أن نخلق جبهةً من البلدان المديونة لمواجهة البلدان الدائنة. من الضروري توحيد بلدان العالم الثالث، حتى تفهم كلّ حكومةٍ أنّ مشاكلها هي هي مشاكل حكومات سائر بلدان العالم الثالث. فما من بلد يستطيع بمفرده أن يجد حلاًّ لديونه. وإنّه لمهمٌّ أيضاً ألا يجري النقاش حول الدَّين الخارجي بين الحكومة والمصارف، ولكن بين حكومة وحكومة. ويجب أيضاً أن نحوّل مسألة الدَّين إلى مشكلة سياسيّة. ولا يجب أن نكتفي بمناقشة مسألة الدَّين (بوصفه دَيناً)، ولكن يجب أن نناقش ضرورة إنشاء نظام اقتصادي عالمي جديد. فلا يجوز أن نواصل بيع موادّنا الأوليّة بأسعار بخسة، ونواصل شراء المنتوجات المصنّعة بأسعار خياليّة! ».

ويضيف "لولا":

« إنّ هذه الحزمة من الإجراءات لن تتحقّق إلا بالعمل السياسي. والعمل السياسي، هو الضغط عبر الحركات الاجتماعيّة. وإذن لا بدّ من تحويل الدَّين إلى قضيّة يتعاطى بها الشعب ».[13]

وحتى شهر آب من عام 2002، لم يغيّر "لولا" موقفه قط، حول هذه النقطة.

إنّ السلاح المفضّل لدى سادة الدَّين، هو الابتزاز. وهم فيها بارعون. وقد خبر "حزب العمّال" هذا الأمر، منذ شهر تمّوز عام 2002. فقد أخذت صحيفة "وول ستريت جورنال"، تمطر قرّاءها بمقالات، تحذّر فيها الدائنين الدوليّين، من انتصار "لولا" الاشتراكي، المحتمل.

ضياع مليارات الدولارات في ليلة انتخابيّة واحدة؟ إنّه الهول

المطلق لكلّ مصريٍّ طبيعي. وعندها أخذ خبراء "بريتون وودز" (Bretton WOODS) وصنّاع الفكر الأميركيّون، ومحلّلو البيوتات الكبرى في مراكز البورصات الرئيسيّة في العالم، يعلنون عن هول الكارثة المطلقة الوشيكة بسبب "تهرّب" البرازيل.

وكلمة تهرّب بالانكليزيّة، هي عبارة تقنيّة تشير إلى الامتناع الأحادي الجانب عن التسديد من قبل مديون. وفي التشريعات الوطنيّة للدول، ثمّة قوانين تجيز ملاحقة من يُعلن الإفلاس، ضمن بعض الشروط. ولكن لا يوجد ما يقابل ذلك على الصعيد الدولي.

وعرفت التهديدات مزيداً من كثافة وحدّة، كلّما كانت أيام شهر آب الدراميّة تمضي. وقد هوجم "الريال" البرازيلي في جميع المراكز الماليّة العالميّة، وفقد قسماً هامّاً من قيمته.

كان الابتزاز على درجة تامّة من الوضوح: فلئن كان الشعب البرازيلي، لسوء طالعه، ينتخب "لولاً"، فإنّ "الريال" سينهار كلّيّاً، وسيوضع البرازيل خارج الشرعيّة الدوليّة، وسوف ينسحب من أرضه جميع المستثمرين الأجانب، وسيحلّ البؤس المطلق عندها، في ربوعه.

تلقّت الطبقات الوسطى معاملةً خاصّةً: فقد شرح لها "الخبراء" أنّها ستكون أوّل الخاسرين. ولسوف تتساوى، في اقتصاد منهار، وفي زمن قياسي، مع أفقر فقراء الفافيلات. فردّدت أوسع محطّات التلفزيون الوطنيّة وأكثرها تأثيراً، وهي محطة "ريديه كلوبو" (Rede GLOBO)، مع محطات أخرى، هذه التنبّؤات الكارثيّة، المستلهمة من واشنطن. ومشى في ركابها أيضاً عدد كبير من الصحف المتنفّذة، ومن محطّات الراديو اليمينيّة. وكان في طليعتهم صحيفة "الكون" (O GLOBO)، والصحيفة "التجاريّة"، (la GAZETA MERCANT) وصحيفة "ولاية ساو باولو" (ESTADO de SÃO PAULO).

وكان على "حزب العمّال"، وجميع القوى الشعبيّة، التي يجسّد آمالها، أن تردّ.

في نهاية شهر آب، وجّهت قيادة "حزب العمّال" رسالةً إلى صندوق النقد الدولي، تؤكّد فيها أنّ مرشحها، في حال نجاحه، سينفّذ بأمانة جميع الالتزامات الماليّة، التي كان الرئيس "كاردوزو"، قد تعهّد بها.

وربح "لولا" انتخابات 27 تشرين الأول 2002، في الدورة الثانية.

وأعلن على الفور تأييده لاستقلال البنك المركزي، وصرّح عن نيّته تعيين أكثر المصرفيّين رجعيّةً في البلد، على رأسه، وهو "هنريكه ميريليس". وكان هذا الرجل (ولا يزال) يحظى بكراهيّة الجميع له في البرازيل.

من المصارف الخاصّة العالميّة، التي نظّمت، جيلاً بعد جيل، نهب البرازيل على نحو منتظم، فإنّ مصرف "سيتي غروب" (CITY GROUP)، الذي يرتبط بمصرف "سيتي بنك"، وهو أكبر مصارف العالم، ومصرف "فليت بوسطن بنك"، قد لعبوا دوراً مفصليّاً. والحال أنّ "ميرليس" كان رئيس "فليت بوسطن بنك"، وهو ثاني المصارف الدائنة (بعد ستي بنك) للبرازيل. بالطبع، كان تعيينه من قبل "لولا" يخضع لسبب استراتيجي: كان لا بدّ من تهدئة قلق "وول ستريت".

في البرازيل، إنّ الوزارة المفصليّة في الحكومة، هي وزارة الاقتصاد والمال. والمسؤول فيها يتمتّع بخبرات واسعة، وبتأثير حاسم على مجموع زملائه. كان "كردوزو" قد كلّف بها اقتصاديّاً ذا سمعة عالميّة، هو "بيدرو مالان"، المدير السابق لصندوق النقد الدولي. فعيّن "لولا" في هذا المركز، طبيباً تروتسكيّاً، يُدعى "انطونيو بالوتشي". وأصبح "لويس فافر"، هذا المثقّف اللامع، مستشاره الخاص. وعيّن أيضاً في مركز وزير الاتصالات، وهو مركز مفصلي في جهاز الحكومة، مسؤولاً في الاشتراكيّة الرابعة، يُدعى كوشيكن" (Gushiken).

إن كان من عبارة تثير اشمئزازي دائماً، فهي عبارة "ثقة الأسواق". فيتوجّب على شعب ما، كي لا يهاجَم ويدمَّر ويُركّع من قبل الرأسمال المعولم، أن يكتسب "ثقة الأسواق" - بسلوكه الاقتصادي. ولكن كيف السبيل إلى اكتساب هذه "الثقة"؟ أن يخضع، بكلّ بساطة، بجسمه وفكره وروحه، إلى أوامر "سادة الأرض". فإنّ "سادة الأرض"، بهذا الشرط، وبهذا الشرط وحدَه، يقدّمون تعاونهم للشعوب الكادحة.

إنّ ظلّ "سلفادور الينديه" يحتلّ المخيّلة الجماعيّة في أميركا اللاتينيّة. وإنّ شبحه ليحوم في قصر "البلانالتو" الرئاسي، في برازيليا.

إنّ "سلفادور الينديه" كان، منذ نهاية عام 1970، قد أثار غضب "سادة الأرض"، بتأميمه مناجم النحاس (ومنها منجم "شوكيكاماتا"، وهي أعظم مناجم الأرض في الهواء الطلق)، وبتطبيقه لمعظم مقترحات الإصلاح الاجتماعي، المائة وعشرة، التي كان الاتحاد الشعبي قد تقدّم بها، وكذلك أيضاً بإدخاله ضريبة على الشركات الدوليّة الكبرى.

تشكّلت في واشنطن، في سرّيّة مطلقة، "لجنة الأربعين"، وكان يرئسها "غرين" (GREEN)، وهو رئيس إدارة أضخم الشركات الدوليّة في العالم آنذاك، وهي "الشركة الدوليّة للهاتف والتلغراف" (ITT). وكانت اللجنة تضمّ أهم الشركات الأجنبيّة الأربعين، الناشطة في التشيلي، التي يجتمع فيها، فضلاً عن شركات المناجم "اناكوندا" (ANACONDA) و"كينيكوت" (KENNECOTT)، عدد آخر من أقوى الشركات الدوليّة في العالم.

وفي نهاية عام 1970، نظّمت هذه "اللجنة"، بدعم من نيكسون وكيسنجر والمخابرات المركزية الأميركية (CIA)، تدميراً اقتصاديّاً، منتظماً، لحكومة الوحدة الشعبيّة.

وفي 1973/9/11، هاجمت الطائرات والدبابات التشيليّة، بتوجيه من البنتاغون، قصر "المونيدا" الرئاسي، في قلب سنتياغو. وقتل "سلفادور الينديه"، في الساعة 14.30، برصاصة في رأسه، وهو في مكتبه، في الطابق الثاني من القصر. وحلّت محلّه دكتاتوريّة دمويّة، وكان أن هبط الليل على التشيلي.

إنّ "سلفادور الينديه" ووحدته الشعبيّة، لم يعرفا أن يكتسبا "ثقة الأسواق".

إنّ الاتفاق المعقود بين صندوق النقد الدولي والرئيس "كردوزو"، كان يُرغم البرازيل على إصدار صكّ، بشأن فائض في الميزانيّة لا يقلّ عن 3.75٪. ولكن ما هو هذا "الصك"؟ إنّه بكلّ بساطة، يعني فائضاً في المداخيل، حول النفقات المتوقّعة في ميزانيّة الدولة.

هذا "الصك" هو بالطبع الضمانة بأنّ الدولة المَدينة، سوف تستطيع - خلال السنة المعنيّة بالميزانيّة - أن تسدّد التزاماتها بشأن تسديد ديونها.

والحال أنّ "بالوتشي" أعلن، منذ سنته الأولى في الوزارة، أنه لن يحترم الالتزامات التي تعهّد بها "كردوزو" و"مالان" وحسب، بل أنّه سيرفع "الصك" - بمبادرته الذاتية - إلى 4.25٪ لعام 2003!

لم يكن بوسع أحد أن يفعل أكثر ممّا فعل، ليكسب "ثقة الأسواق"، مرّة أخرى.

إلى أين تمضي الثورة السلميّة والصامتة في البرازيل؟ إنّ مآل المعركة من أجل إلغاء الدَّين، سوف يأتينا بالجواب. وهذه المعركة قادمة.

إنّ أولى المراحل التي يتوجّب اجتيازها في هذا الطريق، هو إصدار كشف للحسابات. وإنّ الفكرة لبسيطة: إنّ برلمان البلد المَدين، يطالب بحقّه في فحص نشوء الدين، وتحليل تركيبته والتصريح أخيراً عن القروض التي عُقدت في الشرعيّة والشفافيّة، وتلك التي كانت ثمرة

تضخيم في الأرقام، ومضاربات كاذبة، وتزييف للوثائق، باختصار، ثمرة احتيال. ذلك بأنّ تضخيم الدَّين يصبّ في صالح الطرفين، طرف المسؤولين الوطنيّين الفاسدين، الذين يعقدون القروض، وطرف الدائنين الأجانب، الذين يمنحونها، لأنّ المسؤول الوطني الفاسد يأخذ عمولته وفقاً لقيمة مبلغ القرض، فيما المصرفي الدائن، سيحصل على فوائد مرتفعة.

ولنتّخذ مثالاً على ذلك، ما حصل في عهد الدكتاتوريّة العسكريّة.

إنّ مَن مَنَح العسكريّين السلطة في برازيليا، هي "المخابرات المركزيّة الأميركيّة" (CIA)، ووزارة الدفاع الأميركيّة. ولكن المسؤولين في وزارة المال الأميركيّة، ومصرفيي "وول ستريت"، كانوا يحتقرون ذكاء الجنرالات. وفرضوا عليهم بالتالي "دلفيم نيتو" (Delfim NETO).

كان "دلفيم نيتو" صاحب خبرات واسعة، فأصبح أصغر وزير للاقتصاد والمال في البرازيل، سنّاً، (وربما منٍ أقواهم). فجلب معه فريقاً من الاقتصاديّين المختصين، وجلّهم متخرّجون من جامعات الولايات المتحدة. وكانوا صلفين، طموحين وجشعين، فأخضعوا الاقتصاد البرازيلي لهواهم.

كان "دلفيم" قد تجاوز قليلاً الثلاثين من العمر عند تعيينه. وكانت نظارتاه السميكتان، بسبب حسر في بصره، تُبرزان وجهه الطفولي المكتنز، فكان وجهاً غريباً بالكليّة في دنيا العسكريّين الباهتة. كان بديناً وماجناً، فيقضي لياليه الساخنة وصباحاته الصفراء في الملاهي الحمراء في "كوباكابانا" و"لبلون". وكان حاد الذكاء، فعرف، أن يتكيّف كالحرباء، مع خطاب مختلف الدكتاتوريّين، ولكن أيضاً مع خطاب "سادة الأرض". ولم يكن يبدي أي طموح سياسي شخصي، وتحرّكه غريزة اللاعب. لقد كان ماجناً، يكره الايديولوجيا العسكريّة.

وكان يرى في نظريّة "الأمن الوطني" مجرّد أكذوبة. ولكنه كان يتقن أيضاً الاستعانة بها رسميّاً، كلّما كان يطرح على الجنرالات، أحد مشاريعه الجبارة: من طرقات تخترق حوض الأمازون، ومن توسيع لسد "ايغواسو"، المائي والكهربائي، ومن استثمار لمناجم "كاراخاس"، ومن منشآت مرفئيّة ضخمة في "سانتوس"، ومن إنشاء لشبكة اتصالات متكاملة، ومن إنشاء لمنصات التنقيب عن النفط، إزاء شاطئ "كوانابارا" (Guanabara) الخ...

وكان الجنرالات يوقّعون دائماً في حماس. وكان صندوق النقد الدولي يثبّت "إمكانيّة إنجاز" هذه المشاريع، كما كان المقرضون الأجانب يقدّمون المليارات الضروريّة لتنفيذها.

وكان فريق "نيتو"، في إطار هذه الحسابات، يرفع باطّراد قيمة الفواتير.

كان العديد من الجنرالات وذويهم أو خلفائهم (وما زالوا)، يملكون حسابات مرقّمة في زوريخ، ولندن وجنيف. وكان أكثرهم دهاء (وما زالوا) على رأس جمعيات (offshore) مسجّلة في جنّات الضرائب في جزر الكاريبي و"جرسيه" أو في "ليشتنشتاين" (Lichtenstein).

في الحقيقة، كان المقرضون الأجانب، طوال اثنتين وعشرين سنةً، يدفعون مباشرة، في هذه الحسابات، مبالغ فلكيّة، نتيجة تضخيم الفواتير أو العمولات السريّة.

إنّ البرازيل، وهو وليد مزيج متداخل من ثلاث ثقافات - أوروبيّة وأفريقيّة وهنديّة - هو، منذ أن عُرِف، مختبر ساحر على صعيد الأفكار والاختبارات الاجتماعيّة. وهو هو بالتحديد من اخترع "إجراء التدقيق" (audit). ففي عام 1932، كان البرلمان هو أوّل من مارسه. فكان أن كشف العديد من المخالفات، والقروض المضخمة، التي منحت وأعطيت بموجب وثائق مزوّرة ومخالفات دقيقة، ارتكبت خلال صياغة

العقود. وقد رفضت الحكومة آنذاك أن تسدّد قسم الدَّين الذي ثبت الاحتيال بشأنه. وقد ربحت الرهان: فتخلّى المصرفيّون الأجانب "بملء خاطرهم"، عن تلك الديون التي كانت قد أُجرِيت احتيالاً.

وعادت قضية "التدقيق" (audit) مجدّداً، إلى صميم مناقشات المجلس التشريعي، في منتصف الثمانينيات. وقد احتدم النقاش، ليس في المجلس النيابي وحسب، بل أيضاً وخصوصاً في الرأي العام. فإن البند 48 من دستور عام 1988، بات يخوّل المجلس، حقّ اللجوء إلى "التدقيق" (audit) بشأن الدَّين الخارجي.

والحال أنّ هذا "التدقيق" (audit) هو أحد مطالب "حزب العمال"، الأكثر إلحاحاً. في عام 2000، أدخل "جوزيه ديرسو" (Jose DIRCEU)، وكان يومَها زعيم حزب في المجلس النيابي، قراراً تشريعيّاً يحمل رقم (A-645). وقد جاء في نصّ تسويغاته:

« إنّ الديون المختلفة، الخارجيّة والداخليّة، العامّة والخاصّة، حتى لو كانت متباينة في تطبيقها ومعناها، تشكّل معاً بالنسبة إلى المجتمع، فائضاً من الالتزامات، تترتّب عليها نتائج مختلفة:

1) تفاقم هشاشة البلد الخارجيّة، وتبعيّتها الاقتصاديّة.

2) ارتفاع في المبالغ المطلوب تسديدها بالقطع الأجنبي (اليوم وغداً)، يعطّل تنمية الجيل الصاعد.

[...]

4) ضياع السيادة، واستسلام للاستراتيجيّات الدوليّة، الخاصة بمصادر رؤوس الأموال، وهيمنة الدولة العظمى.

5) التضحية بالطبقة الدنيا المفتقرة إلى الحماية، والتي لم تنعم بميّزات الفترات التي عقدت فيها هذه الديون، والتي يتحمّل عبء تسديدها...

[...]

إنّ المشروع الحالي للقرار التشريعي، يرمي إلى إحداث آليّة ديمقراطيّة من الاستشارة الشعبيّة، حول ما يتوجّب فعله في ما يتعلّق بمسائل ترتبط، دون أدنى شك، على نحو مباشر وغير مباشر، بحياة شعبنا ».

إنّ البرازيل يمتلك مجتمعاً مدنيّاً، هو أحد أقوى المجتمعات وأكثرها إبداعاً في العالم. إنّ الحركات الاجتماعيّة المجدّدة، من حركة "عمّال الريف دون أرض"، إلى الحركة من أجل ميزانيّة متشاركة، إلى حركة تحرير البرازيليّين الأفارقة، حتى الحركات النسائيّة، هذه الحركات هي أبداً ماضية في الاتساع، وفي كسب التأثير في الرأي العام. وفي عام 2000، أطلقت حركة يوبيل- الجنوب، استفتاء شعبيّاً واسعاً بشأن الدَّين، وقد استعانت في سبيل ذلك "بمركزية العمال الوحيدة" (CUT) وبحركة "عمال الريف دون أرض"، وحركة "حزب العمال" و"الجماعات المسيحيّة الأساسيّة". فشارك في التصويت أكثر من ستّة ملايين مواطنة ومواطن. وقد أيّد 91٪ منهم، تنفيذ "التدقيق" (audit).

إنّ هذا "التدقيق" (audit) لا يطرح على الصعيد التقني، مشاكل كبيرة. فإنّ جمعيات المحقّقين، من دوليّة وبرازيليّة أيضاً (مثلاً price waterhouse, ATTAG, Ernst and Young) تقوم كلّ سنة بفحص حسابات الشركات الدوليّة الضخمة، وتُراجع مئات الآلاف من العقود، وتُجَدوِل ملايين الإجراءات، وتحلّل عدداً لا يحصى من التركيبات المالية.

صحيح أنّ هذا العمل قد يكلّف ثمناً باهظاً. ولكن، في حالة الدَّين البرازيلي، الخارجي والعام، فإنّ مردوده الصافي سوف يكون، دون أدنى شكّ، هائلاً...

حتى الآن، لم يجرؤ "لولا" على طرح "التدقيق" (audit). وقد بدأ شكّ رهيب يتسرّب داخل جميع الحركات المناهضة للرأسماليّة في العالم. ترى، هل بدأ "لولا" يفقد السيطرة على استراتيجيّته المزدوجة؟

إنّ ارتفاع السوبرافيت إلى 4.25 قد طرد من القصر الرئاسي، شبح "اليندية".

وإنّ "سادة الأرض" لا يحرّكون ساكناً حيال البرازيل، أقلّه الآن. ولكن، في الوقت نفسه، فإنّ "برنامج إلغاء الجوع" لا ينطلق. وما زال الآلاف من الأطفال البرازيليّين يموتون من نقص التغذية، وسوء التغذية، والجوع.

والسبب، هو النقص في الأموال. ولقد قلت، لا حياة "لبرنامج إلغاء الجوع"، دون تخفيض كثيف في الدَّين.

إنّ "ايريك توسان" و"ماركوس أرودا"، يتلفّظان حيال استراتيجيّة "بالوتشي" (Palocci)، وتسامح "لولا" معه، بكلمات إدانة جازمة.

وفي "حزب العمّال"، يتفاقم الغضب. ولقد استُبعِد أعضاء من مجلسَي الشيوخ والنواب، لتهجّمهم العلني على سياسة "بالوتشي".

يوم الثلاثاء 2 آذار عام 2004، عشت، في فندق الأمباسادور في مدينة "برن"، خبرةً مزعجةً: كانت منظمة العون البروتستانتي، المسمّاة "خبز للقريب"، ومنظّمات أخرى غير حكوميّة، تطلق للعموم برامجها الرامية إلى مساعدة دول في أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينيّة. كان في عداد المتحدّثين "فريي بيتو" وأنا.

كنت في منتهى السعادة للقائي "فريي بيتو". كان متيقّظاً، هادئاً، حالماً على عادته. بُعيد الفطور، انتحى بي جانباً. وفجأةً، تجهّم وجهه وحدّثني بصوتٍ خفيض، قال: "الوضع يسوء... والناس لم يعودوا يفهمون... أنت، تعرف "لولا"، وهو يقدّرك... حدّثه: لا بدّ من أن يتخلّى "بالوتشي" عن هذا الصك (superavit) اللعين، وليطلق أخيراً "التدقيق" (audit)... يجب أن يواجه صندوق النقد الدولي... الناس جائعون... لم يعد بوسعهم أن ينتظروا... نهاية هذا العام، هي الحدّ النهائي... فقد الناس صبرهم".

قلّة هم الرجال الذين أكنّ لهم ما أكنّ "لفريي بيتو" من إعجاب ومودّة. فلا التعذيب، ولا السجن ولا النفي، استطاعوا أن يمسّوا رقّته.

ولكن، هنا، في "برن"، في هذا اليوم الثاني من آذار، كنت مصعوقاً: إذ كيف يتسنّى "لفريي بيتو"، أن يخطر بباله أنّ كلمةً منّي تستطيع أن تغيّر شيئاً ما في السياسة البرازيليّة؟ كانت الفكرة بحدّ ذاتها تبدو لي عبثيّةً. ثم إنّ مكتب "فريي بيتو" ملاصق لمكتب الرئيس. فكلاهما يرى الآخر، ويتحدّث إليه كلّ يوم.

لكم كان اضطراب "فريي بيتو" عميقاً، كي يقترح عليّ طلباً، على مثل هذا القدر من اللاواقعيّة!

إنّ معركة الدَّين قادمة. أجل، إنّ مآلها سيقرّر مصير الثورة السلميّة والصامتة، القائمة الآن في البرازيل.

ولكن مآلها غير مؤكّد. وفي هذا السياق، فإنّ التضامن الدولي بين الشعوب - ولا سيما شعوب أوروبا - أمر حاسم، من أجل انتصار المعركة ضدّ الجوع، ومن أجل إلغاء الدَّين، في البرازيل. وإنّ المساهمة في حشد هذا التضامن، هي إحدى أهداف هذا الكتاب.

ملحق

إنّ هذا الفصل يعالج قضيّة مشنقة الدَّين، الذي شلّ عمل الرئيس "لولا" على الصعيد الاجتماعي، طوال فترة ولايته الأولى.

ولقد أعيد انتخابه بإجماع واسع عام 2006.

لقد بدّل استراتيجيّته على نحو جذري، منذ فجر ولايته الثانية (شهر كانون الثاني عام 2007). فقد اقتلعت الأشجار على مساحة عشرات الآلاف من الهكتارات في غابات الأمازون، وفي ولاية "ماتو غروسو"، وزُرِعت بالصويا. فبات البرازيل أوّل مصدر للصويا في العالم.

"إنّ البقرات الأوروبيّة تلتهم الغابة البرازيلية"، كما قال "ارفين فاجنهوفر" (Erwin WAGENHOFFER).[14]

في الوقت نفسه، أصبح البرازيل أوّل منتج عالمي في الطاقة الحيويّة، وبات أوقيانوس قصب السكر الأخضر، يمتدّ إلى ما لا نهاية، على حساب الأراضي الزراعية. فإنّ القصب (ونباتات أخرى) تتحوّل بملايين الأطنان، إلى وقود للسيارات، لا سيما في الولايات المتحدة.

إنّ هذه السياسة الجديدة - الكارثيّة بالنسبة إلى الزراعة الغذائيّة، وإلى غابات الأمازون، تعود بمبالغ ضخمة من القطع النادر.

وهي تتيح للبرازيل أن يقلّص دَينه.

في الوقت نفسه، تمّ التخلي عن "برنامج إلغاء الجوع"، وحلّ محلّه "المنحة العائليّة". وهذه تُقدِّم العون للعائلة كلّها، التي يقلّ مدخول البالغين فيها عن 90 ريال (45 دولار) في الشهر الواحد. وهي تمكّنهم من الحصول على أغذية وعناية طبّيّة، ومعونات مدرسيّة، وبيئيّة الخ...

يستفيد من هذه "المنحة العائليّة" (في عام 2007)، ثمانية ملايين عائلة، أي أكثر من أربعين مليون إنسان.

إنّ حركة "فلاحين دون أرض" (والعديد من الحركات الشعبية الأخرى) تندّد بالخيانة: الإصلاح الزراعي لا يتحرّك، والزراعة العائليّة قد أُهملت، والشركات الرأسماليّة الكبرى (البرازيليّة والأجنبيّة)، المنتجة لطاقة الوقود الزراعيّة، وللصويا ولمزروعات تصديريّة أخرى، تحظى بامتيازات ضريبيّة هائلة.

ليس لي أن أدين: إنّ فكّ مشنقة الدَّين هو الشرط الأوّل لتوفير حظ في الحياة، لعشرات الملايين من البرازيليّين، الذين يعانون من نقص التغذية، والحرمان من مياه الشرب، ومن الأميّة والأوبئة والفقر في أقصى حدوده.

في مخالفةٍ لرأي أقرب مستشاريه (مثلاً، أمير صدر Emir SADR)،

وفي مخالفة لتوجيهات الكنيسة الكاثوليكيّة، اختار "لولا" طريقة كفاح ناجعة: التوفيق بين سياسة ليبراليّة متطرّفة، تمنح الأولويّة المطلقة لمصالح الشركات الدوليّة الصناعيّة - الزراعيّة، التي تتعامل مع الصناعات الغذائيّة، وإجراءات قويّة تُعنى بالدعم الاجتماعي لأكثر العائلات فقراً.

إنّ هذه الاستراتيجيّة تستبعد إصلاح البنى القمعيّة. ولكنها تغذّي الفقراء.

مراجع القسم الرابع

[1] أعود هنا بالدرجة الأولى إلى الملاحظات الشخصية التي كتبتها بيدي لا خلال أحاديثي مع "لولا"، بل عادة في اليوم نفسه.

[2] اليوم، وفيّات الأطفال تكاد تكون مقاربة لما كانت عليه عام 1945، وهو عام ولادة "لولا": ففي عام 2006، كان من أصل 1000 طفل يولدون أحياء، يموت منهم 115 قبل أن يبلغوا الخامسة.

[3] راجع Frei Betto: "لولا، عامل في الرئاسة"، ساو باولو، منشورات Casa Amarele، عام 2003

[4] استمرت من عام 1964 إلى عام 1985

[5] راجع Frei Betto، المرجع ذاته، صفحة 48

[6] راجع Cristiane Nova et Jorge Nóvoa: "كارلوس ماريغيلا"، ساو باولو، منشورات جامعة ساو باولو، عام 1999.

[7] Palmarès هو اسم منطقة شهيرة في شمال البرازيل، كانت جمهورية من العبيد المتمردين الذين واجهوا طوال سبعين عاماً، في القرن الثامن عشر، الجيش البرتغالي المستعمر.

[8] ثمة كتابان يتحدّثان عن هذا المصير، الأول هو: "الحجارة ستصرخ"، من تأليف الكهنة الدومنيكيّين، انطلاقاً من يوميات "تيتو" – الثاني: وضعه "فريي بيتو" بعنوان: "إخوة تيتو"، باريس، منشورات Cerf، عام 1984.

[9] راجع "Géopolitique de la Faim" :"Josué de Castro"، ترجمة فرنسية، باريس، منشورات Seuil، عام 1952.

[10] ثمة استثناء: إن الرئيس "فرناندو هنريكه كاردوزو" قاوم الفساد بتصميم.

[11] هو مصرف عمومي في الولايات المتحدة، مخصّص لتمويل التصديرات

[12] للتذكير: في الفترة نفسها، وفي ظرف مماثل، رفض صندوق النقد الدولي أي قرض جديد للأرجنتين.

[13] راجع Eric Toussaint: "المال ضد الشعوب"، مرجع مذكور، ص 399.

[14] ورد في فيلم بعنوان: "سوق الجوع"، عام 2007

القسم الخامس

إعادة بناء الإقطاع في العالم

I- الإقطاعيات الرأسمالية

دَين وجوع، جوع ودَين، كلّ ذلك يشكّل دورةً قاتلةً، تبدو دونما مخرج. مَن الذي بدأها؟ مَن الذي يُبقي حركتها فيها؟ مَن ينال منها مكاسب فلكيّة؟

إنها الإقطاعيّات الرأسماليّة.

اليوم، إنّ مسبّبي الجوع، والمضاربين واللصوص، الذين ندّد بهم "جاك رو" (Jacques ROUX)، و"مارا" (MARAT)، و"سان جو" (Saint-JUST) قد عادوا. وإنّ يد المحتكر القاتلة، التي ندّد بها "غراكوس بابوف" (Gracchus BABEUF)، تَضرِب من جديد.

نحن نشهد إعادة إقطاع العالم. وإنّ هذه السلطة الإقطاعيّة الجديدة، تتّخذ لها وجه الشركات الدوليّة الخاصة.

أذكّر: إنّ أعظم الشركات الخمسمائة، الرأسماليّة، الدوليّة في العالم، تتحكّم بـ 52٪ من المنتوج الداخلي الخام في العالم. وإنّ 58٪ من هذه الشركات هي من الولايات المتحدة الأميركية. وهي، بمجموعها، لا تستخدم إلا 1.8٪ من اليد العاملة في العالم. وهذه الشركات الخمسمائة تتحكّم بثروات تفوق مجموع ثروات 133 بلداً، هي أفقر بلدان العالم.

إنّ هذه الشركات العابرة للقارّات، إذ تمتلك العلوم التكنولوجيّة والألكترونيّة والعلميّة، الأكثر تطوّراً، وإذ تتحكّم بأهمّ المختبرات

ومراكز البحث في العالم، توجّه سيرورة التطوّر المادي للبشر جميعاً. وإنّ الخير الذي تقدّمه لمن يستطيعون أن يحصلوا على منتوجاتهم وخدماتهم، لا نقاش فيه. ولكن تحكّمها الخاص الذي تمارسه على منتوج ما، وعلى اختراعات علميّة موجّهة بطبيعتها، للخير العام، له نتائج كارثيّة.

ذلك لأنّ المحرك الأوحد لهؤلاء الإقطاعيّات الجديدة، هو تكديس أعلى الأرباح الخاصة الممكنة، في أقصر وقت ممكن، والتوسّع المتواصل لسلطتهم، وإلغاء كلّ عقبةٍ اجتماعيّةٍ تعترض قدراتهم.

من الأسباب الأولى للتفاقم المستمرّ في الدَّين الخارجي لبلدان الجنوب، يأتي نقل أرباح الشركات أو أرباح البورصات، التي حقّقتها الشركات "القاريّة" في البلد المضيف، إلى المراكز الرئيسيّة، بالقطع النادر.

ويضاف إليها نظام أرباحها. ولنذكر مثال شركة "نستله" (Nestlé). إنّ هذه الشركة، كما هي حال معظم الشركات "القاريّة"، قد نُظِّمت وفق "مراكز" أرباح، مستقلّة نسبيّاً عن بعضها البعض. فإنّ الخمسمائة وأحد عشر معمل "نستله" عبر العالم، يستخدمون كلّهم رخصاً يمتلكها المعمل الرئيسي، أو على نحو أدقّ شركة الشركات. ويجب على هذه الرخص أن تكون مأجورة.

ولننظر إلى البرازيل. إنّ "نستله" تحقّق فيها أرباحاً خياليّة. وإنّ قسماً منها يُعادُ استثماره في المصانع والشركات، الخمس والعشرين، التي أُنشِئت في البلد. ثمّة قسم آخر منها، يُستخدَم في تمويل توسّعها، وفي فتح سوق محلّيّة جديدة، مثل سوق تغذية الحيوانات المنزليّة. ولكن القسم الأكبر من الأرباح، يعود إلى "فيفي" (VIVEY)، حيث إدارة "نستله" الرئيسية.

إنّ هذا النزيف يموّله بنك البرازيل. ذلك أنّ إدارة "نستله" لا تنقل

بالطبع "الريالات البرازيليّة"، وهي عملة لا قيمة ثابتة لها في التبادل، بل الدولارات (أو قطعاً نادرة أخرى، المسمّاة "قاسية"). إنّها إذن احتياطات القطع النادر في المصرف المركزي للبلد المضيف، التي تُستعمَل لإتاحة نقل الأرباح وسائر المنتوجات الناجمة عن منح الرخص، والمحقّقة بالعملة المحليّة أو بالقطع النادر. وهذه تعبر على الفور المحيط الأطلنطي، وتتفاقم بذلك إدارة الدَّين الخارجي للبلد المضيف.

إنّ القضيّة لمغرية: إنّ أوروبا لا تني تفقد أهميّتها نسبيّاً، في صندوق "نستله". ففي عام 1994، كانت الأرباح الأوروبيّة تشكل 45٪ من رقم مبيعات الشركة السويسريّة، وفي عام 2004، 33٪. فإنّ فتحها المظفّر لأسواق أبداً جديدة، يَحدث في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينيّة.

بالطبع، إنّ الأمراء الجدد يجنون من نشاطهم، أرباحاً شخصيّةً ضخمةً. فإنّ "جوزيف اكرمان"، سيّد أعظم المصارف الأوروبيّة، وهو "دويتش بنك"، يحصّل ثلاثة أضعاف هذا المبلغ. وإنّ "دانييل فازيلا" (Daniel VASELLA)، وهو الأمير غير المنازع على شركة "نوفارتيس" (NOVARTIS) للأدوية، ينال 22 مليون يورو سنويّاً. وزميله "بيتر برابيك" (Peter BRABECK) في "نستله"، يأخذ المبلغ ذاته. أما رئيس "بنك سويسرا المتحد" (United bank of Switzerland)، "مارسيل اوسبل" (Marcel OSPEL)، أعظم مدراء الثروات الخاصة في العالم، فإنّه يحصّل مبلغاً متواضعاً، هو 26 مليون يورو.

وكما كان أسلافهم في الأعوام التي سبقت عام 1789، فإنّ هؤلاء الأمراء يعيشون بالمجّان، كما يُقال: فإنّ قصورَهم وموائدَهم، ورحلاتِهم، تتولّى نفقاتها بطاقة الائتمان المذهّبة، التي تغطّي الشركة، أرقامها كلّها، بالغاً ما بلغت. ثمّة اختلاف وحيد: وهو أنّ الطائرات الخاصة وسيّارات الليموزين، قد حلّت محلّ الأحصنة المطهّمة والعربات!...

قال "جان بول مارا" (Jean-Paul MARAT):

« إنّ أميراً صالحاً هو أنبل إنجازات الخالق، وهو الأكثر جدارةً بتشريف الطبيعة البشريّة، وبتمثيل الطبيعة الإلهيّة. ولكن لكم من وحش (Monstre) على الأرض، مقابل أمير صالح واحد! »[1]

ولنتّخذ مثال الشركات الكبرى للصناعة الغذائيّة، كي نقيس مدى هيمنتها العالميّة. ففي عام 2004، كانت هناك عشر شركات قاريّة، منها "افينتيس" (Aventis)، و"مونسانتو" (Monsanto) و"بيونير" (Pioneer)، و"سينجينتا" (Syngenta) الخ... تتحكّم بأكثر من ثلث السوق العالميّة للبذار. وفي عام 2007، كان رقم هذه السوق قد بلغ 31 مليار دولار.

ولننظر الآن ناحية سوق المبيدات: إنّه يربح قرابة 28 مليار دولار كلّ سنة. والحال أنّ 80٪ من هذه السوق، تسيطر عليه سبع شركات قاريّة (بينها، مرّةً أخرى، "افينتيس"، "مونسانتو"، "بيونير"، "سينجينتا" الخ...)

إنّ "بنغلادش" هو البلد الأكثر كثافةً سكانيّةً في القسم الجنوبي من الأرض، إذ فيه 146 مليون إنسان، يعيشون على مساحة 110.000 كم[2]. وإني لأحتفظ من هذا البلد بذكرى خارقة: حيثما كنت أتجوّل - ليلاً ونهاراً على السواء - في "دكا"، في "شيتاغونغ"، على ضفاف "البراهمابوتر" أو "الغانج"، في القرى أو في الحقول، في كلّ مكان وفي كلّ لحظة، كنتُ محاطاً بجمهور من الناس، كانوا على نحوٍ شبه دائم، لطفاء، مبتسمين، وفي الغالب جميلين جدّاً. والحال أنّ "بنغلاديش" هو ثالث أفقر بلد في العالم، وفق "جدول التنمية البشريّة"، الصادر عن منظمة "برنامج الأمم المتحدة للتنمية" (PNUD).

إنّ هذا البلد يمتدّ في منطقة مداريّة وتحت مداريّة، على جانب

كبير من القسوة. ففي فصل الرياح الموسميّة، يكون 60٪ من أراضيه، مرّتين كلّ عام، تحت المياه. إنّ الطمي الذي تحمله إليه، عبر آلاف الكيلومترات، أربع أنهار كبيرة، هابطة من جبال الهملايا، تُخصب أرضه. ولكن حشرات من كلّ الأنواع، تزدهر في هذا المناخ الدائم الرطوبة، وتدمّر في انتظام قسماً كبيراً من حصاد الذرة والقمح والذرة البيضاء وحبوب أخرى.

فإنّ ثمن المبيدات يقرّر إذن حياة وموت الملايين من البنغاليّين.

والحال أنّ هذه الإقطاعيّات الرأسماليّة، التي أشرت إليها سابقاً، هي التي تحدّد سنويّاً ثمن المبيدات المباعة للبنغاليّين. وهي تفعل ذلك وفق معيار الربح الأعظم، ودون أي رقابة عامّة.

ولكن ما يصحّ بالنسبة إلى "بنغلادش"، يصحّ أيضاً بالنسبة إلى الهند. ففي شهر تشرين الأول (اكتوبر) من عام 2004، نشرت مجلة "فرونتلاين" (FrontLine)، مقابلة مع وزير الزراعة الهندي، "راغوفيرا ريدي" (Raghuveera REDDY). فكان الوزير يعلن أنّ أكثر من 3000 فلاّح في ولاية "اندرا براديش"، وهي إحدى أهمّ الولايات في الاتحاد الهندي، قد انتحروا خلال الفترة الممتدّة من 1998 إلى 2004، لأن الديون كانت قد تراكمت عليهم لدى الشركات المحليّة، التابعة للجمعيّات القاريّة، التي توفّر تسويق البذار والمبيدات.

والآن، فلننظر ناحية تجّار الحبوب، الذين يتحكّمون بالمسارات العالميّة المتعلّقة بالنقل والضمانات والصوامع - وبالطبع ببورصة المواد الزراعية الأولية في شيكاغو. وهنا أيضاً، فإنّ أقصى تركيز للسلطات صاحبة القرارات الماليّة، هو السائد: إذ إنّ ثلاثين شركة يسيطرون على التجّارة العالميّة للحبوب.

توجد اثنتان وخمسون دولةً في القارة الأفريقيّة وجزرها، منها خمسة عشر فقط تتمتّع بالاكتفاء الغذائي. فيترتّب على الدول السبع

والـثلاثين الأخـرى، أن تلجـأ إلى الـسـوق العالميّـة لـتُطعم شـعوبَها. وإنّ ذلـك ليصـحّ أيضـاً حتـى في أوقـات المواسـم "الطبيعيّـة"، أي عنـدما لا يجتاح البلد أيّ حرب، أي جفـاف، أيّة موجـة مـن الجـراد، أو أيّـة كارثـة طبيعيّة (أو من صنع البشـر). ويتـأتّى النقص الغذائي في هـذه الـدول، من أنّ حصادهم الخاص ليس بكافٍ موضوعيّاً، لتأمين "الوصلة" - أي تلك الفترة المتفاوتة الطول، بين بلد وآخر، وسنة وأخرى، التي تفصل استنفاد المؤن المخزونة من الحصاد السابق، عن الحصاد الجديد.

في زامبيـا، تشـكّل الـذرة الوجبـة الوطنيّـة. فـالزامبيّون يتنـاولونهـا صـباحاً وظهـراً ومسـاءً، إمّـا مسـلوقة، وإمـا بشـكل طلميـة، أو حبّـات مشويّة، أو في حساء أو مع الشعير. وإنّ زامبيا، كي توفّر الغذاء، خلال "الوصلة"، تُضطرّ في الغالب للجوء إلى السوق العالميّة. ولكن الحكم في "لوساكا" لا يملك من الأموال إلا ما هو في حدود متواضعة. فإنّ كانـت أثمـان الحبـوب الـتي يفرضـها "سـادة الأرض"، مرتفعـة، فلـن يستطيع الحكم قطّ أن يستورد الأعداد الضروريّة مـن أكياس الـذرة، فيموت الآلاف من الزامبيّين، كما حصل عام 2001 وعام 2002.

نشـر "جـان- بـول مـارا" (Jean-Paul MARAT) في مجلـة "صـديق الشـعب"، بتـاريخ 1790/7/26، نصّـاً مشـهوراً عنوانـه: "وسـائل حقيقيّـة كي يكون الشعب سعيداً وحرّاً"، وقد كتب فيه:

« إنّ الضربة الأولى التي يوجّهها الأمراء إلى الحريّة، ليست في خرق القوانين بجرأة، بل هي في تغييبها في النسيان... فهـم، كـي يقيّـدوا الشعوب، يبدأون بتنويمهم ».[2]

إنّ لكـلّ مـن الشـركات الرأسماليّـة القاريّـة العالميّـة الكـبرى، وزارة للرعاية، تسميتُها الرسميّة هي: "قسم الاتصال التعـاوني"، الـذي تقـوم مهمّته على تركيب ونشر وحماية وتفسير ومدح وتسـويغ، رؤيـة الأمـور التي يريد "الأمراء" أن يفرضوها على الرأي العام.

ولقد استبق "جان بول مارا" بقرنين، ووصف نشاطات المهرّجين والروّاد المعاصرين للدعاية والعلاقات العامّة، فكتب يقول:

« إنّ الرأي العام مؤسَّسٌ على الجهل، والجهل يدعم الاستبداد إلى الحدّ الأقصى [...] فقلّةٌ من الناس لهم أفكار سليمة حول الأشياء. ومعظم الناس لا يتعلّقون إلاّ بالكلمات فقط. أوَلم يمنح الرومانيّون قيصراً، تحت اسم الإمبراطور، السلطة التي كانوا قد رفضوها له تحت اسم الملك؟ [...] فالناس، بعد إذ يُخدَعون بالكلمات، لا يُصيبهم الهلع من أحطّ الأشياء، إذا ما زُيِّنت بكلماتٍ جميلة، وهم يُصيبهم الهلع من أفضل الأشياء، إذا ما وُصِمَت بكلماتٍ بغيضةٍ. ولذلك فإنّ احتيال الإدارات المألوف، هو تضليل الشعوب، بإفساد معنى الكلمات. »[3]

يُتاح لي، بوصفي مقرّراً خاصّاً للأمم المتحدة حول حقّ التغذية، أن أناقش السلطات الإقطاعيّة الجديدة. وهؤلاء السادة، عندما يُواجَهون بالمساوئ أو النتائج الكارثيّة لبعض القرارات، يلجؤون على نحو دائم إلى هذه الحجّة السحرية: "النقص في التواصل".

إنّ استراتيجيّات التلاعب والتغلغل والتحكّم - بالحكومات والبرلمانات والصحافة والرأي العام - التي طوّرتها السلطات الإقطاعيّة الجديدة، هي على درجة هائلة من البراعة، ومن النجاعة للأسف. وهي قادرة على قتل مَن يُسمّون "الدوق والكونت والماركيز" حسداً... أولئك الذين ندّد بهم "مارا"...!

إنّ كلّ شركةٍ رأسماليّةٍ "قاريّة"، تنظّم لا وزارة دعايتها وحسب، ولكن أيضاً أجهزتها الخاصة بالتجسّس والتجسّس المضاد - وكذلك أيضاً فرقها الخاصة من العملاء. وهذه الأجهزة السريّة ناشطة في القارّات الخمس. وهم يخترقون لا الإدارات الرئيسيّة "لسادة الأرض" المنافسين وحسب، بل أيضاً

مختلف الحكومات الوطنيّة - ومعظم التنظيمات الدوليّة الكبرى - من حكوميّة وغير حكوميّة، على وجه الأرض.

إنّ أحد أوّل الأشياء التي تعلّمتُها غداةَ تعييني في الأمم المتحدة، كان الحذر من أجهزة الاتصال التي تربط الهيئة العليا لحقوق الإنسان، ومركزها جنيف، بالمركز الرئيسي في الأمم المتحدة، في نيويورك. فإنّ معالجة الشؤون التي تقتضي حدّاً أدنى من التكتّم، تفرض بقوّة تحاشي استخدام هواتف قصر "ويلسون" (Wilson)، أو البريد الإلكتروني فيه. بالمقابل، فإنّه يُنصَح باستعمال الرسائل المكتوبة باليد، والمسلّمة لحاملها. وهذا ما فعلته طوال شهرين من عام 2002، عندما كنت أعدّ ردّي على الاتهامات التي كانت البعثة الأميركيّة قد وجّهتها إليّ، في قضية الأجسام المعدّلة جينيّاً. سوف أعود إلى ذلك.

كان "روبير باير" (Robert BAER) المسؤولَ الأعلى السابق، في قسم أعمال المخابرات المركزيّة الأميركيّة (CIA). وهو يعترف بإعجابه إزاء الفعاليّة والحصافة والوسائل الماديّة، التي تستخدمها أجهزة التجسّس المضادّ، والتجسّس والعمل، لدى الشركات الرأسماليّة القاريّة الكبرى[4]. وإنّ بعض هذه الشركات على درجة متميّزة من القدرة على اختراق إدارات التنظيمات المتخصّصة الكبرى في هيئة الأمم. هوذا مثال على ذلك.

إنّ "منظمة الصحة العالميّة" (OMS) تصدر توجيهات، وتصوّت لقرارات، وتعقد اتفاقيّات - تنظيميّة، تطال مباشرة فعاليّات (وإذن أرباح) العديد من الشركات القاريّة الخاصّة، التي تتعامل بشؤون الكيمياء والهندسة البيولوجيّة، والأدوية، والتبغ الخ... وهي تنظّم، في العالم الثالث، حملات التلقيح ضدّ الشلل، والحمى الصفراء، والملاريا، والتهابات الكبد، التي تطال مئات الملايين من الناس. وهذه الحملات تمثّل رهاناً ماليّاً ضخماً.

من ناحية أخرى، فإنّ "منظمة الصحة العالميّة" تدير عشرات مراكز الأبحاث والمخابر حول العالم. كما أنّها تنفق مئات ملايين الدولارات على برنامجها الخاص بمكافحة الإيدز. فضلاً عن ذلك، فهي تنظّم، في القسم الجنوبي من الأرض، إعداد الأطباء والممرضات. وهي، فوق ذلك، تبذل نشاطاً قويّاً تقويميّاً، إذ ترفض أو تقبل أدويةً جديدةً، وتكافح من أجل استخدام الأدوية المشتقة (génériques)، وتسعى من أجل تحديد الحماية الفكرية (تقليص زمن صلاحيّة الرخص) للأدوية الضرورية لشعوب العالم الثالث. باختصار، إنّ لنشاط "منظمة الصحة العالميّة" تأثيرات ماليّة ضخمة.

تولّت عام 2000، امرأة استثنائيّة إدارة "منظمة الصحة العالميّة": إنّها "كروهارلم برونتلاند" (Gro HARLEM BRUNDTLAND)، رئيسة مجلس وزراء النروج، السابقة، وهي أيضاً طبيبة. فعيّنت بسرعة كبيرة لجنة تحقيق، تتألّف من خبراء دوليّين ذوي خبرة عالية، تحت رئاسة البروفسور "توما زلتنر" (Thomas ZELTNER). وكلّفت اللجنة بأن تكتشف في جميع جوانب "منظمة الصحة العالميّة"، الموظفين الذين تغلغلوا فيها عن طريق صانعي السجائر. وأخيراً، قامت اللجنة بعمليّة تطهير صارمة. وبعد أن انتهت عمليّة التطهير هذه، قبلت "برونتلاند" أن تبدأ المفاوضات مع الشركات القاريّة للسجائر، حول الاتفاق التنظيمي الجديد بشأن التبغ.

هوذا مثال آخر حول تغلغل "منظمة الصحة العالمية".

إنّ المرجعيّة العليا في هذه المنظمة، هي الجمعيّة العامّة للصحة، التي تجتمع كلّ صيف في جنيف. ولكن "منظمة الصحة العالمية" هي تنظيم يضمّ دولاً. لذا كانت الوفود التي تؤلّف الجمعيّة العامّة، هي وفود دول بالضرورة. ولذلك كان بعض أمراء صناعة الدواء، وفق منطقهم، يبذلون كلّ عام كنوزاً من المهارات والمبالغ الضخمة، من

أجل إقناع الدبلوماسيّين والموظفين، الذين تتألّف منهم هذه الوفود. وكانوا ينجحون بصورة دائمة تقريباً.

لذا كانت قرارات الجمعيّة العامّة تخضع في الغالب لإدارة السلطات الإقطاعيّة الجديدة - ونادراً لحاجات الشعوب المعنيّة.

في عام 2001، تقدّمت مجموعة من الدول الاسكندنافيّة، (ومن العالم الثالث)، باقتراح يقضي بأن يعترف كلّ فرد من هذه الوفود، قبل فتح النقاشات، بنزاعات مصالحه، المحتملة، وعلى نحو واضح: بعلاقات التبعيّة التي تربطه بهذه أو تلك من الشركات الدوائيّة. وفي الليلة التي سبقت التصويت، تجوّلت حقائب مليئة بالسيولة النقدية، بين مختلف فنادق الضفة اليساريّة، حيث يقيم المندوبون. وفي الصباح، منذ بدء المناقشات، طلب مندوب الولايات المتحدة الكلام، إذ كان يرى أنّ الاقتراح يشكّل مساساً غير مقبول بسيادة الدول.

وكان أن رُفِض الاقتراح الاسكندنافي بغالبية كبيرة.

ولنلقِ نظرةً على أجهزة مكافحة التجسّس.

إنّ السلطات الإقطاعيّة الجديدة هي، في حقيقة الأمر، إدارات حريصة جدّاً على حمايتها الذاتيّة. ففي حرب الأدغال التي تشنّها الرأسماليّة المعولمة، إنّ المفاجأة هي السلاح الأمضى في يد "سيّد الأرض": فإن منع عدوّه - أي جواسيسه - من معرفة خطط الهجوم التي يُعدّها، يشكّل ضرورةً مطلقة. فإنّ الشركات القاريّة تمتلك أجهزةً قويّة في نطاق التجسّس المضاد. وإنّ "غاري ريفلين" (Gary RIVLIN) ليصف طرقهم. فإنّ موظفي "السيتي غروب" و"داوكميكال" يخضعون لمراقبة منتظمة، حتى في نشاطاتهم الخاصة. ولدى "ميكروسوفت" و"أوراكل" (ORACLE)، وهما أقوى الشركات القاريّة في الألكترونيّات، فإنّ التنصّت الهاتفي ومراقبة الأقراص الصلبة للكومبيوترات، تأتي في نطاق الإجراءات المألوفة...[5]

ولننظر الآن ناحية التجسّس. فهو في أساس كلّ عرض للشراء عمومي، معاد، موجّه ضد البورصة، أو كلّ اندماج مجزٍ. فإنّ فتح أسواق جديدة، وإفساد حكومة متمنّعة، بصورة فعّالة، أو خبراء أحد التنظيمات المتخصصة لدى الأمم المتحدة (أو الاتحاد الأوروبي)، يقتضي عملاً مخابراتيّاً مسبقاً، دقيقاً، صبوراً وحصيفاً. ودونما أجهزة التجسس، يظلّ السيّد الإقطاعي الجديد، أعمى، وبالتالي سريع العطب.

أيّة كانت استراتيجيّات التغلغل، في نطاق التجسّس، أو التجسّس المضاد، التي يستخدمها السادة الجدد، فإنّ محرّك أعمالهم يظلّ هو هو: رفع الأرباح إلى أعلى قدر، في زمن قصير، وأيّاً كان الثمن البشري. إنّه الجشع الخالص، إنّها إمبراطوريّة الخواء، "الهدف دون هدف"، كما كان "عمانوئيل كانت" يقول.

ولنتخذ مثال "سادة الأرض" في الصناعة الدوائيّة: إنّهم لا يباشرون في تطوير هذا الدواء أو ذاك، إلا عندما تحدّد أجهزة التسويق لديهم، وجود سوق تملك قدرة شرائيّة عالية.

يقول "دنيز فان دير فيد" (Denis van der WEID)، رئيس "انتينا"، التي هي إحدى أشجع المنظمات غير الحكوميّة، المدافعة عن الحقّ في الصحة، ومقرّها جنيف: "إنها لمصيبة كبيرة ألاّ تفتك الملاريا بمدينة نيويورك".

تستخدم "منظمة الصحة العالمية" عبارة "الأمراض المهملة"، في حديثها عن الأمراض التي تهملها الشركات الدوائيّة. والحال أنّ هذه الأمراض كثيرة، وهي تقتل كلّ عام عشرات الملايين من الناس (أو تسبّب الإعاقة لهم). ولكن ليس ثمّة دواء لمكافحة هذه الأمراض، (ما لم يكن قديماً جدّاً ومتدنّي الفعاليّة).

إن حمّى الضنك هي التهاب فيروسي. وهي تضرب كلّ عام قرابة 50 مليون إنسان. وهي شديدة العدوى، وتنتشر قبل كلّ شيء في

القسم الجنوبي من الأرض. وتشبه أعراضها أعراض الملاريا، وتنتقل بواسطة البرغش. وتقدّر "منظمة الصحة العالميّة" أنّ قرابة مليارى إنسان يُصابون بها مرّةً واحدةً على الأقلّ في حياتهم. وتشبه أعراضها الأولى، أعراض زكام حادّ جداً، تترافق بارتفاع حادّ بالحرارة، يتجاوز (40) درجة. وهي قاتلة في الغالب، خصوصاً لدى الأطفال والنساء، الذين يعانون من نقص في التغذية.

لوحظ هذا الوباء في مائة بلد، لا سيما في أفريقيا السوداء، وفي الجنوب الشرقي من آسيا (ولكن في البرازيل أيضاً، حيث انتشرت الكارثة منذ عشر سنوات). ومع ذلك، فإنّ الأبحاث الخاصة بمكافحة حمّى الضنك ظلت بدائيّة. ففي البرازيل وأندونيسيا وناميبيا، كلّ من ضربه هذا الفيروس يتوجّب عليه أن يكافحه وحدَه، بقواه المناعيّة الذاتية، وهو يموت في الغالب، بعد آلام مبرحة.

من ناحية أخرى، فإنّ "سادة الأرض" أهملوا على نحو واسع، البحث وإعداد دواء فعّال حقّاً لمكافحة مرض النوم. فإنّ هذا المرض ينتشر خصوصاً في المناخ الاستوائي، وفي وسط شعوب سيّئة التغذية، معدمة، تفتقر إلى أنظمة صحيّة ملائمة.

في معالجة أمراض أخرى، فيروسيّة ووبائيّة، تتوفّر بعض الأدوية الفعّالة، ولكنّها بأثمان باهظة تمنع عنها فقراء بلدان العالم الثالث. وهكذا فإنّ 21 مليون إنسان، وهم غالباً من الأطفال، قد ماتوا عام 2006 من الملاريا أو السلّ، منهم أكثر من 90٪ في البلدان المائة والاثنين والعشرين، المسمّاة بلداناً نامية.

إنّ التناقض لفاضح. فإنّ الشركات الدوائيّة تُغرق كلّ عام أسواق أميركا الشماليّة وأوروبا، بأدوية جديدة، على جانب متزايد من التطوّر. والحال أنّ هذه الأدوية تستجيب في أغلب الأحيان، لحالاتٍ مماثلة ومشخّصة على نحوٍ تام. وهي لا تختلف إلا بلون الحبوب،

وشكل التعليب والاسم. وهكذا فإنّ أعداداً لا تُحصى من الأدوية، تَعِد بتصحيح ومقاومة أدنى اعتلال في أجساد البيض المتخمين بالأكل.

وإنّ زيارةً واحدةً لأيّ صيدليّة في جنيف أو باريس، لتكشف دون لبس، عبثيّة هذا الوضع. فإنّ الدفعة الأخيرة من هذه الأدوية - وهي حتى الآن أكثرها ربما - تتشكّل من "أقراص حيويّة" (منها ما هو ضدّ الشيخوخة، وهبوط الطاقة الجنسيّة، والتجعّدات الخ...).

إني أقدّم آخر إحصائيّة "لمنظمة الصحة العالميّة": ما بين عام 1975 وعام 2000، سمحت السلطات الوطنيّة المختصة في العالم، بتسويق 1393 دواء جديداً، منها 16 دواء فقط خُصّصت لمكافحة هذا أو ذاك من "الأمراض المهملة". وإنّ تقرير "منظمة الصحة العالميّة" (جنيف 2004) يستخلص من هذه المعطيات نتيجة بسيطة، أذكرها حرفيّاً:

« على صعيد الدواء، فإنّ وظيفة تنظيم السوق غير فعّالة في استجابتها للحاجات. ثمّة ضرورة لإجراءات تقويميّة ».

والحال أنّ السادة الجدد يأنفون من ذلك.

ولكن الوضع أحياناً يكون على جانب أكبر من التعقيد. ذلك بأنّ بعض الشركات القاريّة، تقوم فيها صراعات خفيّة بين الشيطان والله: فإنّ قسماً من الإدارة يقوم بالدفاع عن سلوك لائق، فيما القسم الآخر يدافع عن تحقيق أعظم الأرباح بأقسى الطرق. وهاكم مثالاً على ذلك.

إنّ شركة "نوفارتيس"، التي يقوم مقرّها العام في مدينة "بال"، هي - لنذكّر بذلك - ثاني أقوى شركة أدوية في العالم. فإنّ رئيسها المطلق هو طبيب دينامي وثرثار في الخمسين من العمر، يعود بأصله إلى مدينة "فريبورغ" (Fribourg)، وهو كاثوليكي، يهوى الموتورات الجميلة. إنّه "دانييل فازيلاّ" (Daniel VASELLA). وله صديق يدعى "كلاوس لايزنغر" (Claus LEISINGER).

إنّ "لايزنغر" هو بروفسور مادة علم الاجتماع التنموي، في جامعة "بال"، وهو يتمتّع بشهرة علميّة ثابتة. وهو يتمتّع أيضاً، عن جدارة، بثقة أهم المنظمات غير الحكوميّة، للتضامن مع شعوب العالم الثالث. ولما كان طوال أربع سنوات مديراً لعملاق الأدوية "سيبا-جايجي" (CIBA-GEIGY)، ومسؤولاً عن أفريقيا الوسطى والشرقيّة، فهو يعرف معرفة عمليّة شركات الأدوية الكبرى.

وقد أنشأ "دانييل فاسيلا" عام 1990، مع "كلاوس لايزنغر" بالتحديد، شركة "نوفارتيس"، من أجل تنمية مستديمة. و"لايزنغر" هو مديرها.

إنّ "لايزنغر" على نحو دائم بين طائرتين. وهو إذ يقفز من "مانيلا" إلى "جوهانسبرغ"، ومن "كوستاريكا" إلى "بيكين"، ينظّم ورشات التنمية المستدامة و"الإدارات التعاونيّة"، المختصة بإدارات "نوفارتيس"، الإقليميّة والمحليّة. وقد استطاع أن يُدخِل، ضمن المعايير التي ستتقرّر بموجبها ترقية الإداريّين، هذا المعيار: "قَد شَجّع، في البلد الذي يعمل فيه، التقدّم نحو التنمية المستدامة". باختصار، فإنّ الفعاليّة العالميّة لمؤسّسة "نوفارتيس"، هي من كلّ وجه جديرة بالتقدير.

لقد قدّمت على نوع خاص، دعمها لباحثَين يتمتّعان بشهرة عالميّة، وهما متقاعدان من "نوفارتيس": إنهما "بول هرلينغ" (Paul HERLLING) و"اليكس ماتر" (Alex MATTER). وفي عام 2002، أسّس هذان العالمان في "سنغافورة"، معهد "نوفارتيس" من أجل الأمراض المهملة الاستوائيّة" (NITD). وفي عام 2007، كان 87 باحثاً يعملون في مختبراته. وأما تكاليف أعمال هذا المعهد، فتتقاسمها "نوفارتيس" وحكومة سنغافورا.

يحاول "ماتر" و"هرلينغ" أن يجدا دواءً لمكافحة حمّى الضنك، وجراثيم السلّ الجديدة، التي تتمتّع بمقاومة عالية. وإنّ دفتر

النفقات يتوقّع شرطين، أوّلهما، أن تكون الأدوية مصنوعة بحبوب، ولكن بشكل يمكّنها، في مناخ استوائي، حارّ ورطب، من أن تحتفظ بفعاليّتها زمناً طويلاً. وثانيهما ألا يتجاوز سعر شراء هذه الأدوية الجديدة، دولاراً واحداً للعلاج في اليوم الواحد.

إنّ الهدف المعلن هو أن يبلغوا من الآن حتى عام 2008، بدواءين جديدين إلى طور الاختبار السريري، وأن يكونا في تصرّف المرضى عام 2013.

إنّ "برنار بيكول" (Bernard Pécoul) يقود تنظيماً غير حكومي، قريباً من "أطبّاء بلا حدود"، يُدعى "المبادرة من أجل أدوية للأمراض المهملة". وهو يطرح على نفسه أسئلةً كثيرة. تُرى، ما هي أهداف "فازيلا"؟ في الواقع، إنّ بعض أكثر البلدان فقراً في العالم، قد يستطيع أن ينطلق اقتصادياً. منها مثلاً، جمهوريّة "ساووتومه ايه برانسيبيه" و"غينيا الاستوائية"، اللتين كانتا، لخمس سنوات خلت، دولتين في غاية الفقر، ولكنّهما أخذتا تحقّقان قدرةً شرائيّة مرتفعة، بفضل النفط (off shore) الممتاز، الذي اكتشف بكميّات كبيرة في مياههما الإقليميّة. وإنّ "نوفارتيس"، إذ تقدّم لبلدان فقيرة، أدوية أساسيّة بأسعار كلفتها، تراهن على المستقبل. وعندما ستبلغ هذه البلدان الرفاه الاقتصادي، تكون "نوفارتيس" في القلب منها... ويستنتج "بيكول": أيّة كانت دوافع "فازيلا"، فإنّ هذا الدعم الذي قدّمه لـ "هيرلنغ" و"مات"، بقيمة 120 مليون دولار على مدى خمس سنوات، هو إيجابي.

ولكن هل لمؤسسة "لايزنغر"، ولمعهد "ماتر وهرلينغ"، تأثير ما على استراتيجيّات تحديد الأسعار، والتسويق والاتصال، في "نوفارتيس"؟

هل اختيارات "سيّد الأرض" هذا تأثّرت بصداقته مع هؤلاء الثلاثة، المليئين بمحبة الناس؟

لا أعتقد.

إنّ أحدث مثال على وقاحة سيّد "نوفارتيس"، العنيفة، وجشعه اللامحدود، يخصّ الهند والدواء المضاد للسرطان، المسمّى "غليفيك" (GLIVEC).

إنّ "غليفيك" فعّال ضدّ أحد أشكال اللوكيميا، الأكثر خطورة. و"نوفارتيس" يربح كلّ عام قرابة 2.5 مليار دولار، بدواء "غليفيك": فالمريض يدفع طوال حياته، ما يقارب (50.000) دولار كلّ عام.

لا يشفي "غليفيك" من اللوكيميا كلّيّاً، ولكنّه يبطّئ تقدّمها على نحو واسع.

يُصنّع "غليفيك" في الهند تحت شكل مشتقّات. وإنّ الوصفة السنويّة بطريق الأدوية المشتقّة تكلّف 2.100 دولار.

و"غليفيك" يشكّل نوعاً من الرخص، التي تحدّثنا عنها في الصفحات السابقة: إنه نتاج تقليد (produit d'imitation).

عندما تنتهي مدة حماية الرخصة، تقدّم الشركة المُصنّعة في السوق، الدواء ذاته تحت شكل مغاير بعض الشيء (تعليب جديد، لون جديد الخ...). وتسجّل الشركة الدواء على أنه نتاج "جديد"، وتحميه بترخيص جديد.

وهكذا فإنّ رخصاً لها عشرون عاماً من حيث مدة الحماية، يمكنها على هذا النحو، أن تمدّد أبديّاً. فتضمن الشركة المصنّعة احتكارَها وأسعارَ بيعها، على نحو مزاجي.

هذه الاستراتيجيّة البغيضة، تُدعى "دائمة الخضرة". وهي تُتيح حماية الدواء (والأرباح الفلكية التي يوفرها) ضدّ الأدوية المشتقّة (génériques).

إنّ "منظمة التجارة العالميّة" درست هذه المسألة. وبعد سنوات من المفاوضات المكثّفة والمعقدة، بين الشركات الدوائيّة وحكومات بلدان

العالم الثالث، وُفّقوا إلى حلّ عام 2002: بعد اليوم، وحدَها الأدوية الجديدة حقّاً، والمحدّدة، يمكنها أن تظفر بحماية شهادات ذات تأثير عمومي. وفضلاً عن ذلك، فإنّ هذه المنظمة أنشأت بنداً استثنائيّاً: في حال حدوث "وضع وطني طارئ"، يمكّن الدولة المعنيّة أن تحتجّ على حماية الرخصة العموميّة.

في عام 2005، تبنّت الهند تشريعاً جديداً بشأن الرخص. وهذا التشريع يستعيد إجراءات "منظمة التجارة العالمية" بحرفيّتها.

في العام نفسه، قام "فازيلا" وفريق محاميه الدوليّين، المأجورين بسخاء فاحش، بمهاجمة هذا التشريع أمام القضاء الفيديرالي في نيودلهي.

كان "فازيلا" يريد حظر إنتاج الدواء المستخرج من "غليفيك"، وتوزيعه عالميّاً.

إنّ للهند أكثر من 20.000 مشروعاً دوائيّاً.

والهند هي، بما لا يقاس، أقوى مصنع للأدوية المشتقّة، وإنّ أكثر من 70٪ من نتاج أدويتها المشتقّة، لديها، مخصّص للتصدير، لا سيما إلى أكثر بلدان العالم فقراً. وإنّ الملايين من الناس عبر العالم، الذين يعانون من السرطان، لا يستطيعون أن يشتروا إلا أدوية مشتقّة.

إنّ هجوم "فازيلا" بالغ الخطورة. فإن قُيّض له أن يُكلّل بالنجاح، فإنّ مئات الألوف من المصابين باللوكيميا، سيتعرّضون لميتةٍ فظيعةٍ، لأنّ الدواء لن يعود في متناولهم.

في عام 2007، أصدر القضاء في نيودلهي، حكماً أوّليّاً لم يكن في صالح "فازيلا". فطعن مجدّداً بالحكم. ولكن الطعن رُفض.

في سنوات عمله الأولى، كان "فازيلا" مساعداً في معهد علم الأمراض - في كليّة الطب في مدينة "برن". أعرف بعضاً من زملائه القدامى، الذين احتفظوا معه بعلاقة ودّيّة. وهم يصفونه على أنّه

إنسان تمزّقه تناقضاته. فذاك المولع المتهلّل بالموتورات، والواثق من نفسه، يعيش في الواقع مأساةً دائمة.

إنّ "فازيلا" مؤمن برسالته، فهو يدير ثاني أقوى شركة أدوية في العالم، وينتج أدوية رفيعة المستوى. أفلا تُطوّر مختبرات "نوفارتيس" في "بال"، وفي مقاطعة الألزاس (فرنسا)، وفي الولايات المتحدة، أدوية تنقذ كلّ عام، حياة الملايين، وتقلّص الآلام، وتريح حياة البشر؟ وإنّها لمهمّة مقدّسة، أن تكتشف الجزيئات التي تقوم في أساس هذه الأدوية، وأن تنتج وتسوّق هذه الأدوية، وتضعها في متناول الناس!

ولكن، في الوقت نفسه، فلا بد من الاستمرار في البقاء - في وجه "لاروش" (LAROCHE)، و"افينتيس" (Aventis)، و"بفايزر" (Pfizer). ثم إنّ السوق العالميّة، سوق الذين يستطيعون أن يدفعوا الأثمان المرتفعة لهذه الأدوية، ليست غير محدودة.

إنّ الأعداء شرسون. وليس بين "سادة الأرض" مَن يتبادلون الهدايا. إنّها الحرب في كلّ لحظة، وهي حرب أدغال.

ما العمل؟

إن شاء "سادة الأرض" أن يستمرّوا في البقاء في مراكزهم حيث هم، يتوجّب عليهم أن يكونوا شرسين، وقحين، خالين من الرحمة. وإنّ الابتعاد عن قدس أقداس المبدأ القائل بأقصى الأرباح، باسم نزعة إنسانيّة شخصيّة، يعني انتحاراً مهنيّاً.

هذا الصراع يعيشه العديد من "سادة الأرض". هاكم حالة "بيتر برابيك" (Peter BRABECK)، سيّد "نستله".

في أثيوبيا، 7.2 ملايين رجل وامرأة وطفل، مهدّدون بالموت جوعاً. ولقد قلت إنّ أهمّ نتاج تصدّره أثيوبيا، هو القهوة. وإنّ هذا المَصدَر يوفّر للدولة القطع النادر الرئيسي. والحال أنّ الأسعار التي تُدفَع للمصدّرين، منذ ثلاث سنوات، كما قلت أيضاً، تنهار بسرعة. فإنّ

الملايين من عائلات الفلاحين تتفكّك، أو تأوي إلى قرى التنك المحيطة بالمدن، وهي تهيم على الطرقات، وتهلك شيئاً فشيئاً.

هل يتوجّب على "برابيك" أن يدفع للمنتجين الأثيوبيّين، سعراً لائقاً لحبّات القهوة التي يشتريها منهم، في حين أنّ السوق العالميّة، تتيح له أن يحصل على هذه الحبّات بأسعار بخسة؟ هل يتوجّب على "برابيك" أن يتخلّى عن مبدأ الربح الأعظم، الذي يقوم في أساس قوة "نستله" العالميّة، ويتعرّض لإخراجه من سوق القهوة، على يد أعدائه في "ارشيه دانييلز ميدلاند" (Archer Daniels MIDLAND)، و"يونيليفر" (Unilever) أو "كرجيل" (CARGILL)؟

ثمّة مثل آخر. إنّ "جوزيف اكرمان" (Joseph ACKERMANN) هو رئيس إدارة مصرف "دويتش بنك"، الذي هو أقوى بنوك أوروبا. إنه كاثوليكي من مدينة "لوسرن" السويسرية. وهو على بيّنة تامّة من الكوارث التي تُحدِثها في أفريقيا وأميركا اللاتينيّة وآسيا، مشنقة الدَّين، التي يتقن التعامل معها بمهارة فائقة. فإن هو تخلّى من جانبه فقط، عن الديون، فإنه سوف يحمي وجود عشرات الملايين من البشر. ولكنه، في الوقت نفسه، سوف يضعف موقف "الدويتش بنك" في السوق العالمية لرؤوس الأموال. ومَن سيكون المستفيد؟ ألدّ أعدائه، مصرف (Crédit Suisse Groups)، ورئيس مصرف (Margan Chase Manhattan).

في نظام الرأسمالية النهّابة، الذي يزدهر بفضل الجوع والدَّين، محدودة هي الخيارات. فإمّا يتصرّف "سيّد الأرض" بوصفه إنساناً متضامناً مع سائر البشر... فتنهار إمبراطوريّته. وإمّا يستبعد كليّاً كلّ شفقة وكلّ تعاطف، ويتصرّف كَلصّ مفترس ولئيم... فتنمو استثماراته، وتناطح أرباحه السماء، وتحفر تحت أقدامه المقابر البشريّة...

ليس ثمّة أيّ خيار آخر. ونظراً للأرباح الشخصيّة المريحة التي يجنيها الأمراء من نشاطهم، يضعف كثيراً بالنسبة إليهم، إغراء اختيار طريق التعاطف والخروج من اللعبة.

II- الإفلات من العقاب

إنّ إفلات "سادة الأرض" من العقاب، هو شبه كامل. إنّ المثل التالي يدلّل على ذلك، ولكنّه أيضاً يقدّم الدليل على ما تستطيع شعوب الأرض أن تحقّقه بتعبئتها.

إنّ شركة "يونيون كاربايد" (Union Carbide) القاريّة، المختصّة بالكيمياء الزراعيّة، كانت تقيم أكبر مصنع لها في آسيا الجنوبيّة، في مدينة "بوبال" (Bhopal)، بالقرب من نيودلهي. وكانت هذه الشركة تسيطر على نحو شبه مطلق، على سوق المبيدات في الهند.

في صباح 1984/12/3، تسرّب الغاز من المعمل. فتشكّلت غيمة من 27 طن من الغاز، وغلّفت المدينة. وهو غاز سامّ بامتياز: إنّه غاز "الميتيليسوسيانات" (Methylisocyanate). فقضى في اليوم نفسه، على أكثر من 8000 امرأة ورجل وطفل.

وخلال الأسابيع والأشهر والسنوات التالية، فعل السمّ فعلَه: شيئاً فشيئاً توفّي 20.000 شخص خلال السنوات الثلاث التالية. وأمّا من فقدوا البصر وأُصيبوا بالإعاقات والأمراض الخطيرة والمزمنة، فإنّ عددهم يبلغ اليوم أكثر من 100.000.

وما أعقب ذلك، فيُقرأ وكأنّه قائمة نموذجيّة للأحابيل والأكاذيب، التي استخدمها "سادة الأرض"، كي يتهرّبوا من مسؤوليّاتهم، إزاء الشعوب التي يستبيحونها.

المعركة الأولى: استطاعت شركة "يونيون كاربايد" أن تحمل محكمة هنديّة على النظر في المطالب التي تقدّمت بها عائلات الضحايا، للحصول على التعويضات والفوائد.

إنّ شركة "يونيون كاربايد"، شركة أميركيّة. وتبعاً للقوانين السائدة،

كان يجب أن تحاكَم حيث يقوم مركز الشركة الأمّ. ولكن محامي الشركة تذرّعوا بأنّ الدولة الهنديّة تمتلك حصصاً في الشركة المالكة لمعمل "بوبال"، ونجحوا في إجراء المحاكمة في الهند.

ما كانت النتيجة؟ كانت اتفاقاً خارج حدود القضاء، تمّ عام 1989، بين الشركة وعائلات الضحايا، وأفضى إلى دفع مبلغ 470 مليون دولار، بمثابة تعويضات وفوائد. لو كانت هذه الدعوى بالذات، قد أُقيمت أمام القضاء الأميركي، لكانت فرضت على شركة "يونيون كاربايد"، دون أدنى شك، تعويضات وفوائد تبلغ مليارات الدولارات.

إنّ توزيع 470 مليون دولار هذه، على عائلات الضحايا، تُرِك للحكومة المركزيّة في نيودلهي أن تقوم به. ولكن الموظفين ابتلعوا قسماً كبيراً منه.

مع أنّ الهند تمتلك حركات اجتماعيّةً مقتدرةً، ومجتمعاً مدنيّاً حيّاً، ذكيّاً ومصمّماً. فطعنت الجمعيّات بالاتفاق غير القضائي. وطالبت بتسليم "وارن اندرسن" (Warren ANDERSON)، رئيس إدارة "يونيون كاربايد"، للسلطات الهنديّة، وبمحاكمته في الهند بتهمة القتل غير المتعمّد. ولكن، في هذا الوقت، كان "الميتيليسوسيانات" يواصل الفتك بالناس. وكان أطفال يولدون جثثاً هامدة. وإنّ عشرات الآلاف من البالغين أُصيبوا بالعمى.

أخذت الجمعيّات التي كانت تضمّ عائلات الضحايا، بدعم من محامين ينتمون إلى المجتمع المدني، تدرس عمل الإدارة السابقة في معمل "بوبال". فكان اكتشافهم الأوّل أنّ النفايات (الكثيرة والسامّة)، لم يُصَر إلى التخلّص منها وفق تعليمات القانون الهندي، ولكنها دُفِنت ببساطة في أرض واسعة، قريبة من المعمل، مساحتها 35 هكتاراً. وكانت قد دُفِنت في آبار محفورة على سطح الأرض، فأخذت تتسرّب منها، فيما كانت "يونيون كاربايد" تنفي هذا التسرّب.

والحال أنّ هذه النفايات كانت تحتوي سموماً خطيرةً، وبخاصة الزئبق، الذي تسرّب إلى المياه الجوفيّة.

عندها، رفع أهالي المنطقة شكواهم. ثمّ تضاعفت الشكاوى: كانت مياه الحنفيّات أو الآبار مُلوَّثة. وكانت تسبّب أمراضاً وولادات لأطفال مشوّهين. أخيراً تسلّمت ولاية "ماديا براديش" (Madhya Pradesh)، حيث وضعت النفايات، مراقبة المنطقة. ولكن لم يحدث أي شيء آخر.

إنّ إحدى الاستراتيجيّات المعتمَدة في معظم الأحيان، من قِبل السادة الإقطاعيّين الجدد في العالم كلّه، ولا سيما في بلدان القسم الجنوبي من الأرض، هي الرشوة. إنّ الوزراء والقضاة والموظفين والسياسيّين، الإقليميّين والمحليّين، يحصّلون رواتب متدنّية. ولذا فإنّ هديّةً ما، تُقدَّم في تكتّم، على يد عميل "لسادة الأرض"، من شأنها أن تصلح الأمور قليلاً.

واليوم، فإنّ الشكاوى التي يتقدّم بها مستخدمو الماء الملوّث في "ماديا براديش"، تواجَه بتجاهل أصمّ. فما من شيء يتحرّك. والزئبق، مع ذلك، يواصل القتل والتشويه.

في عام 1999، استنجد الضحايا بمنظمة "غرين بيس (السلام الأخضر) الدوليّة". فأجرت هذه تحقيقاً علميّاً معمّقاً. ونشرت نتائجه. فأثبت التقرير وجود نسبة عالية من الزئبق ومواد كيماويّة أخرى، ذات قدرة سامّة مرتفعة، في المياه الجوفيّة.

عندها قرّرت الجمعيات رفع دعواها أمام القضاء. ولكنها، بعد ما تعلّمت من هزيمتها عام 1989، توجّهت هذه المرّة، لا إلى المحاكم الهنديّة، ولكن إلى القضاء في نيويورك. وها هم، إذن، يدّعون أمام محاكم الولايات المتحدة، ضدّ الشركة القاريّة، "داوكيميكال" (Dow Chemical)، التي كانت من اشترت "يونيون كاربايد" عام 2001 (و"داوكيميكال" هي التي صنعت النابالم الذي صُبّ، خلال الحرب في

فييتنام وأفغانستان والعراق، على شعوبها الشهيدة. وهي، بما لها من علاقات وثيقة مع البنتاغون، تتمتّع بنفوذ واسع، سياسي ومالي، وإذن قضائي، في الولايات المتحدة).

أخيراً ردّ القاضي الأميركي دعوى ضحايا "البوبال". وكانت حجّته الكبرى أنّه لا يستطيع الدخول في الموضوع، لأنّ حكمه، في حال تأييده المحتمل للشاكين، لا يمكن تنفيذه في بلد يبعد 8000 كم... فاستأنف ضحايا "البوبال".

فأصدرت محكمة الاستئناف في الولايات المتحدة، قراراً يسترعي الانتباه. وفي الواقع، فقد جاء فيه أنّه، إن كانت الحكومة الهنديّة تعترف بأنّ الحكم الصادر في نيويورك، هو قابل للتنفيذ، يتوجّب على محكمة قاضي المحكمة الأولى أن يعاود دراسة الملف.

وفي شهر كانون الثاني من عام 2004، تجمّع في مدينة "بومباي"، أكثر من 100.000 إنسان، قَدموا من القارّات الخمس، وهم يمثّلون قرابة 10.000 حركة اجتماعيّة ونقابة وتجمّع وكنيسة الخ... يمثّلون المجتمع المدني العالمي، بمناسبة المؤتمر الاجتماعي العالمي الرابع. وكانت قضيّة التعويض لضحايا "بوبال"، والكفاح ضد غطرسة شركة "داوكيميكال"، تحتلّ مكانها في موضوعات المؤتمر.

عندها اضطرت الحكومة المركزيّة وحكومة "ماديا براديش"، لأن تعلنا موافقتهما، وبلّغتا نيويورك عن قبولهما الصفة التنفيذيّة فوق الأرض الهنديّة، لحكم قضائي أميركي محتمل.

في عام 2007، كانت القضيّة لا تزال بيد القضاء في نيويورك. وكان الصحفي "هرفيه كمف" (Hervé KEMPF)، الذي ساهم منذ عام 2004، بفضل تحليلاته الدقيقة، في إطلاع الأوروبيّين، على نطاق واسع، على كفاح الناجين والعائلات الشهيدة في "بوبال"، قد كتب يقول:

« إن كـــان القاضـــي (الأميركـــي) يحمّـــل المســـؤوليّة لشـــركة "داوكيميكال"، فإنّ قراره سيكون له تأثير هام: فهو يعني أنّ أشـــكال التلوّث الذي تحدثه الشركات القاريّة في بلدان الجنوب، لن تظلّ دون عقاب. »[6]

إليكم هذه الحادثة:

إنّ إحـدى مهمّـاتي، بوصـفي المقـرّر الخـاص للأمـم المتحـدة بشـأن الحـقّ في التغذيـة، قـد قـادتني في شـهر أيلـول عـام 2005، إلى وسـط الهند، في ولاية "ماديا براديش". إنّ عاصـمتها هـي "بوبـال". فاكتشـفت بدلاً من مدينة صناعيّة، ذات جدران سـوّدها دخـان الأفـران الضـخمة، وبدلاً من معامل بيتونيّة، وأبنية مقـزّزة كالتي عرفتـها في مـدن أخـرى من وسط الهند، اكتشفتُ مدينةً صغيرةً وجذّابـة، قائمـةً علـى ضـفاف بحيرة، وتائهة بين التلال.

كانـت أشـجار البلـح الملكيّـة تحـدّ شـوارعها العريضـة. وفـوق الـتلال الضائعة بين الخضرة، تنتصب معابـد بوذيّـة، ذات بيـاض ناصـع، تعـود إلى القرن الثالث قبل المسيح.

وعلى مبعدة أقلّ من كيلومتر واحد، من قصر "نور صباح" (Noor SABAH)، يكتشـف المـرء أطـلال المعمـل الكيميـائي، السـوداء، وسـط حقل من الأشجار المثمرة.

وهنا شرطيّان متعبان يقومان بحراسة الحقل.

وحيـث ارتفعـت في شـهر كـانون الأول مـن عـام 1984، في السـماء الصافية، غيمة صفراء مـن الغـاز القاتـل - وقـد قتـل 20.000 إنسـان، وجعـل عشـرات الألـوف يفقـدون البصـر - لم يعـد يوجـد اليـوم سـوى جدران محروقة...

تنتصب لافتة ضخمة، باللغتين الهنديّة والانكليزيّـة، فوق الجدار

الرئيسي. إنّه يشهد على بقاء الكارثة في ذاكرة الأحياء، ولكن أيضاً على الغضب الذي يملأ سكان "بوبال" اليوم، حيال الصفاقة غير المحدودة، والغطرسة لدى سادة الشركة الكيماويّة الدوليّة.

كتب في اللافتة: "اشنقوا "وارن اندرسن" (Warren ANDERSON)"

إنّ شركة "داوكيميكال" ليست الشركة الدوليّة الخاصّة الوحيدة، التي تحاول - بنجاح حتى الآن - أن تتهرّب من مسؤوليّاتها.

ولنتناول مثالاً آخر: إنه مثال "مونسانتو" (MONSANTO).

في فييتنام، أقامت منظمات خيريّة دوليّة، والدولة، بيوتاً خُصّصت لإيواء ضحايا "العامل البرتقالي" (Agent Orange)، هذا السمّ المشوِّه، الذي نشرته الطائرات الأميركيّة، بعشرات آلاف الأطنان، فوق الأنهار ومزارع الأرزّ والغابات.

التقيت في أحد هذه البيوت، "أنّه كييت" (Anh KIET)، وهو شاب في ما يقارب 23 عاماً. إنّه معاق. يتّسم وجهه بالقلق والألم. عيناه السمراوان، تتحرّكان بحثاً عن نظر الزائر. يرى أطبّاؤه أنّ عمر "أنّه كييت" العقلي، هو عمر طفل في السادسة. هو لا يستطيع التكلّم. وفي مواعيد الطعام، يقدِّم له الممرّض المساعد اللقمةَ في الملعقة. وهو، بشكل منتظم، يطلق أصواتاً حادة، شبيهة بأصوات حيوان.

يقطن "كييت" في "كوشي" (Cu Chi)، التي تبعد 45 كم من مدينة هوشي منه. وهو واحد من 150.000 طفل، وأكثر، وُلدوا معاقين ومشوّهين بفعل "العامل البرتقالي".

هناك قرابة 800.000 فييتنامي يعانون من أمراض مزمنة، تعود إلى تناولهم أغذية أو مياهاً تحتوي مادة "الديوكسين" (Dioxine).

ما بين عام 1960 وعام 1971، كانت الطائرات الأميركيّة قد صبّت فوق فييتنام، أكثر من 79 مليون ليتر من المبيدات من صنف "العامل البرتقالي".

في شهر شباط من عام 2004، كانت "المنظمة الفييتناميّة لضحايا العامل البرتقالي" "الفافا" (VAVA) (Vietnamese Association of Victims of Agent)، قد تقدّمت بشكوى أمام القضاء الأميركي في نيويورك، ضدّ "مونسانتو" (Monsanto)، وستّة وثلاثين مصنعاً آخر للسمّ الكيميائي. وكانت منظمّات أميركيّة غير حكوميّة، ومحامون متبرّعون، يساندون معركة الفافا (VAVA).

كانت الشكوى تطالب بتعويضات وفوائد للأطفال المعاقين، وللآلام التي تحمّلها الألوف من الناس الآخرين، الذين أصيبوا بالسرطانات، أو بأمراض أخرى خطيرة، بسبب السمّ الأميركي.

كان محامو "الفافا" يرجون خيراً. فقد كانت شكوى مماثلة قُدّمت قبل عام، من قبل (10.000) مقاتل أميركي سابق في حرب فييتنام - وكانوا قد أُصيبوا، هم أيضاً، إصاباتٍ جسديّةً ونفسيّةً، خطيرةً، بسبب "العامل البرتقالي" - وأعلن القضاء في نيويورك ترحيبه بها.

وفي 10 آذار من عام 2005، أصدر القاضي الفيدرالي "جاك فاينشتان" (Jack B. WEINSTEIN)، من قضاء ولاية بروكلين، قراره، وكان عرض دفوعه يضمّ 233 صفحة. وجاءت نتيجته: إنّ الشكوى الفييتناميّة مرفوضة "لافتقارها إلى إثباتات كافية".

III- تحطيم المنافسة غير الشريفة لما هو حي

إنّ حبّة الأرزّ، المطعّمة بجينة مستمدّة من نوع آخر (من حبّة بندورة، من رأس بطاطا، من عنزة الخ...) يمكنها أن تطوّر سنابل أقدر على مواجهة التقلّبات المناخيّة، وسنابل تنبت في أرض قاحلة أو تنتج المزيد من الحبّات، وأخيراً سنابل بوسعها ألاّ تحتاج إلى مبيدات. ولكن، هذه النباتات المعدّلة جينيّاً، تنتج في الوقت نفسه غذاء لا يعرف أحدٌ، نتائجَه المتوسطة أو البعيدة المدى، على جسم الإنسان. يجب إذن التزام أقصى حدود الحذر. ويجب أن يحضّنا على ذلك مرض "كرويز فيلد-جاكوب"، المسمّى مرض "جنون البقر".

إنّ التعديل الجيني في نبتة ما، هو ثمرة إقحام جينات أجنبيّة في النوع... في حين أننا نكاد لا نعرف شيئاً عن وظيفة "العامل الوراثي". ولكن النبتة المعدّلة جينيّاً هي، بالنسبة إلى "سادة الأرض"، مصدر أرباح فلكيّة، لأنها محميّة برخصة. فإمّا يقتطع الفلاح المنتج، الذي يستخدم البذرة المعدّلة جينيّاً، من حصاد العام المنصرم، بذاراً للعام الآتي، وعندها يترتّب عليه أن يدفع الرسوم للشركة القاريّة، مالكة الرخصة. وإمّا هو يشتري بذاراً معدّلاً، لن تمكّنه حبّاته المحصودة من إعادة زرعه من جديد (تلك هي الرخصة المسمّاة القاضية) فيضطرّ عندها لشراء بذار جديد، كلّ عام، من الشركة.

إنّ اكتشاف وانتشار الأجسام المعدّلة جينيّاً، يحقّق حلماً قديماً لدى الرأسماليّين، وهو تحطيم منافسة الحيّ غير الشريفة. فإنّ الطبيعة والحياة تنتجان بالمجّان، وتعيدان بالمجان إنتاج النباتات والبشر والغذاء والهواء، والماء والنور.

ومثل هذا الأمر لا يُطاق بالنسبة إلى الرأسمالي. فهو يرى أن ليس ثمّة مكان لخيور عامّة، بالمعنى الحصري للكلمة. والمجانيّة تصيبه بالهلع.

كان جدّي لأمّي وجميع أجدادي من هذا الجيل، فلاّحين من "بانغرتن"، وهي ضيعة سويسريّة صغيرة في مرتفعات "برن"، تقع بين جبال "الجورا"، وسفوح جبال "الألب". وقد رأيتُ، مذ كنتُ طفلاً، جدّي، ويساعده في ذلك زوجته، وأمّي والمستخدمون في المزرعة، يحصد القمح، ويضرب السنابل ويملأ الأكياس ويحملها إلى المطحنة، في عربات (كانت يومها، تبدو لي ضخمةً). وكان في شهر آب من كلّ عام، فوق الهضاب المشمسة من أرياف "برن"، يقتطع الحبّات ليزرعها في الشتاء. إنّ هذه الفكرة بالنسبة إلى "سادة الأرض" في شركة "مونسانتو" (Monsanto)، هي اليوم، بكلّ بساطة، بمثابة كابوس.

اليوم، إنّ 60٪ من السكّان الناشطين في الأرض، هم فلاّحون. كيف السبيل إلى إقناعهم بأنّ خلاصَهم يقوم على قبول البذار المرخّص والمعدّل جينيّاً؟

إنّ أوهى حجّة يلجأ إليها السادة الجدد، هي الادّعاء بأنّ الزراعة المعدّلة جينيّاً، هي السلاح المطلق ضدّ الجوع. وهم يؤكّدون أنّ كلّ مَن يريد أن يضع حدّاً لمجزرة الجوع، يتوجّب عليه أن يعتمد أشكال التحكّم الجيني بالنباتات والأبقار والماعز والخراف والدجاج. إنّ هذا الخداع لفاضح، ولكنّه يُكرَّر بقوّة كلّ يوم في جميع بلدان العالم، بواسطة أجهزة دعاية "سادة الأرض"، وباعتماد مليارات الدولارات.

أذكّر: إنّ تقرير "منظمة الأمم المتحدة من أجل التغذية والزراعة" (FAO) حول انعدام الأمن الغذائي في العالم، الذي نشر عام 2006، مدعوماً بالأرقام، يُثبت أن الزراعة العالميّة في وضعها الراهن، من حيث تطوّر القوى المنتجة، يمكنها أن تغذّي دون مشكلة (وخصوصاً

دون الزراعة المعدلة جينيّاً)، 12 مليار إنسان. وكلمة "دون مشكلة" تعني التوفير لكلّ إنسان بالغ، كلّ يوم، كميّة من الغذاء تحتوي 2700 حُرَيرة. والحال أنّنا اليوم لسنا سوى 6.2 على وجه الأرض.

لقد قلت أنّ النباتات المعدّلة جينياً، تحميها رخص. وهذا ما يفسّر جاذبيّتها. وإنّ شركة "مونسانتو" تقبض كلّ عام عشرات مليارات الدولارات من الرسوم. وإنّ إداريّيها يلاحِقون بعدوانيّة خارقة، مَدينيهم.

إنّ إحدى هذه الدعاوى قد لفتت حديثاً الانتباه على نحو خاص. إنها الدعوى التي واجهها "برسي شمايزر" (Persy SCHMEISER).

إن "شمايزر" هو مزارع كندي يبلغ 73 عاماً، وهو يقيم مع أسرته في بلدة "برونو" (Bruno) الصغيرة، في ولاية "ساسكاتشيوان" (Saskatchewan). له نظارتان دقيقتان محاطتان بالفولاذ، وشعر مغبرّ مسرّح بأناقة، وهو يرتدي بزّةً بنّيّةً، تزيّنها ربطة عنقٍ حمراء. وكانت منظمة "السلام الأخضر" (Green Peace) ترافقه في جولته الإعلاميّة عبر أوروبا. وقد حطّ في جنيف في بداية شهر حزيران من عام 2004.

إنّ "شمايزر" ليس بغاضب، ولا بيائس. إنّه يروي. في عام 1998، طالبه محامو "مونسانتو- كندا" بأن يدفع لشركتهم، مبلغاً كبيراً، بسبب استخدامه "الاحتيالي" لبذار من "الكولزا" (Colza)، معدّل جينيّاً، يمتلك رخصةً له. طالبوه بـ (400.000) دولار، لا أكثر ولا أقلّ!

رفض "شمايزر".

وعندها رفع المحامون شكوى ضدّه "باستخدامه رخصةً مزوّرة". وهم يتهمون "شمايزر" بأنه اشترى ثم باع دون إذن، "كولزا" من ماركة "راوندأب ريدي" (Roundup ready). وهذا النوع من "الكولزا" المعدّل جينياً، يتميّز بصفة أساسية، وهي مقاومته لمُبيد من ماركة "راوندأب"... مصنوع، هو أيضاً، في شركة "مونسانتو"!

قدّم عملاء "مونسانتو"، في زهوّ، قائمةً ببعض نبتات "الكولزا" المعدّلة، التي حدّدوا أماكنها، إثر زيارات ليليّة للحقول. لم ينكر "شمايزر" أنّ بعض نبتات "الكولزا" المعدّلة جينيّاً، نبتت في حقله. ولكنّه قال إنّ الهواء هو الذي نقل هذه الحبّات. وفي الواقع فإنّ سبعاً من جيرانه يستخدمون بذور الكولزا المعدّلة... وهو، من جهته، يدّعي أنّه ضحيّة تلوّث غير مسؤول.

لم يبالِ قاضي المحكمة الابتدائيّة بادعائه. فما كان يجوز "لشمايزر" أن يستثمر البذور المرخصة، أية كانت الطريقة التي هبطت بها في حقله.

ولكن "شمايزر" رجل دقيق، نزيه، حريص. إنّه فلاّح كندي بحقّ. فلقد كان هو نفسه قد اكتشف، قبل جواسيس الشركة، وجود هذه الحبوب. كيف؟ ففي جانب حقله، بالقرب من حفرة، كانت بعض نبتات "الكولزا" قد قاومت على نحو مدهش، عندما نشر المبيدات من ماركة "راوند أب" في حقله.

إثر صدور أوّل حكم، استبدّ الخوف "بشمايزر". فهو ليس بغني. وكيف له أن يدفع الأعطال والفوائد، ورسوم الرخصة، المتأخّرة، التي صدرت بحقّه؟

قال: "لم أكن أملك المال، وكنتُ مهدّداً بالإفلاس. وكنتُ أريد إنقاذ أسرتي وزوجتي".

فاستأنف.

في 21 أيار 2004، إثر ست سنوات من المرافعات (ونفقات المحامين)، بلغت القضية أخيراً القضاء الأعلى، فحُكِم على "شمايزر" بخمسة أصوات، ضدّ صوت واحد. انتصرت شركة "مونسانتو".

يقول "شمايزر":

« منذ خمسين عاماً، أقتطع حبوباً في حقولي من أجل بذور السنة

التالية... لا يجوز لمزارع أن يفقد يوماً حقّه في إعادة زرع حبوبه... إنّ الحبوب هي حصيلة آلاف السنين من الحفظ والاختيار، عند جميع مزارعي الأرض... إنّ القضاء الأعلى يكرّس ضياع حقّ أساسي وأبدي. ».

خلال جولته في جنيف، كان يرافقه "توم ويلي"، وهو أيضاً مزارع من الولايات المتحدة. و"ويلي"، مثله مثل الآلاف من زملائه الأميركيّين الشماليّين، يتعرّض حالياً لتلميحات محامي "مونسانتو"، وابتزازهم وتهجّماتهم.

ليؤذن لي هنا بذكرى شخصيّة.

إنّ الأمم المتحدة تعلن يوم 16 اكتوبر من كلّ عام، "يوم الغذاء العالمي".[7] ومنذ تعييني، في شهر أيلول عام 2000، مقرّراً خاصّاً للأمم المتحدة، حول حقّ التغذية، أعقد في هذا اليوم، مؤتمراً صحفيّاً أمام الصحفيّين المعتمَدين في قصر الأمم في جنيف.

وهذا ما فعلته في 16 اكتوبر من عام 2002.

والحال أنّ المجاعة، عام 2002، كانت تجتاح مناطق واسعة من أفريقيا الاستوائيّة. ففي المالاوي وزامبيا وشمال أفريقيا الجنوبيّة، وبوستوانا وليزوتو، وبعض مناطق زمبابويه وأنغولا، كان محصول الحبوب، ولا سيما الذرة، كارثيّاً. كان الجفاف مستشرياً. ويضاف إليه في أنغولا نتائج الحرب الأهليّة الفظيعة. باختصار، كان أكثر من 14 مليون طفل ورجل وامرأة، مهدّدين بموت فوري.

كان "برنامج الغذاء العالمي" (PAM) يوزّع عشرات آلاف الأطنان من الغذاء، لا سيّما من الذرة، في المناطق المنكوبة. وكان القسم الأكبر من هذه الذرة مقدّما بالمجّان من الولايات المتحدة الأميركيّة. وكان كلّه، دون استثناء، من الحبوب المعدّلة جينيّاً.

في 12 اكتوبر 2002، أثار رئيس جمهوريّة زامبيا، فضيحة: على الرغم من الوضع الغذائي الهشّ لقسم كبير من سكّان زامبيا، فقد رفض الذرة الأميركيّة. وقد ندّد به بوصفه "غذاءً مسمّماً"، وطلب من "برنامج الغذاء العالمي" أن يتوقّف فوراً عن توزيعها.

في ختام مؤتمري الصحفي، سألتني صحفيّة أفريقيّة فتيّة، رأيي في تصريح الرئيس الزامبي. فكان ردّ فعلي يتّسم بحذر سويسري خالص. فقد قلت:

« إن الأسرة العلميّة العالميّة منقسمة في ما يتعلّق بالأخطار الناجمة عن الأجسام المعدّلة جينيّاً، على الصحة العامة. وإنّ بعض العلماء يرون خطراً في استهلاك غذاء هجين. وأنا لست بيولوجيّاً ولا طبيباً. فلا يسعني بالتالي الفصل في هذا الخلاف. ولكني ألاحظ أنّ الاتحاد الأوروبي يأخذ بمبدأ الوقاية، ويمنع التجارة الحرّة بالمواد المعدّلة جينيّاً (وهو لا يسمح إلاّ باستهلاك الصويا الهجين، لغذاء الماشية). فالاتحاد الأوروبي هو في حرب مفتوحة مع الحكومة في واشنطن. على كلّ حال، إنّ واشنطن قد شكت الاتحاد الأوروبي لدى المراجع القضائيّة الخاصّة بمنظمة التجارة العالميّة...

إن كان يحقّ للرئيس جاك شيراك وللمستشار غرهارد شرويدر أن يشكّكا في عدم أذيّة الأغذية المعدّلة جينيّاً، فإنّه يعود للرئيس الزامبي الحقّ نفسه. وأنا أعتبر الرفض الأفريقي مشروعاً. ».

وكرّرتُ رأيي أمام مراسلي الإذاعة البريطانيّة (BBC)، وأمام "إذاعة فرنسا الدولية" (Radio France Internationale).

غادرت، بعد أيّام قليلة، إلى بنغلادش. في صالون الخطوط الجويّة البريطانيّة بمطار "هيثرو"، في لندن، تلقّت معاونتي "دوتيما بغفاندين" (Dutima BHAGWANDIN)، على كمبيوترها المحمول،

رسالةً عاجلةً من المسؤول الأعلى لحقوق الإنسان، "سيرجيو فييرا ديه ميلّو" (Sergio Vieira de MELLO). كان يسألني بإلحاح الاتصال الفوري به. كانت الرسالة من نيويورك. وقد أعطاني "سرجيو" رقم جواله الأميركي.

أقلعت الطائرة. فور وصولي إلى "دكّا"، بعد خمسة عشر ساعة، حاولت الاتصال به. ولكن الاتصالات بين "دكّا" ونيويورك، صعبة. أخيراً، سمعت على الهاتف صوت "سيرجيو" الحارّ. بدا لي قلقاً: "إنّ الأميركيّين يطلبون رأسك!".

كانت الهجمة الأميركية ضدّ شخصي الهزيل، قد عرفت مرحلتَين: في جنيف، كان "كيفن موليه" (Kevin E. MOLET)، وهو صاحب شركة قاريّة دوائيّة، مركزها في ولاية "أريزونا"، وهو أيضاً سفير الولايات المتحدة لدى المركز الأوروبي لهيئة الأمم، قد قام بزيارة "لسرجيو فييرا"، في قصر "ولسون". قال له "موليه": "إنّ زيغلر قد تجاوز تكليفه. ليس من اختصاصه أن يقرّر بشأن المزروعات المعدّلة جينيّاً. يجب تنحيته".

وبعد يومين، كان السفير الأميركي في هيئة الأمم بنيويورك، قد تقدّم بالطلب نفسه من "كوفي عنان".

كان رد فعل "سرجيو فييرا"، ورد فعل "كوفي عنان"، متطابقين:

« إنّ لكلّ مقرّر مختصّ، الحريّة المطلقة، والاستقلال في أحكامه. وإن هو تجاوز تكليفه، فيعود للجنة حقوق الإنسان، أو للهيئة العامّة أن توبّخه... وإن كان لكم من مآخذ على زيغلر، فقولوها له مباشرة. »

إن "سرجيو ديه فييرا ديه ميلّو" هو من أبناء "ريو دو جانيرو"، من رأسه حتى أخمص قدميه، وهو أحد أقرب جميع الناس الذين عرفتهم، إلى قلبي. كان ابناً لدبلوماسي برازيلي، استبعدَته

الدكتاتوريّة العسكريّة، وكان طالباً في السوربون في شهر أيّار عام 1968. وقد شارك على نحو فعّال في الثورة الطلابيّة، فاعتقلته الشرطة، ثم طُرِد من فرنسا. وعندها قدم إلى جنيف.

كان طالباً في المعهد الجامعي للدراسات الدوليّة العليا. وكان يتدبّر أموره الماديّة، بقيامه بخدمات صغيرة لصالح الهيئة العليا للأمم المتحدة من أجل اللاجئين. والتقى فيها "كوفي عنان"، الذي كان في وضع يماثل وضعه. وفي هذه الفترة أيضاً، نشأت صداقتنا.

في ما بعد، أصبح "سرجيو" أحد أبرز القادة وأحبّهم في هيئة الأمم: إذ صار مساعداً للأمين العام في كوسوفو، ثمّ في تيمور الشرقيّة، وأخيراً المسؤول الأعلى لشؤون حقوق الإنسان... دون أن يفقد ذرّةً من حرارته الإنسانيّة وتصميمه.

عندما كان الأمر يتعلّق بإنقاذ البشر، وبالنضال من أجل العدالة، كان "سرجيو" الباسم يتحوّل في ومضة إلى مقاتل عنيف، قاسٍ، كفؤ، لا يهادن.

اغتيل "سرجيو"، مع اثنين وعشرين من معاونيه، من نساء ورجال، بواسطة شاحنة كان يقودها انتحاري، يوم 19 آب عام 2003، في فندق "قنال" في بغداد، وقد أصيب يومها 200 شخص بجروح. وقد تبنى هذا الاغتيال أحد شركاء أسامة بن لادن، وهو أبو مصعب الزرقاوي. وحتى اليوم، لم تُفضِ القضية إلى اعتقال أيّ إنسان.

يقوم ضريح "سرجيو" اليوم في أسفل الجدار الشرقي، من مقبرة "حارة الملوك في جنيف"، وبجواره يرقد "خورخيه لويس بورجيس" - بالقرب من ضريح "جان كلفان".

في مطلع شهر تشرين الثاني 2002، كان "سرجيو" عائداً من نيويورك، وأنا من بنغلادش. ناداني: "هل اتصل بك "موليه" (Moley)؟. كلا، لم يكن السفير الأميركي قد أتى بحركة.

قال لي: "مع أنه وعدني بذلك... اتصلِ به هاتفياً".

اتصلت ثلاث مرات بالقلعة الأميركية في "شامبيزي" (Chambesy)، عبثاً. رفض "موليه" الإجابة على ندائي.

وحُدّد لي موعد مع الأميركيّين، في أرض محايدة، في "مقهى الأفعى"، عند الباب الرابع عشر من قصر الأمم. هذا المقهى ينتشر كالأفعى، عبر فتحات زجاجيّة توفّر منظراً رائعاً على الحديقة، والطواويس وألوان البحيرة المتقلّبة، وفي البعيد قمم جبال الألب.

كان هناك رجل قصير القامة، منكوش الشعر، أغبره، يرتدي بزّةً قاتمةً تقطعها خطوط زرقاء، وقميصاً أبيض، وربطة عنق فضيّة. وكان بادي الانزعاج، وقد مدّ لي يده المندّاة... وانحجب على الفور. كان "موليه". وقد تركني وحدي بحضور عملاقين لهما سحنة مقلقة، وقد قدّما نفسيهما لي، بوصفهما "دبلوماسيّين".

أحدهما كان خلاسياً فظاً وصاخباً، ذا مزاج مشاغب، فيما الآخر كان أبيض يصعب تحديد عمره، باهتاً وشاحباً. وبدآ هجومهما على الفور: "أنت معادٍ لأميركا... أنت تخدم مخطّطاً مخرّباً... وسُمعتُك مرعبة... يتوجّب عليك أن تتخلّى عن تكليفك... وعد إلى جامعتك؟".

قدمت إلى الموعد أحمل ملفّاتي، كي أشارك في نقاش عقلاني. فوجدتني أمام "أزعرين" من الأزقة.

صعقتني سوقيّة الرجلين.

تخطّيت لحظة دهشتي الأولى، وقرّرت المجابهة.

كان توقيت النزاع سيّئاً.

كان تكليفي كمقرّر خاص، مقرّراً له أن يتجدّد لفترة ثلاث سنوات جديدة، في ربيع عام 2003، إبان الجلسة التاسعة والخمسين للجنة حقوق الإنسان. والحال أني كنت أعرف أنّ الأميركيّين قادرون. وإذا ما استخدموا حقّاً طرقهم، فإنهم يستطيعون تدمير أيّ مسؤول في جهاز الأمم المتحدة.

عقدتُ جلسة تشاور، في مقهى المعهد الجامعي لدراسات التنمية، مع مساعدَيّ وصديقي، "سالي- آن وي" و"كريستوف غوليه". فقرّرنا يومها القيام بمجازفة مطلقة. إنّ الرهان على المزروعات المعدّلة جينيّاً، والنتائج التي يمكنها أن تنسحب على الفلاحين الأفارقة، كانت تبدو لنا أساسيّة.

قرّرنا مواصلة الدفاع عن موقفنا حيال البذور المعدّلة جينيّاً، حتى لو خسرتُ تكليفي.

وقامت المعركة الفاصلة يوم 11 تشرين الثاني عام 2002، أمام الجمعيّة العامة في نيويورك. فهاجمني السفير الأميركي، "سيشان سِيف" بهذه العبارات:

« لقد دعوتَ حكوماتٍ إلى فرض المجاعة على شعوبهم، إذ شجّعتهم على رفض الغذاء الوحيد المتوفّر لهم اليوم... واستخدمتَ مركز للتنديد بالغذاء الذي يقدّمه الشعب الأميركي من أجل مكافحة انتشار المجاعة، وشجّعتَ حكومات على رفض هذا الغذاء لمواطنيهم الجائعين... وأنت، إذ دلّلت على جهلك للعلم وللسياسة الثابتة للأمم المتحدة، مسؤول عن تعريض ملايين البشر لخطر محقّق...

السيد زيغلر، إنّ للأعمال نتائج، وأعمالك من شأنها أن تسبّب الموت لكائنات بشريّة ».[8]

على الرغم من تهجّم "سيشان سيف"، نال تقريري تأييداً من غالبية قويّة في الجمعيّة العامّة. وبعد ستّة أشهر، جدّدت لجنة حقوق الإنسان، تكليفي بواحد وخمسين صوتاً، ضدّ صوت واحد (الولايات المتحدة) وامتناع صوت (استراليا).

إنّ القراء الذين قلّما يعرفون حيل ومؤامرات "سادة الأرض"، يسعهم أن يدهشوا للحرب الغريبة التي شنّها ضدّي الدبلوماسيّون الأميركيّون.

إنـي أحـبّ عملـي، وإنّ عمـل المقـرّر الخـاص ممتـع للغايـة. ولكـن تـأثيري هـو متواضـع حقّـاً، وأنـا أعـرف ذلـك تمـام المعرفـة. فكيـف تسـتطيع وزارة الـدفاع القـادرة، ووكالـة الاسـتخبارات المركزيّـة (CIA)، التي تفوقها قدرةً، أن تبذل، في مثل هذه الأحوال، مثل هذا القدر مـن التصميم على مراقبتي ومعاكسة ما أفعل؟

إنّ السفير الأميركي الأنيق، "سيشـان سيف"، لم يـؤمن بكلّ تأكيد، إبّـان مداخلتـه في 11 تشـرين الثـاني 2002، لحظـةً واحـدةً، بالغبـاوات التي كان يتلفّظ بها ضدّي. وكانت أجهـزة البعثـة، قد أعدّت لـه هـذا النصّ الأجوف. وقد قرأه بصوت جهوري، فيمـا كـان يحـدّق فـيّ، فوق نظارتيه، بنظـرات مفترسـة. كانت المهزلـة مـثيرة للشـفقة. ولكـن فيمَ التهجّم؟

إنّ رهـان النـزاع علـى المزروعـات المعدّلـة جينيّـاً، كـان ضـخماً. فـإنّ الشركات الغذائيّة المصنّعة الأميركيّة، تواجه منتهى الصعوبة لتفـرض خارج الولايات المتحدة، بذورها ومنتوجاتها الهجينـة. وهـم، في العديـد مـن البلـدان، لا سيما في أفريقيـا وأميركـا اللاتينيّـة، يبـدون اسـتعداداً كاملاً ليلتفوا حول منـع انتشـار البذور المعدّلة جينيّاً.

في طليعة هذه الشركات، شـركة "مونسـانتو" (MONSANTO)، الـتي تتمتّـع في البيـت الأبـيض بنفـوذ هائـل. فـإنّ انفتـاح الأسـواق العالميّـة للبـذور (والمنتوجـات) المعدّلـة، هـي أولى أولويّاتهـا. في الواقـع، فـإنّ "مونسـانتو" هـي أولى شـركات المزروعـات المعدّلـة جينيّـاً في العـالم: إنّ 90٪ من أصل 70 مليون هكتار من المزروعات المعدّلـة جينيّـاً في العـالم، تستخدم بذورها.

كيـف انتـهت المعركـة بـين "سـادة الأرض" وأُجَـرَائهم الدبلوماسـيّين الأميركـيّين مـن جهـة، ورئـيس الدولـة في زامبيـا وحلفائـه في الأمـم المتحدة، من جهة أخرى؟ إنّ الهـدف الصـريح لشـركة "مونسـانتو"، هـو

استخدام الإعانة الغذائيّة الأميركيّة، لاختراق البلدان التي تمنع البذور المعدّلة جينيّاً.

في "زامبيا"، اضطرّ "برنامج الغذاء العالمي" للتخلّي عن توزيع الفضلات الأميركيّة المعدّلة جينيّاً. فوجدت "منظمة الغذاء العالمي" نفسها مضطرّةً لطحن حبّات الذرة قبل توزيعها. ولقد كانت الذرة المطحونة هي التي أنقذت، أخيراً، سكان زامبيا من المجاعة. وبعبارات أخرى: فشلت "مونسانتو". فلم يعد بوسع الفلاحين الزامبيّين، وقد باتوا يتلقّون الطحين، بدلاً من الحبّات، أن يقتطعوا من الأطعمة الموزّعة، البذور التي كانوا بحاجة إليها لمحصول العام التالي. وهكذا، فإنّ بذور الذرة المعدّلة جينيّاً، لم تستطع أن تدخل زامبيا.

ولكن "مونسانتو" لا تستسلم.

نظّم "خبراؤها"، من 21 إلى 23 حزيران 2004، في "واكادوكو"، عاصمة "بوركينا فاسو"، مؤتمراً حضره رؤساء دول "مالي، وبوركينا فاسو، والنيجر وغانا"، وكذلك 300 وزير وموظّف كبير في جميع دول الساحل الإفريقي. كان الرهان: إدخال "التكنولوجيا الحيويّة" في زراعة أفريقيا الغربيّة.

كان قرابة مائة عالِم، من الدعاة المقتنعين (و/أو المشترَين بسخاء) بالبذور المعدّلة جينيّاً، قد حُملوا من الولايات المتحدة إلى "واكادوكو". وكانت وزيرة الزراعة الأميركيّة، "آن فينمان" (Ann VENNEMAN) هي أيضاً موجودة. وقد وَجّهت عبر شاشة ضخمة، في افتتاح المؤتمر، لرؤساء الدول والوزراء والمسؤولين الأفارقة، هذا التصريح المذهل:

"لقد فاتتكم الثورة الخضراء والثورة الصناعيّة، فلا يجوز لكم أن تفوّتوا عليكم ثورة الجينات!".

ما كان الصدى الذي لاقاه نداء "آن فينيمان"؟

وحدَها جمهوريّة "بوركينا فاسو" التزمت بفتح سوقها أمام البذور

المعدّلة جينيّاً. ولكن لا نجهلنّ أنّ رئيس هذا البلد، "بليز كمباوريه" (Blaise CAMPAORÉ)، هو رجل لا يخشى شيئاً، ويتقن الاندماج في دهاليز المالية العالمية. وكان سلفه، "توماس سانكارا" (Thomas SANKARA)، الذي كان يقاومها، قد اغتيل.

على كلّ حال، فإنّ استراتيجيّات هيمنة السادة الجدد، هي منتصرة على نحو شبه دائم. وإنّ إخفاق إداريّي "مونسانتو"، المؤقّت، في محاولتهم اختراق وإخضاع الدول الإفريقيّة، ليس حتى الآن، سوى الاستثناء الذي يثبت القاعدة.

ملحق

إنّ الرخص حول النبات الحيّ، ليست امتيازاً تهواه الشركات الزراعيّة الغذائيّة. فإنّ سادة شركات الأدوية العالميّة، يتبعون الطرق نفسها.

هوذا مثال على ذلك. إنّ الأطفال الرضّع، الذين يتعرّضون لمصاعب تنفّسيّة خطيرة، يعالجون تقليديّاً بواسطة غاز خاص، متوفّر في الطبيعة، يدعى "ستيكوكسيد" (Stickoxid). إنّ مثل هذا العلاج يكلّف قرابة (100) يورو، ويدوم من أربعة إلى خمسة أيام. وفي الواقع، فلهذا الغاز مفعول علاجي سريع وكافٍ. في سويسرا، قرابة 150 طفلاً رضيعاً، يُنقَذون كلّ عام بهذا العلاج.

ولكن في عام 2004، قامت شركة قاريّة من أصل ألماني، تُدعى "اينوتيرابوتيكس" (Inotherapeutics)، بتسجيل رخصة حصريّة حول هذا الغاز. وقد سُوِّق تحت تسمية "اينوماكس" (Inomax). وإذن فإنّ "اينوماكس" بات علاجاً تحميه رخصة أوروبيّة. فلم يعد يحقّ لأيّ طبيب أطفال أن يصف الغاز الطبيعي. وفي عيادات الأطفال في سويسرا، باتت قيمة علاجات الرضّع الذين يعانون من مشاكل تنفّسيّة، 20.000 يورو وسطيّاً.

IV- أخطبوط "فوفيه" (VEVEY)

"نستله" هي الشركة القاريّة الأقوى في قطاعات التغذية والماء. أسّست عام 1843، ويقوم مركزها الرئيسي على ضفاف بحيرة "ليمان" (Léman)، في "فيفيه" (VEVEY) بسويسرا. اليوم، تتجاوز أرقام مبيعاتها (65.4) مليار دولار، وتتجاوز أرباحها الصافية 5 مليارات دولار. إنّ تكديس رؤوس أموالها في البورصة، يبلغ 107 مليارات دولار. ويعمل لديها أكثر من 275.000 رجل وامرأة، ينتمون إلى جميع الجنسيّات تقريباً. وهي تملك 511 معملاً في 86 بلداً، وهي تتحكّم بأكثر من 8.000 "ماركة" في قطاعات الماء والتغذية البشريّة والحيوانيّة. وهي تحتلّ المرتبة السابعة والعشرين بين أقوى شركات العالم.

تعود بي خواطري إلى ثلاثة عقود ماضية. كان باحثون بريطانيّون قد اكتشفوا أنّ حليب الأمّ له فوائد تفوق بما لا يُقاس حليب بودرة "نستله"، بالنسبة إلى نمو الأطفال حديثي الولادة. فنشرت منظمة غير حكوميّة تُدعى "اوكسفام" (Oxfam)، نتائج هذا التحقيق، وخلصت منه إلى النتيجة التالية: إنّ تحريض نساء العالم أجمع - لا سيما في العالم الثالث - على التخلّي عن إرضاع الطفل بحليب الأمّ، لصالح شراء منتوجات "نستله"، يشكّل إساءة إلى الصحة والسعادة ونمو الرضّع، الجسدي والنفسي.

تلقّف فريقنا المتضامن مع شعوب العالم الثالث، في مدينة "برن" (Berne)، الأرقام البريطانيّة، ونشر، بدوره، كتيباً تحت عنوان: "نستله تقتل الأطفال". فجرّتنا "نستله" على الفور أمام المحاكم... وخسرنا الدعوة بسهولة. وصودر كتيّبنا، وأوقفت حملتنا، واضطررنا لدفع مبالغ طائلة، بسبب نفقات الدعوى والتعويضات...

ولكن الحركة، خارج سويسرا، كانت تتّسع حول لبّ الموضوع.

في عام 1979، أسّست 150 منظمة غير حكوميّة، "شبكة العمل الدولي من أجل غذاء الطفل" (شبكة العمل الدولية لأغذية الرضع) (IBFAN). وكان هدفها: الكفاح، على مستوى العالم، ضد استراتيجيّة "نستله" التجاريّة ونشاطها التسويقي. وفي العام نفسه، قامت اثنتان من أهم المنظمات المختصّة في هيئة الأمم، هما "منظمة الصحة العالميّة" (OMS) واليونيسيف (UNICEF) بعقد مؤتمر دولي حول "تغذية الرضع". فأيّدتا أهم مطالب المنظمات غير الحكوميّة.

وفي الولايات المتحدة، أنشأت ثلاثون منظمة، تابعة للمجتمع المدني والكنائس، "اللجنة الدولية لمقاطعة نستله"، ودعت المستهلكين لمقاطعة أهم منتوجات نستله". (وإذن ليس فقط حليب البودرة للرضّع). وقد لاقت دعماً شعبيّاً واسعاً في انكلترا، والسويد وألمانيا.

وعقدت الجمعيّة العامة السنويّة لمنظمة الصحة العالميّة، اجتماعها الاستثنائي في جنيف، خلال شهر أيار عام 1986. فصوّتت لصالح قانون دولي يخصّ تسويق منتوجات الرضع، تسويقاً يرمي إلى حلولها محلّ حليب الأمّ. فصوّت جميع الدول الأعضاء، باستثناء الولايات المتحدة، لصالح هذا القانون. كان هذا القانون شديد التفصيل، وهو يحظّر بصورة خاصة جميع أشكال الدعاية الرامية إلى تحريض الأمّهات على إحلال حليب البودرة محلّ حليب الأمّ. وقد أعيد تبنّيه بتوجيه من لجنة الاتحاد الأوروبي (كانت، يومها، تُدعى الأسرة الاقتصاديّة الأوروبيّة)، ومن قبل العديد من التشريعات الوطنيّة، لا سيما في أوروبا.

وفي عام 1984، وقّعت "نستله" على هذا القانون الدولي. فأوقفت الحركة الدوليّة مقاطعتها. ولكن الشركة تواصل في أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينيّة، إذا صدّقنا منتقديها، استخدام استراتيجيّتها العدائيّة، في ترويج التغذية البديلة.

يرئس "نستله" اليوم نمساوي في الستين من عمره، يُدعى "بيتر برابيك لومات" (Peter Brabeck-Lemathe). إنّه إنسان حارّ وبارع. وهو متسلّق جبال معروف، دائم السمرة، ويتمتّع بطاقة نادرة، خارق الذكاء، أنيق حتى الإغواء، يتقن فنّ التقرّب من الناس، دقيق في تعامله، ودائم البسمة.

كان "برابيك"، طوال عقود، ممثّل "نستله" في أمريكا الجنوبيّة. وهو يتقن لغات كثيرةً، ومتزوّج من امرأة تشيليّة، فهو يعرف بعمق معظم أسرار الطغمات التي حكمت أميركا الجنوبيّة. كانت تلك هي الحقبة التي كانت الشركات القاريّة لا تتورّع فيها، بالاتفاق مع المخابرات المركزيّة الأميركيّة، عن قلب الأنظمة التقدميّة النادرة في القارة الجنوبيّة، وخصوصاً في التشيلي.

في صيف عام 2002، تبنّت الجمعيّة العامّة للصحة، قانوناً ثانياً، عنوانه "استراتيجيّة عالميّة من أجل تغذية الرضيع والطفل الصغير". ويحدّد بنده (44) المسؤوليات والالتزامات الخاصة بصنّاع ومنتجي الأغذية، المتعلّقة بالطفل الصغير والرضيع.

إنّ هذا القانون الجديد، (الذي يشمل تطبيقه جميع بدائل حليب الأمّ)، يُطبّق في جميع الدول وجميع المؤسّسات. ثمّة نقطة هامة: إنّ المؤسّسات ملزَمة بالتقيد بالقانون وبالقرارات اللاحقة، التي سوف تتّخذ بشأن تطبيقاته، أيّاً كان موقف الدول. وبكلمات أوضح: فليس لأية شركة غذائيّة أن تحتمي، (في جنوب آسيا وفي أفريقيا السوداء)، خلف تقاعس الحكومة المحلّيّة، (وهو تقاعس ينزع بعض "سادة الأرض" إلى تحريضه بالرشوة)، كي يلتفوا حول التوجيهات الدوليّة.

تُرى، ما هو الوضع اليوم؟ إنّه، بصريح العبارة، كارثي بالنسبة إلى الفقراء، وخصوصاً بالنسبة إلى أطفالهم الرضّع.

تقدّر "اليونيسيف" بأربعة آلاف، عدد الرضّع الذين يموتون كلّ

يوم، بسبب امتصاصهم حليب بودرة، ممزوجاً بماء ملوّث، أو مقدّما في مصاصات غير نظيفة. وكان كُتِب لهم البقاء، لو أرضعوا من الثدي.

إنّ بعض الدراسات التي أُجريت في أفريقيا الغربيّة وفي أميركا الوسطى، تبرز بوضوح الوسائل المستخدمة من قبل بعض الشركات القاريّة للترويج لمنتوجاتهم. فعلى لوحات ضخمة، رُفعت في تقاطعات مدن في "التوجو" و"البينان" و"بوركينا فاسو"، تُشاهَد نساء أفريقيّات، يحملنَ أطفالَهنّ بين أذرعهنّ، ويُقرأ على اللوحة: "من أجل خير طفلك، أعطيه حليباً من البودرة". وكثيراً ما يُشَاهَد، في خلفية اللوحة، وجهٌ أبيض يبتسم، يوحي بأنّ جميع الأمّهات البيضاء يقدّمن حليب البودرة لأطفالهنّ.

ونظراً للرواج الذي تتمتّع به جميع طرائق الاستهلاك لدى البيض (والمصداقيّة المرتبطة بمنتوجاتهم)، يميل المرء للاعتقاد بأنّ العديد من النساء الأفريقيّات، الصحيحات كلّيّاً، إثر تعرّضهنّ لمثل هذا النمط من التحريض، سيمتنعنَ عن إرضاع أطفالهنّ، ليشترينَ، بما لديهنّ من أموالٍ زهيدة، قليلاً من بودرة الحليب في السوق.

قلّة قليلة من نساء الضواحي التنكيّة يستطعنَ شراء علبة بكاملها.

ثمّ إنّ المسحوق سيُمزج بالماء. ولكن الماء، في 80٪ من الحالات، سيكون ماءً ملوّثاً.

وعندها، لن يُتاح للطفل، لا أن ينعم بالفوائد المناعيّة من حليب أمّه، ولا أن ينال الكميّات الضروريّة من الحليب، بل أيضاً سيُصاب بسرعة بإسهالات تفضي في حالات كثيرة، إلى الموت.

بيّنت بعض الاستقصاءات التي أُجريت في أفريقيا وأميركا اللاتينيّة، أنّ الأطبّاء والممرّضين والممرّضات في المشافي أو في مراكز

الإسعاف الجوّالة، كانوا، في هذه المناسبة، يتعرّضون لإغراءات شديدةٍ من قبل عملاء بعض مصنّعي مسحوق الحليب. والنتيجة؟ في مستشفيات كثيرة، كان الأطفال، منذ ولادتهم، يتناولون الحليب بالمصاصة.

في بعض دور التوليد الأفريقيّة، يكون توزيع المصاصة مجّاناً. وعندما تعود الأمّ إلى البيت، تتلقّى، مجّاناً أيضاً، علبة أو اثنتين من علب مسحوق الحليب. ثمّ، فجأةً، يتوقّف التوزيع.

يستحيل عندها على الأمّ أن ترضع طفلها، لأنّ ثديَها تكون قد جفّت. فتُصاب بالهلع، وتأخذ تستدين وتجمع شيئاً من المال... فتدخل في الحلقة الجهنميّة، القائمة على الشراء من السوق لبضعة ملاعق من مسحوق غير معلّب... الذي سيُذوّب في مياه البئر الملوّثة، أو مياه المستنقع خلف الكوخ...

لقد بات واضحاً، في المعركة التي تخوضها منظمة اليونيسيف، ومنظمة الصحة العالميّة، والعديد من حركات المجتمع المدني، ضدّ استراتيجيّات التسويق والدعاية، التي يمارسها صنّاع مسحوق الحليب، أنّ لمسألة الحصول على ماء الشرب أهميّة حاسمة. ففي المصاصة التي تُعِدّها الأمّ مع مسحوق الحليب الممزوج بالماء، فإنّ الماء هو الذي يقتل، وليس مسحوق الحليب.

هنا أفتح هلالين بشأن الماء.

في كلّ مكان، على وجه الأرض، تزداد المياه ندرةً. ثمّة واحد من ثلاثة بين البشر، بات مضطراً لشرب ماء ملوّث. وفي كلّ يوم يموت 9.000 طفل دون العاشرة، لشربهم مياهاً غير صالحة.

من أصل 4 مليارات حالة إسهال، أُحصيت كلّ عام في العالم، 2.2 مليوناً منها قاتلة. والضحايا هم خصوصاً الأطفال والرضع. والإسهال هو واحد من الأمراض الكثيرة التي تنقلها المياه السيّئة

النوعيّة: منها التراخوما والبلهارسيا والكوليرا والحمى التيفوئيديّة والزحار والتهاب الكبد والملاريا. ويعود عدد كبير من هذه الأمراض إلى وجود أجسام ممرّضة في المياه (بكتيريات، فيروس وديدان). وتقدّر منظمة الصحة العالميّة في البلدان النامية، أنّ أكثر من 80٪ من الأمراض، وأكثر من ثلث الوفيات، يعود إلى استهلاك مياه ملوّثة.

وفق "ريكاردو بتريلا" (Ricardo PETRELLA) ومنظمة الصحة العالميّة، فإنّ ثلث سكّان الأرض لا تتوفّر لهم المياه السليمة وبسعر معقول، وإنّ نصف سكان الأرض ليس لديهم وسيلة لتنقية المياه. هناك قرابة 285 مليون إنسان، يعيشون في جنوب الصحراء الأفريقيّة الكبرى، ولا يستطيعون الحصول في انتظام على مياه غير مؤذية. وإنّ 248 مليون في جنوب آسيا يعانون من الوضع نفسه. تلك هي حال 398 مليوناً في آسيا الشرقية، و180 مليوناً في جنوب شرق آسيا والمحيط الهادئ، و92 مليون في أميركا اللاتينيّة وجزر الكاريبي، و67 مليون في البلدان العربيّة.

والذين يعانون أكثر من سواهم، من نقص في الماء، هم، بالطبع، أكثرهم فقراً.

إنّ الضفة الغربيّة، كما هو معروف، قد احتلّها الجيش الإسرائيلي منذ عام 1967. وفي عام 2007، كان 85٪ من مياه هذه المنطقة (من مياه جوفيّة وأنهار وينابيع) قد حوّلته السلطة المحتلّة إلى إسرائيل، أو إلى مستوطناتها. وإنّ عشرات الآلاف من العائلات الفلسطينيّة، تضطرّ إذن لشراء المياه الضروريّة لاستهلاكها اليومي، بأسعار باهظة غالباً، من الشركات الإسرائيليّة الخاصة، التي تحملها في الشاحنات، إلى المدن والقرى في الأراضي المحتلّة.

إنّ الحصول على مياه الشرب السليمة، أمر متفاوت جدّاً داخل البلدان. ففي أفريقيا الجنوبية مثلاً، كان 600.000 مزارع أبيض

يستهلكون عام 2006، لمشاريع الري، أكثر من 60٪ من مياه البلد، في حين أنّ 15 مليون من السود لم يكونوا يستطيعون الحصول مباشرةً على مياه الشرب. وإنّ أكثر العائلات فقراً في الهند تخصّص 25٪ من مدخولها للحصول على الماء. وفي البيرو، فإنّ أسوأ السكّان حظّاً من سكّان العاصمة "ليما"، الذين لا تصلهم شبكة المياه البلديّة، يشترون من بائعين خصوصيّين، سطول مياه ملوّثة في الغالب، يدفعون أثمانها ثلاثة دولارات بالمتر المكعب الواحد. ولكن في الأحياء الراقية من ليما، فإنّ المتخمين لا يدفعون إلاّ 30 سنتاً بالمتر المكعب الواحد، المكرّر والموزّع عبر شبكة البلديّة.

إنّ "اللجنة الدوليّة لمقاطعة نستله"، وقد لاحظت أنّ "نستله" لا تحترم "القانون الدولي من أجل تسويق المنتجات للرضّع"، الصادر عام 1981، ولا القانون الجديد الصادر عام 2002، عاودت نشاطها في الولايات المتحدة، وفي أوروبا أيضاً، حيث رُفِعت ضدّها قضايا كثيرة، كما تشهد بذلك الحال في إيطاليا.

إنّ هذا البلد يضمّ مجتمعاً مدنيّاً بالغ الحيويّة والتصميم، يتمتّع بقدرات مدهشة على صعيد العمل والتنظيم. فقد رُفِعت إعلاناتٌ ضخمةٌ أمام المتاجر الكبيرة في جميع المدن الكبرى، تحتوي جميع منتوجات نستله. وقد عُرِّف كلّ منتوج وفق الفئة الخاصة به. وإليكم نماذج من هذه القائمة.

السكريات: ...	Smarties, Kitkat, Baci, Perugina, Fruitjory, Polo, After Eight, Emarini, Galak, Ore Liete
بسكويت	Tartufon Motta, Alemagna, Motta
قهوة	Orzoro, Nescafe, Nesquick
مأكولات	Bellenapoli, Buitoni, Maggi, La Rasagnole

ثـم تـأتي "علامـات المصـنع" الخاصـة بالفئـات الغذائيّـة التاليـة: البالغـة التجميـد، المتجمّـدة، المشـروبات التنحيفيّـة، أغذيـة الرضّـع، المنتوجات الحليبيّة الخ...

إنّ اللجنـة الوطنيّـة الإيطاليّـة، التابعـة لليونيسـيف، وقـد تحالفـت مع عدد كبير من الحركات، تدعو لمقاطعة جميع هذه المنتوجات.

وقـد عُلِّـق نـصّ آخـر، في صـيف عـام 2004، علـى جـدران المـدن الإيطاليّة الرئيسيّة، جاء فيه:

« نشكر لكم تضامنكم الواقعي مع المقاطعة، باسـم جميـع هـؤلاء الأطفال الذين يُضحّى بهم كلّ عام، على هيكل الأرباح، من قبل بعـض المؤسّسات النادرة، قليلة العدد، ذات السلوك اللاأخلاقي والفاضح. »[9]

تُرى، مَن كتب هذه اللوحة؟
يساريّون خطيرون؟

الحـزب مـن أجـل إعـادة تأسـيس الحـزب الشـيوعي، بقيـادة المناضـل الرائع والدؤوب، "ساندرو برتينوتي" (Sandro BERTINOTTI)؟

إنّ مؤلفي هذا النصّ هم رهبان كاثوليكيّون، بثياب بيضاء، يُعرَفون باسم "الكومبونيانيّين" (Comboniani).[10]

٧- تحطيم النقابات

يسأل "جاك رو" (Jacques ROUX):

"ماذا نعمل ضد أحابيل السفلة؟" فيجيب: "أن نتجمّع".[11]

إنّ الحريّة النقابيّة كانت إحدى أجمل إنجازات الثورة الفرنسيّة. وكما هي الحال مع معظم الشركات القاريّة الكبرى، فإنّ "نستله" تنزعج من هذه الحريّة النقابيّة، أيّة كانت ادعاءاتها.

إنّ "برابيك" هو مؤلّف "كتابها المقدس"، الذي يترتّب على موظفيها الـ (275.000)، أن يقرأوه ويتأمّلوه. عنوانه: "المبادئ الأساسيّة في قيادة وإدارة نستله". ويعود فيه المؤلّف، كإلى مصدر إلهامه الأول، إلى "هنري نستله"، الصيدليّ الألماني الذي هاجر إلى فيفيه" (VEVEY) عام 1862. يُقال إنّه كان قد تأثّر بما كان يعاني منه أطفال البلد، من نقص في التغذية وبؤس، فطوّر مسحوقاً خارقاً، هو "مسحوق حليب هنري نستله".

يقول "برابيك" إنّ موظفي نستله، الـ (275.000)، يشكّلون أعظم كنوز الشركة. وفيها، كلّ إنسانٍ مسؤول عن أعماله.

إن كانت "نستله" ناشطة في 86 بلداً، فإنّ مختلف الشركات في مختلف البلدان (وضمن كلّ من هذه الشركات، فروعها المختلفة)، تعمل على نحو شبه مستقلّ. ومع ذلك، فإنّ "كتاب فيفيه المقدس" يجب أن يقود جميع مسؤوليها، كما قادت المجوسَ نجمةُ بيت لحم.

وإنّ الطفل يسوع الذي هو غاية رحلتهم، هو من الذهب الخالص.

وهي ذي الصفات المطلوبة من الرجل والمرأة، في "نستله": الشجاعة؛ القدرة على التعلّم، على تحفيز زملائه، على تبليغ مقاصده؛ خلق جو محرّض للعمل؛ القدرة على التفكير بالأشياء

بكليّتها؛ الإيمان؛ التسليم بالتغييرات الضروريّة، والقدرة على توجيه هذا التغيير؛ خبرة دوليّة؛ الصحة الجسديّة والعقليّة.

ولكن "نستله" تريد خصوصاً من الرجال والنساء، الذين يعملون في إحدى شركاتها هذه، أن يكونوا متفاعلين مع ثقافات العالم أجمع، لا سيما "ثقافات الشعوب التي يخدمونها"، كما كتب "برابيك" يقول، مندفعاً بحماسه.

من جهته، فإنّ المؤتمر الاجتماعي الدولي الثالث، الذي عُقِد في مدينة "بورتو أليكري"، في شهر كانون الثاني عام 2003، اتّخذ قراراً، ثبّته المؤتمر الاجتماعي الدولي، الذي انعقد في "بومباي" في شهر كانون الثاني عام 2004، وقد جاء فيه: إنّ المناضلين من أجل العدالة الاجتماعيّة الكونيّة، مدعوّون لممارسة رقابةٍ دائمة، حيال استراتيجيّات وممارسات الشركات القاريّة، التي تقوم إدارتها الرئيسيّة في بلدهم الأصلي. وهكذا، فقد تشكّل في سويسرا تجمّع، مدعوم من قبل منظمات "السلام الأخضر" (Green Peace) وشبكة العمل الدولية لأغذية الرضع (IBFAN)، ومنظمات أخرى غير حكوميّة، كي تراقب على مستوى العالم، الممارسات الماليّة والصناعيّة والتجاريّة والسياسيّة، لهذا الذي اتُّفق على تسميته بأخطبوط "فيفيه" (VEVEY). وقد عَقَد هذا التجمّع مؤتمراً في "فيفيه"، يوم السبت 12 حزيران عام 2004، تحت شعار: "مقاومة إمبراطوريّة نستله".[12]

وبمناسبة هذا المؤتمر، قَدِم نقابيّون من العالم أجمع، ولكنّهم يعملون كلّهم في أحد معامل نستله، ونقلوا وقائع مقلقة جدّاً.

كلّما كانت تتشكّل نواة نقابيّة، في هذه أو تلك من الوحدات الإنتاجيّة، ويقوم عمل مطلبي، أو يحدث تهديد بإضراب، كان النقابيّون العاملون في الشركة، يتعرّضون للتهديد والاعتداء، وأحياناً للقتل، من قبل ميليشيا شبه عسكريّة أو الشرطة. وقد روى نقابي

كولومبي، يدعى "كارلوس اولايا" تجربته، التي كانت تتقاطع في نقاط كثيرة، مع تجربة "ايكا اولاير فيرارن" من "منداناو"، أو تجربة "فرنكلين فريديريك"، من البرازيل.

في "كولومبيا"، قُتل سبعة من نقابة "سينالترينال" (Sinaltrinal)، (وهي النقابة الزراعيّة الغذائيّة، التي أُحدثت في مطلع عام 1980)، يعملون في معامل "نستله"، في ظروف ظلّت غامضة. صحيح أنّ "نستله" ليست متورّطة في هذه الاغتيالات، ولكن مواقفها العدائيّة جدّاً، والمعروفة إزاء جميع التنظيمات الاجتماعيّة الحاضرة في هذه المعامل، تجعل "كارلوس اولايا" لا يتردّد في تحميلها المسؤوليّة، إزاء المناخ العام الذي يرافق هذه الأشكال من العنف.

في نهاية عام 2001، هدّد مدير أحد فروع نستله في كولومبيا، المسمّى "كومستيبلس لاروزا" (Comestibles la Rosa)، بطرد العمال المنتسبين إلى نقابة "سينالترينال". وفي "شيكولاك"، وهو أحد فروع "نستله"، في كولومبيا، استطاعت "نستله" أن تحطّم تجمّعاً عمّاليّاً يعود بالفائدة على أكثر من 400 عامل، بتسريحها 96 منهم، وبإلغاء عقود 58 منهم. وفي شهر تشرين الثاني عام 2002، سُرِّح 13 عاملاً بسبب انتسابهم إلى النقابة.

وحسب "الاتحاد الدولي للنقابات الحرّة" (CISL)، ففي شركة "تيدارام" (TEDARAM)، وهي أحد فروع "نستله" في "تايلاند"، أنشأ خمسة عشر عاملاً، عام 1998، نقابة ليدافعوا جماعيّاً عن حقوقهم. وكانت النقابة الأولى، منذ أن وُجدت "نستله" في هذا البلد. وخشية من تفشّي مثل هذا العمل، كان ردّ فعل "برابيك" سريعاً. فهدّدت إدارة "نستله" المركزيّة في "فيفيه"، وفق رواية النقابيّين، شركة "تيدارام"، بتقليص استثماراتها، إن لم تسرّح 22 عاملاً لمدة غير محدودة. وكان بالطبع بين هؤلاء الاثنين والعشرين المستهدفين، بحسب المصادر

نفسها، الخمسة عشر عاملاً، الذين كانوا في أصل إنشاء النقابة. ولقد سرّحتهم إدارة "تيدارام".

في الفيليبين، تندّد نقابة "بامانتيك - KMU"، بالممارسات نفسها التي تستهدف ممثّلي العمال. ودائماً وفق ما روى النقابيّون، فإنّ "نستله" لم تتردّد في تسريح 67 مستخدماً في معمل "كابوياون" (Cabuyaon). وقد وُصِف هذا الإجراء على أنّه جاء في إطار خطة إعادة بنى الشركة. ولكنّه، كما قالوا، كان يهدف إلى تقليص الرواتب والمكاسب الاجتماعيّة، التي كان يتمتّع بها مستخدمو هذه الوحدة الإنتاجيّة، وإلى إخضاعهم للرواتب والمكاسب الاجتماعيّة، التي هي دون تلك سويّةً، والمعمول بها في معمل "كاغايان" (Cagayan).

إنّ شهادة "فرنكلين فريدريك" (Franklin FREDERIK) هي من أهمّ الشهادات كشفاً للحقائق، وهو عضو في "المركزيّة الوحيدة للعمال" (CUT) في البرازيل. ففي هذا البلد، تهدف منتوجات "نستله" إلى إشباع السوق المحدودة، ولكن القويّة بقدرتها الشرائيّة، سوق الطبقات العليا والطغمة الحاكمة.

إنّ شركة "نستله" تملك مزارع شاسعة في شمال البلد ووسطه، وهي تمثّل النموذج الأمثل للزراعة المتجهة نحو التصدير.

والحال أنّ النموذج الزراعي المُصدِّر، الذي تشكل "نستله" أحد روّاده، يعني الحكم بالموت على الزراعة العائليّة، المتوسطة والصغيرة، - وبالتالي على سيادة البلد الغذائيّة. ناهيك عن أنّ الزراعة الخفيفة، المتمحورة حول التصدير، تدمّر البيئة. ومع ذلك، فإنّ سيّد "فيفيه"، يضع في مبادئه الإداريّة، في المقام الأول من اهتماماته - بالتساوي مع تغذية سليمة للجميع - حماية البيئة! حقّاً، إنّ الحدس الانتهازي لدى "برابيك" لا يخطئ البتة. أوَليست "نستله برازيل" اليوم أحد أهم المساهمين في برنامج "إلغاء الجوع"، الرئيس "لولا"؟

يا لها من لعبة مزدوجة ضخمة!

لو كان "برابيك" حريصاً على التخفيف، ولو بالحدود الدنيا، من تعذيب 44 مليون برازيلي، يعانون من نقص في التغذية، خطير ودائم، لكان من زمان بعيد، خفّض أسعار الـ (839) منتوجاً غذائيّاً، التي يسوّقها في الأسواق البرازيليّة الكبرى.

يحلّل صحفي سويسري، يدعى "جان- كلود بيكليه" (J-C. PECLET) على هذا النحو، استراتيجيّة "نستله" في البرازيل. إنّ بوصلتها هي رفع الأرباح إلى الحدّ الأقصى. والحال أنّ البرازيل يخضع لنظام معقّد من الرقابة للأسعار، وضعه "مجلس الدفاع الاقتصادي". وبذلك فإنّ هامش الأرباح من الأغذية البشريّة، يخضع لرقابة محدودة. وهذا الأمر لم يكن لينطبق على الأغذية المخصّصة للحيوانات المنزليّة. ولذلك أخذ "برابيك" يستثمر منذ فترة وجيزة، مبالغ طائلة في بحث وتصنيع وتسويق مختلف الأنماط الغذائيّة، الخاصة بالحيوانات المنزليّة. وقد ختم "جان- كلود بيكليه"، بحثه، بقوله:

> **"إنّ القطاع الأكثر ديناميّة، لم يعد التغذية البشريّة، بل تغذية الحيوانات المنزليّة".[13]**

يعتمد "برابيك"، في سعيه إلى إضعاف النقابات، وسائل جذرية في أوروبا، وعلى الأخصّ في فرنسا.

في عام 2002، قرر "برابيك" أن "يشغّل"، كما يُقال، وحدة إنتاجيّة من العمال القدامى، موجودة في مدينة "بوفيه". فوضع مخطّطاً لإعادة البنية فيها. وقد روت صحيفة "الاومانيتيه"، أنّ هذا المخطط يهدف إلى التخلّص "من عمال مرضى، وعمّال معروفين بشدّة مراسهم". بالطبع وردت في القائمة أسماء السبعة المندوبين من "اتحاد نقابات العمال" (CGT). يروي أحد العمال المسرّحين: "كان

يوم أربعاء، قرابة الساعة 13 ظهراً، وكنتُ قد أنهيتُ يومي. كان اسمي وارداً في قائمة عمل الغد. فاستدعاني المدير، وأعلمني أنّه لا داعي لعودتي في الغد، وأنّه يدفع لي إخطاراً لشهرين... أنّ تعامل على هذا النحو، بعد إحدى وعشرين سنة من الخدمة!..." ما كان لهذه التسريحات التعسفيّة أن تحدث، لو كان قد وُسّع هامش أرباح الذين سُبِّق تقاعدُهم. فالإدارة إذن قد اختارت بكلّ إصرار وتصميم، أن تتخلّص من هؤلاء الأشخاص. وعندما وصلت رسائل التسريح، أضرب عن العمل على الفور 70٪ من العمال. ولكن الإدارة جابهتهم بإحالة نصف المضربين إلى البطالة المؤقّتة.

يروي النقابي:

« بدّلنا خططنا، فنظّمنا تظاهرة أمام المعمل وفي المدينة، يوم 5 تشرين الأول. تجمّع 150 شخصاً، وهذا أمر جيد، نظراً لضغوط الإدارة، التي كانت تهدّد بإدراج أسماء المضربين في قائمة المسرّحين... وفي 17 تشرين الأوّل، اشترك وفد مؤلّف من جميع العمّال المدرجة أسماؤهم في المواقع المهدّدة، في التظاهرة أمام مركز نستله – فرنسا، في بلدة "نوازيل" (Noisiel) »

تُقدِّم إحدى العاملات، وهي "ماريز تريتون" (Maryse TRETON) تفسيراً لما حدث:

« إنّ نستله تدرك قوّتها، وهي لا تحترم حتى الإجراءات القانونيّة. واليوم سنبدأ رفع دعوَيَين أمام القضاء، من أجل إلغاء مخطّط إعادة البنية، الذي لم تُحتَرم إجراءاته، ومن أجل المطالبة بإعادة العمال المسرّحين دون مسوّغ مشروع، إلى أعمالهم. »

وتقول "جوسلين أونيزيم"، مندوبة ممثّلي اتحاد نقابات العمال الفرنسية (CGT)، متأسفة:

« تجول الآن في الشركة، عريضة ضد التسريحات. ينظر العمـــال، قبل أن يوقّعوا، يميناً ويساراً. بعضهم يقولون إنهم إن وقّعـــوا، ســـوف يُسرّحون. هناك مناخ من الخوف. لقد فُقِدت الثقة بين العمال. »

ويؤكّد النقابي "جويل دوليان" (Joël DELIENS):

« إنّ مواجهة نستله، أمر صعب. نتعرّض للملاحقة، بوصفنا نقابيّين. فإنهم يعاملوننا معاملة سيّئة في لجنة الشركة، ويلاحقوننا بالإنذارات لأدنى ذريعة، ويسمّمون عقول العمّال ضدّنا. وأعضاء اتحاد نقابـــات العمـــال ينهارون. ونحن نضطرّ لعقد اجتماعاتنا خارج الشركة، يوم السبت. وما هو أكيد، هو أنّ "نستله" لا تحبّ اتحاد نقابات العمال. »[14]

إنّ سيّد "نستله" يدلّل، في نضاله الدؤوب ضدّ النقابات، في كلّ مكان في العالم، على قدرة استراتيجيّة مشهود لها. وإنّ احتقاره للحقّ في العمل، ثابت. وتصميمه يستحقّ الإعجاب.

لنعد إلى مَثَل فرنسا. لما كانت المقاومة القويّة لعمّال "بيريه" (Perrier) (وهي شركة مياه معدنيّة)، قد أخّرت إعادة تنظيم هذه الشركة، وإذن تصفيتها المتوقّعة، جلب "برابيك" من المكسيك، إدارياً جديداً، يُدعى "اوجينيو ميفييلله" (Eugenio MIVIELLE)، وعيّنه رئيساً للإدارة العامة في شركة نستله - فرنسا.

إنّ "ميفييلله"، الذي كان قد حارب النقابات المكسيكيّة، غيّر أساليب عمله، وبدل أن يواصل المعركة ضدّ عمّال "بيرييه"، هاجم اتحاد نقابات العمال في مدينة مرسيليا.

كان معمل القهوة السائلة "مرسيليا - سان - مينيه" (Marseille St. MENET) يستخدم 427 عاملاً. وكان مربحاً، ولكن ليس بالقدر الذي كان أمير نستله، يرجوه.

في 2005/7/1، أمر "رئيس الإدارة العامة" "ميفيليه" بإغلاق المعمل.

احتل العمال الأمكنة.

استنجد "ميفيلليه" بالشرطة.

صدر كتاب يروي قصة هذه المعركة، بعنوان "قهوة مرّة"، بقلم "باتريس بيدرينيو" (Patrice Pedregno).

و"بيدرينيو" هو أحد قادة هذه المقاومة:

"قهوة مرة"، كتاب رائع، وهو أيضاً وثيقة لا يُستغنَى عنها، حول التاريخ الحديث للحركة العماليّة في أوروبا.

وقد حقّق "باتريس بيدرينيو" هذا الأمر النادر: سرداً شخصيّاً جدّاً، ظرفيّاً ومحليّاً، يخترقه روح التاريخ الحارق.

إنّ كتاب "باتريس بيدرينيو" يعطي الكلام للمقاومين. وهو بكليّته صحيح. ويقدّم الدليل على القوى غير المحدودة، من الحبّ والتضامن، الكامنة في أعماق الكثيرين من الرجال والنساء.

استطالت مقاومة العمال 643 يوماً. كان يقودها رجال ونساء، عاديّون في ظاهرهم... فيما كان الكثيرون منهم يتحوّلون على طريق المعركة، إلى كائنات من نور.

انتهت المعركة في شهر شباط عام 2006، بانتصار أمير "نستله" ورئيس إدارتها العامّة في فرنسا: بيعَ معمل "مرسيليا - سان - مينيه"، ثم فُكّك، وسُرّح عماله.

إنّ "برابيك" لا يحيد عن استراتيجيّته. هدفه: رفع الأرباح إلى أقصى حدّ ممكن، أيّاً كان ثمنها البشري، وتدمير مقاومة النقابيّين.

يوم 14 تشرين الثاني عام 2006، اجتمع في مدينة "تولوز"، مندوبو اتحاد نقابات العمال، التابعون للّجان العماليّة الخاصة بشركات "نستله" الفرنسيّة، الخمس والثلاثين.

في عام 2006، كان عدد موظّفي "نستله - فرنسا" يبلغ 17.500 شخصاً. وكان مبلغ الرصيد المتراكم يتجاوز 5.2 مليار دولار.

في عام 2006، حدثت إضرابات، متفاوتة الطول، في خمسة عشر شركة نستله، من أصل الخمس والثلاثين.

لم يكن سيد "نستله" يقبل المفاوضات مع النقابات، في أي من هذه الشركات. وكان دائم اللجوء إلى أكثر التهديدات وضوحاً: إقفال هذه الشركات، ونقلها إلى بولونيا.

هذه التهديدات حملت المضربين على الاستسلام.

ما يخبّئ المستقبل؟

توقّعات العمّال قاتمة. وقد جاء في البيان النهائي لمؤتمر النقابات المنعقد في "تولوز":

« ما ينتظرنا هو نقل المعامل، فقدان العمل بكثافة، إعادة النظر في مكتسباتنا الاقتصاديّة، إغلاق المواقع وتحطيمنا اجتماعيّاً. »[15]

إنّ كثرة الضغط على الأجور العماليّة، من شأنه أن يفضي إلى بمنتوجات مصنوعة بيد عبيد وأسرى سياسيّين. من ذلك أنّ "جينيفر زنغ"، وهي سيّدة تبلغ من العمر 35 عاماً، وعضو في تنظيم "فالون غونغ" (FALUN GONG)، الذي اضطهدته السلطة المستبدّة في "بكين"، وهي اليوم لاجئة في "استراليا"، تؤكّد أنّها صنعت، تحت الإكراه، تميمة لشركة "نسكويك" (NESQUIK)، في شكل أرانب صغيرة ذات وبرٍ أزرق، طوال اثني عشر شهراً من اعتقالها في معسكر للأشغال الشاقة، في "لاوغاي" (LAOGAI) عام 1999.

هذه التهمة، رفضتها بالطبع إدارة "نستله"، مع أنّها اعترفت، إلى ذلك، بأنّها تقدّمت بطلبيّة إلى أحد صنّاع ألعاب صينيّة، من شركة "ميكي تويز كمباني" (Miqi Toys Company)، تتألّف من 110.000 أرنب صغير.

VI- البقرات السمان خالدة

تزداد أرباح "نستله" دونما توقّف. يحدث الأمر نفسه مع قيمة أسهمها في البورصة. والبقرات السمان في "فيفيه"، خالدة. مثلاً: في 14 آب عام 2007، نشر سيد "فيفيه" نتائجه بالنسبة إلى النصف الأول من عام 2007. خلال هذه المدّة، حقّقت الأرباح ارتفاعاً بلغ 14.2٪، وبلغ رقم الأعمال 8.2٪ وبلغت قيمة السهم في البورصة 9.5٪.

إنّ هذه الإنجازات مثيرة للإعجاب، وإني لأقولها دون أية سخرية. كيف "لنستله" أن تحقّق ذلك؟

يُطلَب من المسؤولين المحلّيّين، على الدوام، العمل على تخفيض قيمة كلفة منتوجاتهم، أية كانت الكلفة البشريّة. ولذلك فإنّ المقاومة النقابيّة تُحارَب بتصميم متفاقم، سواء في المناطق الجنوبيّة من الأرض، كما رأينا، أو في أوروبا، كما بيّنه النزاع القوي الذي قام بين "نستله - مياه فرنسا"، وعمال فريق "مياه بيرييه - فيتل" عام 2004.

ثمّة سبب آخر يفسّر تفجّر الأرباح الهائل: إنّ "برابيك" مقاتل محنّك في أدغال أسواق الأسعار العالميّة للمواد الزراعيّة الأولى. وهو يعرف كيف يضغط على الأسعار العالميّة، كي يقلّص أسعار الكلف لديه، دون أن تؤثّر هذه التخفيضات على أسعار المبيع للمستهلكين. مثال على ذلك: في أثيوبيا، رأى مزارع القهوة سعر بيع حبوبه ينهار بنسبة الثلثين، في أقلّ من خمس سنوات. وفي الوقت نفسه، ارتفع سعر فنجان القهوة في مقاهي "جنيف" إلى الضعف!

إنّ خصخصة الشبكات العامّة للتزويد بمياه الشرب، في العالم أجمع، ولكن خصوصاً في بلدان العالم الثالث الغارقة في الدَّين، تشكّل مصدراً آخر للأرباح الاستثنائيّة التي يحقّقها أخطبوط "فيفيه". ففي

عام 1990، كان 51 مليون إنسان عبر العالم، يعتمدون على شركات خاصة لتزويدهم بالماء. ومنذ ذلك الحين، خَطَت الخصخصة خطوات جبّارة. ففي عدد متزايد من البلدان، قامت تجمّعات محلّيّة مَدِينة، ببيع شبكات تزويدها بالمياه، إلى شركات خاصة، لا سيما إلى "نستله".

لنتّخذ مَثَل "بوليفيا". تحت ضغط صندوق النقد الدولي، باعت الحكومة شبكة المياه العامة، لشركات خاصة. فسارعت هذه الشركات إلى مضاعفة سعر المياه، ما كان يعني للكثيرين من البوليفيّين، مياهاً أغلى من الغذاء.

إنّ السماح لأصحاب امتيازات خاصة، باحتكار الماء، ينجم عنه بالطبع أنّه بات من المستحيل على الناس الحصول على المياه - حتى لو كانت مياه آبار عامة - دون إذن، وأنّه يتوجّب حتى على الفلاحين والمزارعين الصغار، أن يشتروا رخصة لتجميع مياه الأمطار فوق أرضهم.

إنّ البوليفيّين - ولا سيما السكان الهنود الذين نظّمهم "ايفا موراليس" (Eva MORALES) - لم يستكينوا.

أعلنت الحكومة حالة الطوارئ. ولكنها اضطرّت، أمام المقاومة الشعبيّة، أن تتراجع وتلغي القانون حول الخصخصة. (كانت أعنف الانتفاضات قد حدثت في مدينة "كوشابامبا" (COCHA BAMBA)، إذ فيها كانت شركة "بشتل" (BECHTEL) الأميركيّة القاريّة، هي التي اشترت امتيازات مياه الشرب.

لقد قلت: إنّ "نستله" ليست فقط صاحبة أوسع الشبكات الخاصة لتزويد مياه الشرب، ولكنها أيضاً أوسعها بالنسبة إلى المياه المحفوظة في الزجاجات. لنأخذ مَثَل الباكستان.

منذ بضع سنوات، قامت حملة صحفيّة في هذا البلد، تؤكّد "نستله" ألاّ علاقة لها بها. وكانت هذه "الحملة الوقائية" تدّعي

مكافحة التلوّث والمخاطر، في المياه التي توزّعها الشبكات العامة في المدن الكبرى، مثل كراتشي، ومولتان، ولاهور، وإسلام آباد، وراولبيندي. والحال أنّ هذه المياه كانت مطابقة بالكليّة لمعايير "منظمة الصحة العالميّة".

وبعد فترة وجيزة، أطلقت "نستله" في باكستان مياهها في زجاجات. ولقد أطلق قادة السوق في "نستله"، على هذه المياه المُنقِذة، اسماً لافتاً، هو "حياة نقية" (Pure Life).

وقد أثبت الباحث "نيلس روزمان" (Nils ROSEMAN)، في محاولته "أزمة مياه الشرب في باكستان"، التي نشرت في إسلام آباد عام 2005، أرباح "نستله - باكستان" الفلكيّة، واستراتيجيّتها المتّسمة بصفاقة مطلقة.

من أبرز "المبادئ الإداريّة" التي يدّعيها "برابيك"، استقرارُ السوق، توزيعٌ للثروات عادلٌ للجميع، أسعارٌ عادلة، وأجورٌ لائقة لعمل الناس. ما هو مصير هذه المبادئ الجميلة، عندما تمارَس "الضغوط على السوق"؟

سبق لنا أن أشرنا إلى كارثة "السيدامو" في أثيوبيا، حيث تعاني، منذ خمس سنوات، مئات الألوف من العائلات الفلاحيّة، من انهيار أسعار شراء حبّات القهوة، بفعل المضاربة الدوليّة التي تقوم بها الشركات الغذائيّة الكبرى، بشأن أسعار الكلفة.

ففي ساحل العاج والبرازيل، يمارِس أسياد الزراعة الغذائيّة، أقوى ضغوطهم على المُنتِج، بشأن أسعار شراء حبوب "الكاكاو". وإنّ تخفيضات الأسعار هذه تدمّر مناطق بكاملها في ثلاث قارّات.

إلا أنّ "سيّد الأرض" في "فيفيه"، له اهتمامات أخرى.

إنّ السعي الدائم لرفع سقف الأرباح - وهو مبدأ لا يأتي على ذكره في "كتابه المقدس" الذي كتبه بيده - يقتضي ممارسات تأنفها

روحه النقيّة. كانت اتفاقيات عالميّة بين المنتجين والشارين (حول القهوة والشاي، والكاكاو، ومواد زراعية أخرى)، قد أُحدثت أثناء الحرب الباردة، من أجل استبعاد الانهيارات الحادّة جدّاً في الأسعار - إذ كانت من شأنها أن تدفع بالمنتجين إلى أحضان الشيوعيّين. واليوم، فإنّ "منظمة التجارة العالمية" تلغي هذه الاتفاقيّات، الواحدة تلو الأخرى.

أما "برابيك"، من جهته، فهو مؤيّد متحمّس لأساليب "منظمة التجارة العالمية".

VII- الغطرسة

إنّ المستبدّين الجدد يُبدون، إزاء الدولة وقوانينها، في كلّ الأرض، غطرسة باردة.

في بلدان الشمال الصناعيّة، هم يمارسون ابتزاز نقل المصانع. وهم يهدّدون النقابات والحكومات بالانتقال إلى بلدان أخرى، كي يضمنوا أعلى الهوامش الممكنة في الأرباح.

ولنأخذ هنا مَثَل شركة "سيمنس" (SIEMENS).

إنّ "سيمنس" حاضرة في قطاعات عديدة من النشاطات - من التكنولوجيا الطبيّة، إلى وسائل النقل، ووسائل الاتصالات، والطاقة، والهاتف الخ... حتى شهر تموز عام 2004، كان صاحبها، "هنريخ فون بيرن"، يسود على مستخدميه (417.000)، المنتشرين في كل الأرض. في عام 2003، كان رقم أعماله يبلغ 74.2 مليار يورو، وأرباحه الصافية 2.4 مليار يورو.

إنّ ألمانيا، وهي رابع قوة اقتصاديّة في العالم، والأولى في أوروبا، كانت الأولى في إدخال أسبوع العمل القائم على 35 ساعة فقط. والحال أنّ هذا الإجراء لم يكن يريح "سادة الأرض" في "ميونيخ". ففرضوا العودة إلى أربعين ساعة عمل في الأسبوع.

وفي يوم الخميس 24 حزيران عام 2004، حقّقت "سيمنس" انتصارها: فإنّ الشركة العالميّة لصناعة الحديد، وقّعت على عقدين مع نقابة (IG-METAL)، يرغمان العمّال والموظّفين والإداريّين الألمان، على العمل أربعين ساعة في الأسبوع، وإذن على التخلّي "بمحض حريّتهم"، عن أسبوع الخمسة والثلاثين ساعة، فوافقوا بذلك على تخفيض ملموس في أجور ساعات العمل.

كيف جرت هذه الأمور؟

في بداية عام 2004، أصرّ "سادة الأرض" على تخفيض قاسٍ في أجور العمال في مصانعهم الألمانيّة. وهدّدت شركة "سيمنس"، دعماً لمطلبها، بنقل أوّل مجموعة من مجموع خمسة آلاف موقع عمل، إلى الصين وأوروبا الشرقيّة.

وقد عبّر "فون بيرن" عن تهديدات أخرى محدّدة.

إنّ الشركة تستخدم 170.000 شخص في ألمانيا، أي 41٪ من مجموع العاملين لدى "سيمنس" في العالم. ولكن الحصّة الألمانية من رقم أعمال "سيمنس"، لا يمثّل إلا 23٪ من مجموع رقم أعمالها. فأعلن "سادة الأرض" في ميونيخ، إجراء معادلة بين هذه الأرقام: إنّ حصّة الوظائف الألمانيّة في مجموع الوظائف العالميّة، سيهبط من 41 إلى 23٪، إن لم ينالوا التأييد، الأمر الذي يعني إلغاء 74.000 وظيفة عمل فوق الأرض الألمانيّة.

في 18 حزيران عام 2004، نزل 25.000 عامل إلى الشارع، استجابة لنداء نقابة (IG-METALL)، ليحتجّوا على صفاقة "سادة الأرض" وابتزازهم. وندّد المستشار "جيرهارد شرويدر" بمخطّطات نقل المصانع المعلن، ووصفها "بالمعادية للوطن".

كلّ ذلك ذهب أدراج الرياح! فقد ركّع "سادة الأرض" النقابات، واضطرّوها للتوقيع على اتفاقين. كان أوّلهما اتفاقاً إداريّاً، حول المفاوضات الاجتماعيّة المستقبليّة. وهو مع ذلك ينطوي على وعد شركة "سيمنس" "بوقاية وتطوير الوظيفة والمنافسة والتجديد".

وكان الاتفاق الثاني ذا هدف محلي، يتعلّق باستخدام الهواتف الجوّالة واللاسلكيّة، من صنع شركة "بوشوا" (BOCHOIT) و"كامب لنتفورت" (Kamp-Lintfort)، في مقاطعتي "الراين" و"وستفاليا"، على

مواقع صناعتها. وتخلّت "سيمنس" عن النقل الفوري لألفين من وظائف العمل، إلى المجر، وضمنت التوظيف على الموقعين، لفترة سنتين.

في مقابل هذين الاتفاقين، وافقت نقابة (IG-Metall) على إعادة أسبوع العمل بأربعين ساعة، دون زيادة في الرواتب. فضلاً عن ذلك، فقد ألغيت مكافآت العطل والميلاد، واستبدلت بمكافأة الاستحقاق.

إنّ الابتزاز مربح: فإنّ تكاليف الأجور عند "سيمنس"، لم تعتّم أن قُلِّصت بنسبة 30٪.

إنّ الناطق الرسمي باسم الإدارة العامة في "ميونيخ"، في حديثه عن المصنّعين في مقاطعتي الراين ووستفاليا، قال في كثير من الصفاقة: "إنّ هذين الموقعين يتعادلان في التنافس مع مواقع المجر، فقد ردمنا هوّة النقص في الإنتاجيّة".

إنّ الابتزاز القائم على التهديد بنقل المصانع، فعّال جداً، لأنّه يمارَس بحقّ سوق للتوظيف - بفعل تعاقب الثورات التكنولوجيّة والألكترونيّة في السنوات الأخيرة - يمضي دائماً نحو التناقص في عدد الوظائف.

ما بين 2001 و2003، كانت "سيمنس" قد ألغت 30.000 وظيفة عبر العالم.

إنّ النزعة إلى الإلغاء، عامّة وعالية. وهي تلهم عمليّاً استراتيجيّات جميع الشركات القاريّة.

إنّ المؤتمر الدولي من أجل التجارة والتنمية، ينشر كلّ عام "التقرير العالمي حول الاستثمار في العالم". ويتبين منه أنّه إن كانت، عام 1993، أعظم التجمعات المائة القاريّة في العالم، باعت بضاعات وخدمات الخ... بقيمة تعادل 3.335 مليار دولار (واستخدمت عندها 11.860.000) موظف، ففي عام 2000، ارتفعت مبيعات أعظم التجمّعات المائة القاريّة (على ما طرأ على تكوينها من تغييرات

هامـــة) إلى 4.797 مليـــار دولار (في حـــين بلـــغ عـــدد مســـتخدميها 14.257.000).

بعبارات أخرى، فإنّ أقوى مائة شركة قاريّة في العالم، رفعت خلال سبع سنوات، رقم مبيعاتها بنسبة 44٪، في حين أن عدد مستخدميها لم يرتفع إلا بنسبة 21٪.

إنّ استراتيجيّة "سيمنس" في ألمانيا، قد اقتدى بها كلّ من شركة "أوبل" (OPEL) و"فولكسفاغن" (WOLKSWAGEN)، بنجاح.

ولكن هناك أصحاب شركات دونها نفوذاً، تعتمد أساليب مشابهة. هوذا مَثَل عنها.

إنّ شركة "رونال سا" (RONAL SA) تصنع إطاراً للعجلات من الألمنيوم، بالقرب من مدينة "سانت-آفولو"، في مقاطعة "الموزيل" الفرنسية. وهذا المعمل تعود ملكيّته إلى شركة "رونال أ. ج."، التي تقوم إدارتها المركزيّة في مدينة "هاركنغن" في مقاطعة "سولور" (Soleure)، في سويسرا، وهي تحت إشراف مصرفَين خصوصيّين قويّين في مدينة "برن". وإنّ لشركة "رونال أ. ج." على الخصوص، معملاً يستخدم ألف عامل في مقاطعة "سيليسيا" السفلى، ومعامل أخرى في بولونيا وتشيكيا.

في 15 أيار عام 2004، أمرت إدارة المجمّع بنقل أربعين مصنعاً، سرّاً، في اتجاه الشرق. وفي 8 حزيران 2004، أعلنت شركة "رونال سا" عجزها عن الدفع. فسُرِّح جميع العمال. وادّعت الإدارة وجود "مصاعب اقتصاديّة".

قاوم العمال، واستعانوا بمحام يدعى "رالف بلينداور" (Ralph Blindauer)، وهو أحد أشهر المحامين في حقوق العمل. فتقدّم "بليندارور" بدعوة جزائيّة ضدّ بعض الإداريّين في "رونال سا"، متّهما إيّاهم "بإشهار إفلاس كاذب". وهو يشرح: "إنّه إفلاس نُظِّم من الألف

إلى الياء، لتجنّب دفع أدنى تعويض".[16] وهذا اتهام رفضته بالطبع شركة "رونال سا": جميع النفقات تقوم بها الدولة الفرنسيّة، والمئات من عائلات العمال المسرّحين، غارقون في القلق.

واليوم فإنّ أعمال "رونال" تزدهر في الشرق.

VIII- حقوق الإنسان

حقوق الإنسان أمر جيد

السوق خير منها

قرّر كوفي عنان، وقد اقتنع بأنّه لن يتمكّن من حمل "سادة الأرض"، على الاحتكام إلى العقل، أي إلى احترام مبادئ شرعة الأمم المتحدة، أن يفاوضهم حول حلّ توافقي. لذا صاغ "الاتفاق الكوني" (Global Compact)، وهو اتفاق عام يُعقَد بين الأمم المتحدة وأهمّ الشركات الرأسماليّة القاريّة.

وقد أعلن عن مقترحاته، يوم 31 كانون الثاني عام 1999، في القمّة الاقتصاديّة الدوليّة في "دافوس" (DAVOS). وهذه القمّة تجمع كلّ عام ألف مسؤول من أقوى الشركات القاريّة. ويُشترَط في من يُقبَل في "منتدى الألف" (هذه هي تسميته الرسمية)، أن يملك إمبراطورية مصرفيّة، صناعيّة أو خدماتيّة، قاريّة، يتجاوز رقم أعمالها السنوي، مليار دولار.

يتضمّن "الاتفاق الكوني" تسعة مبادئ. وفي الوثيقة الرسميّة، التي أثبتتها دوائر الأمين العام، فإنّ كلاً من هذه المبادئ، يحظى بتفسير خاص.

إنّ المبدأين (1) و(2)، يعالجان حقوق الإنسان: ["يتعهّد الموقعون] باحترام وتطبيق حقوق الإنسان في دائرة نفوذهم [...]، بالتثبّت من أنّ شركاتهم الخاصة لا تتواطأ في أيّ من خروق حقوق الإنسان."

إنّ المبادئ (3 إلى 6)، تتعلّق بسوق العمل:

["إنّ الشركات تتعهّد] باحترام حريّة الاجتماع، وبالإقرار الفعلي

بحـقّ جماعـة العمـال في التفـاوض [...] وبإقصـاء كـلّ أشـكال العمـل القسري وعمل العبيد [...] وبإلغاء عمل الأطفال [...] وبإلغاء كلّ تمييز بشأن التوظيف والعمل."

وتتناول المبادئ (7-9) حماية البيئة والطبيعة:

« إنّ الشركات الموقّعة تَعِد بالانخراط بحذر، في كلّ نشاط من شأنه أن يبدّل البيئة الطبيعية [...]

باتخاذ مبادرات ترمي إلى تحفيز مسؤوليّة أكبر حيال البيئة والطبيعة [...]

بتشجيع اكتشاف ونشر تكنولوجيّات تتوافق مع رعاية البيئة. »

في قلعة المؤتمرات، القائمة في قلب المدينة السويسريّة الصغيرة، "دافوس"، في شهر كانون الثاني الجليدي هذا من عام 1999، كان كوفي عنان يطالب إذن السادة الإقطاعيّين الجدد، "بقبول الاتفاق الدولي، وتطبيقه". فصفّق اللصوص واقفين، طوال خمس دقائق، لكوفي عنان، وتبنّوا الاتفاق بالإجماع.

في شهر حزيران من عام 1999، عُقِد في قصر الأمم، بجنيف، المؤتمر الدولي الثاني حول مكافحة الفقر، بحضور ممثّلين من 170 دولة، وأكثر من 500 منظمة غير حكومية. وقدّم كوفي عنان خلاله برنامجاً يحمل عنوان: "عالم أفضل للجميع"، وافق عليه البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ومنظمة التعاون والتنمية الاقتصاديّة (OCDE). وكان هذا البرنامج بمثابة تتمّة للاتفاق.

ولكن الاتفاق الدولي وملحقه، هما بركة سماويّة بالنسبة إلى الإقطاعيّين الجدد. فليس للأمانة العامّة للأمم المتحدة، ولا لأيّ مؤسّسة أخرى، أن تمارس أدنى مراقبة حول التطبيق العملي، للمبادئ التي تعلنها الشركات القاريّة التي تلتزم بها. فالسادة يوقّعون، وهكذا تنتهي اللعبة!

إنّ هذا التوقيع، بالنسبة إليهم، يساوي كنزاً. فالربح خيالي في نظرهم، في لغة العلاقات العامّة و"الصورة". وكوفي عنان يجنّبهم بذلك إنفاق عشرات الملايين من الدولارات في أمور الرعاية. ولقد بات، منذئذٍ، لكلّ شركة مُوقِّعة، حقّ إيراد تأييدها للاتفاق، في جميع نشراتها الدعائيّة، والوثائق الإعلانيّة الخ... وحقّ تبنّيها بذلك لشعار الأمم المتحدة.

الحقوق

في 13 نيسان 2001، كان الأمين العام للأمم المتحدة ومعاونوه في جنيف، ضيوفَ الحكومة السويسريّة ومنظمة "الاقتصاد السويسري"، وهي المنظمة الجامعة لأهمّ الشركات السويسرية القاريّة. ولديّ الآن صورة من وكالة "رويترز"، نُشِرت في صحيفة "يومية برن" (Die Berner Zeitung)، يظهر فيها "لوكاس موهلومان" (Lukas MUHLEMANN) ضاحكاً، يصافح كوفي عنان ساهماً.[17] يومها كان "موهلومان" الرئيس الأعلى لمصرف "كريدي سويس" - فورست - بوسطن". إنّه أحد أبرز أصحاب المليارات. وفي الواقع، فإنّ "موهلومان" إنسان سعيد: إنّه، بشطبة قلم سريعة يرسمها أسفل "الاتفاق الكوني"، يتسنّى لمصرفه أن يدّعي الأمانة المثاليّة لأقدس مبادئ الأسرة والبشرية.

تلك هي أيضاً حال "غوران لندال" (Goeran LINDAHL)، الذي كان يومها صاحب أوّل شركة قاريّة لصناعة الحديد في العالم، المدعوّة (ABB)... وحال "مارسيل اوسبل" (Marcel OSPEL)، رئيس "بنك سويسرا المتحد" (United Bank of Switzweland)، وحال "دانيال فازيلا"، أمير "نوفارتيس" (Novartis)، وحال مدير "رويال داتش شل" (Royal Dutsh SHELL)، ورئيس "نايك" (NIKE)، ورئيس "المصرف الألماني" (Deutshe Bank)، ومدراء عمالقة السيارات: "ميتسوبيشي"، و"نيسان"، و"ديملر"، و"كرايزلر"، و"تويوتا".

إنّ مصرف "كريدي سويس" احتوى طويلاً أكبر حصّة، من مغانم الدكتاتور المرحوم "جوزيف ديزيريه موبوتو"، وهو مبلغ يتجاوز الأربعة مليارات دولار. وكان هذا المصرف قد اشتُهر لفترة طويلة في الماضي، بدعمه الفعّال والعنيد للنظام العنصري في أفريقيا الجنوبيّة، وكذلك بإعادة تأهيل ملايين الدولارات من تجارة المخدّرات في "كولومبيا"، وكذلك باعتماده الكثير من عمليّات أخرى، فيها من الربح بقدر ما فيها من انعدام الأخلاق.

إنّ مصرف "يونايتد بنك أوف سويتسرلاند"، وهو أحد الموقّعين على الاتفاق، يثير لغطاً دائماً بسبب مساهمته السلبيّة في تهريب رؤوس الأموال، انطلاقاً من بلدان العالم الثالث. وإنّ قسماً كبيراً من غنائم الجنرال الرئيس النيجيري "ساني اباشا" (Sani ABACHA)، المتوفى عام 1998، وُجِد على حسابات يحرّكها هذا المصرف.

وشركة "نايك"، تتّهمها منظمات أميركيّة غير حكوميّة، بصناعة أحذيتها الرياضية في جنوب آسيا، باستخدامها أطفالاً يُستغَلّون استغلالاً فاحشاً.

إنّ الرائد الأكبر "للاتفاق الكوني"، السويدي "غوران ليندال"، يتمتّع بعلاقات شخصية ممتازة، مع كبار الأثرياء الحمر في الصين، مع جلاّدي "ربيع بيكين"، ومع الجنرالات الجزّارين في أنقرة. فإنّ شركته (ABB)، على الرغم من مقاومة النقابات والفلاحين والمنظمات غير الحكوميّة، لها، تبني في الصين وفي تركيا، سدوداً في غاية الضخامة، تتسبّب في التهجير القسري (وغالباً في الخراب) لمئات الآلاف من العائلات. وهي أيضاً تساعد في بناء سدّ ضخم، هو "سدّ الممرات الثلاثة" على نهر "يانغ تسيه" (Yang TSÉ)، الذي يُتوقَّع تدشينه عام 2009. في ذلك التاريخ، يكون مليونا فلاح قد فقدوا أراضيهم، في خرق مطلق لحقوقهم، ودون أيّ تعويض مالي مناسب.

ولسوف يلجأون إلى الضواحي التنكيّة البائسة، في مدن "شانغهاي" و"بيكين" و"كانتون".

تقول "منظمة العفو الدوليّة" إنّ شركة "رويال دويتش شل"، تدمّر بالتلوّث المنفلت الذي تسبّبه، خليج نهر "النيجر"، وتدمّر اقتصاد الشعب الأوغوني. ثم إنّها كانت، فضلاً عن ذلك، أحد أقوى المساندين الماليّين، للدكتاتوريّات العسكريّة المتعاقبة في نيجيريا.

أمّا "ميتسوبيشي" و"تويوتا" و"نيسان"، فإنّ إداراتهم المختلفة قد أغلقت منذ فترة وجيزة - لأسباب "اقتصادية" - عشرات المطاعم العماليّة، ومشافي المعامل والمدارس في اليابان والعالم.

بتاريخ 24 حزيران 2004، اجتمع، في المركز الرئيسي في هيئة الأمم بنيويورك، تحت رئاسة كوفي عنان، ممثّلو أهم الشركات القاريّة، الموقّعة على "الاتفاق الكوني". كان الموضوع يتعلق بإعادة النظر في السنوات الخمس المنصرمة.

وقدّم كوفي عنان بهذه المناسبة، تحت ضغط المنظّمات غير الحكوميّة، اقتراحاً: أفلا يقتضي الأمر إنشاء آليّة دوليّة للرقابة، سلطة مراقبة مكلّفة بالتثبّت ممّا إذا كان الموقّعون على الاتفاق، يلتزمون بما وقّعوا عليه، وضمن أية حدود؟

يا للهول! مراقبة عامة؟ أداة قسريّة للمراقبة؟ لا شيء من هذا! ولقد رُفِض المقترح بالإجماع!

إنّ "سادة الأرض" لا يحبّون حقوق الإنسان، إلا إذا كانت هذه الحقوق لا تعطّل آلَتَهم في التي تستغلّ الشعوب وتسحقهم!

مراجع القسم الخامس

[1] "جان- بول مارا" في كتابه "في عشق السيطرة"، نصوص مختارة.

[2] "جان- بول مارا"، المرجع نفسه ص 6

[3] المرجع ذاته.

[4] "Robert Baer": "سقوط CIA"، باريس، غاليمار 2003

[5] Gary Rivlin في مجلة "New York Republic"، نيويورك، نيسان 2003

[6] Hervé Kemph، في صحيفة le Monde، 2004/6/26

[7] ذلك لأن منظمة الغذاء العالمي، أسست يوم 16 اكتوبر عام 1945

[8] مداخلة السفير أعيد نشرها في البيان الصحفي الصادر عن مكتب الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة في نيويورك، ووزع على جميع البعثات في الجمعية العامة، وأنا أستشهد بالنص انطلاقاً من البيان الرسمي.

[9] هذا النص نشر في مجلة "Nigrizia"، وهي مجلة الآباء الكومبانيانيين. في مدينة فيرونا، حزيران عام 2004

[10] الآباء الكومبونيانيين هم أهم مؤسسة إرسالية في إيطاليا. وهم حاضرون منذ أكثر من قرن، في العشرات من بلدان أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية. مقرهم الأساسي يقوم في مدينة فيرونا بإيطاليا.

[11] "جاك رو": "بيان الغاضبين"، المرجع السابق

[12] راجع ATTAC: "مقاومة إمبراطورية نستله"، مقدمة سوزان جورج، لوزان، منشورات ATTAC، عام 2004

[13] Jean-Claude Péclet في صحيفة، "Le Temps" جنيف 2004/2/6

[14] راجع ATTAC، "مقاومة إمبراطورية نستله"، المرجع السابق.

[15] في صحيفة "Le Courrier"، جنيف، 2006/11/25

[16] Ralph Blindauer، في صحيفة "Tribune de Genève"، جنيف 2004/7/2

[17] صحيفة "برن" السويسرية، "Die Berner Zeitung"، 2006/4/14

خاتمة - إعادة الكرة

إنّ "عمانوئيل كانت" لم يشترك في الثورة الفرنسيّة. لا بل إنّه لم يغادر يوماً مدينة "كونكسبرغ" حيث وُلد. ولكنه كان يرى أنّ الثورة كانت التجسيد الحي والتطبيق العملي لأفكار عصر الأنوار. وكانت تشكّل خطوة حاسمة نحو تحرير الإنسان.

كان "كانت" بذلك، بوصفه موظفاً بروسيّاً، يعيش في ظلّ حكم استبدادي، تحت عيون شرطة الملك الساهرة، إذ يدافع في السرّ والعلن عن الثورة الفرنسيّة وصانعيها، يعرّض نفسه لمخاطر شخصيّة هائلة.

وهو، منذ شهر تموز عام 1789، كان يجلب لنفسه، من باريس، صحيفة "صديق الشعب"، وعدداً كبيراً من أهم الصحف الثوريّة. وكانت الصحف تصله بصورة منتظمة، تحت سمع الشرطة وبصرها.

وكان يتناول غداءه كلّ يوم في المطعم. وكان يتواجد معه على الطعام، عدد من أصدقائه، حتى باتت هذه الملتقيات بسرعة، مكان تجمّع المؤيّدين للثورة فوق الأرض البروسيّة. وكان "كانت" يشرح خلالها كلّ يوم، وغالباً في حماس، أحداث باريس. ولسوف يكتشف فيما بعد، أنّ اسمه كان قد سُجِّل مع الكثيرين من مشاركيه الطعام، في "السجل الأسود"، سجل أعداء الإمبراطور "فريديريك الثاني"، هذا السجل الذي كانت الشرطة السريّة، تعيد النظر فيه على نحو دائم.

كان "كانت" في السبعين من عمره، عندما بدأ "روبسبير" "عهد الإرهاب". فشرب في المطعم نخب "المنزّه" (l'Incorruptible). ولقد احتفظت محفوظات البوليس السري بإشارة إلى ذلك. فقد اعتلى "كانت" كرسيه (إذ كان طوله لا يتجاوز 152 سم)، ورفع كأسه المليء

بخمـرة ألمانيّـة، وصـرخ: "حاشـا لنـا أن نشـكّك في فكـرة الثـورة البورجوازية! إنّ التفجّرات اللاأخلاقيّة لا يجوز لها أن تشوّشنا".

في ذاك العهـد، كانـت مدينـة "كونكسـبرغ" (هـي اليـوم تُـدعى كـالينينغراد)، عاصـمة إقليميّـة تَعـدّ قرابـة (50.000) نسـمة، وكانـت تعـيش بصـورة رئيسـيّة مـن مرفئهـا علـى بحـر الشـمال. وكانـت تضـمّ موزاييكـاً متـداخلاً مـن الشـعوب: بـين "ليتـوانيّين" و"ايسـتونيّين" و"ليتـونيّين" و"بولـونيّين" و"روس"، ومجموعـة يهوديّـة كثيفـة، وتجّـار هولنـديّين وبريطـانيّين، و"هوكينـو" لاجـئين مـن فرنسـا، و"مينـونيّين" قَدِموا من هولندا في القرن السادس عشر. وكان عدد كبير من هؤلاء السكان، محرومين من الحقوق السياسيّة، وذوي مدخول محدود جداً. كان كثيرون منهم يتخبّطون في فقر مدقع. وكان "كانت"، وقد أثاره الظلم الاجتماعي، يرى في الثورة الوعد بتحرير البؤساء.

وقد كتب "كانت" عام 1798، حول الولادة التاريخيّة للثورة:

« إنّ مثل هذا الحدث في تاريخ العالم، لا يُمحى من الذاكرة، لأنّـه كشف في أعماق الطبيعة البشريّة، إمكانيةً لتقدّم أخلاقي، لم يخطر ببال إنسان حتى اليوم. فحتى لو لم يتحقّق الهدف المرجوّ [...]، فإنّ ساعات الحريّة الأولى هذه لا تفقد شيئاً من قيمتها. ذلك بأنّ هذا الحدث هو من الضخامة، ومن الامتزاج بمصالح البشرية، ومن التأثير العظيم على جميع أقسام الأرض، حتى إنّ الشعوب ستتذكّره، في مناسبات أخرى، وستُقاد إلى إعادة تجربته. »

إعادة الكرّة! أجل إعادة الكرّة.

مـع الثـورة الفرنسـيّة بـدأت المسـيرة الطويلـة نحـو الديمقراطيّـة السياسيّة. وقد رافقت الثورة الصناعيّة والانتشار الاستعماري. وقد استمدّت الدول القوميّة، من كلّ ذلك، قوتّها.

في القرن العشرين، حاولت عصبة الأمم، ثمّ منظمة الأمم المتحدة، إرساء السلام العالمي. وإنّ إعلان حقوق الإنسان، الصادر في 1948/12/10، يستعيد بالنص تقريباً، بعض تعابير إعلان عام 1789.

في أواخر القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، تحقّقت إنجازات أخرى. فترسّخت الديمقراطيّة السياسيّة في أوروبا، ولكن أيضاً في بعض بلدان القسم الجنوبي من الكرة الأرضيّة. وحقّق التحرّر من الاستعمار خطوات عظيمةً. وأُعلِنت المساواة بين جميع ثقافات الأرض. وتراجع التمييز الخاص بالمرأة. وفي مناطق كثيرة من العالم، تطوّرت قوى الإنتاج على نحو خارق.

والآن؟

نحن نتعرّض لأبشع عدوان، ذاك الذي ما كان لأحدٍ أن يتصوّره قبل خمس سنوات.

ما من دولة وطنيّة، ما من تنظيم قارّي، ما من حركة ديمقراطيّة تقف في وجه هذا العدوان.

إنّ سادة الحرب الاقتصاديّة قد أخضعوا الأرض لتخطيط محكم. إنّهم يهاجمون الدول وسلطتها التشريعيّة، ويجرّحون بالسيادة الشعبيّة، ويخرّبون الديمقراطيّة، ويدمّرون الطبيعة، ويهدمون البشر والحريّات.

وهم يعترضون جذريّاً على حقّ الإنسان في البحث عن السعادة.

فما من قوّة مضادّة قائمة - لا قوة دولة، ولا قوة نقابة - قادرة على التعريض بسلطتهم المطلقة. وفي شوارع نيودلهي، آلاف من النساء والأطفال، الذين فقدوا البصر بسبب "غمام البوبال"، يتسوّلون الحسنة من عابري السبيل، في حين أنّ سادة "داو كيميكال" يقيمون في تحصيناتهم، في ناطحات السحاب في مدينة "ميدلاند"، في ولاية ميشيغان.

يقول "سان جوست" (St. JUST):

« بين الشعب وأعدائه، لا شيء مشترك. لا شيء سوى السيف.

السيف الذي يفصل ويبتر... إنّ الحق في السعادة، والحقّ في الكرامة، والحقّ في الغذاء، والحقّ في الحريّة، يشكّلون جزءاً لا يتجزّأ من الكائن البشري، وهم الذين يجعلون الإنسان إنساناً. وبهذا الشأن، فإنّ "لكانت" عبارة تصعب ترجمتها، إذ يقول: "إنه الحقّ في الحياة، وهو حقّ فريد، مؤسِّس، يعود لكلّ إنسان، لمجرّد كونِه إنساناً". ».

ويقول "سان جوست" الأمر نفسه، ولكن بمزيد من شاعريّة:

« إنّ الاستقلال والمساواة، يجب أن يقودا الإنسان، وهو ابن الطبيعة المقدّر له، بفعل جوهره الخالص، إلى الفضيلة والحرية. »[1]

للتاريخ موضوع واحد: الإنسان.

أولئك الذين، على غرار الإقطاعيّين الجدد، سادة إمبراطوريّة العار، ورجالهم، ومروّجي أفكارهم، ينتسبون إلى القوّة المطلقة التي للسوق، ينكرون المعايير الحضاريّة، التي شعّت من "عهد الأنوار".

ثمّة حكمة، وُلدت عند مصبّ نهر السينغال، تختزل مقالتي: "إن الإنسان هو علاج الإنسان".

إنّ الإنسان لا يوجد، ولا يُبنى، ولا يتكاثر إلاّ بواسطة غيره من البشر. ليس ثمّة إنسان من دون مجتمع، ومن دون تاريخ - ومن دون تعاطف. إنّ علاقات التبادل والتكامل والتضامن، هي التي تكوّن الكائن البشري.

ماذا عسانا نفعل ضدّ صفاقة "سادة الأرض"، وعنف شرطتهم المنفلت، واحتقارهم الحقّ في البحث عن السعادة؟ يجب أن نصغي إلى "كانت"، ونعاود الثورة من جديد. ذلك بأنّ الحرب دائمة،

والتناقض جذري بين العدالة الاجتماعيّة الكونيّة، والسلطة الإقطاعيّة، أية كانت.

يقيني أنّ الموت، لن تتغلّب عليه البشريّة يوماً، وكذلك هي الحال بالنسبة إلى العزلة واليأس، أو أيّ من الآلام الكثيرة التي تصحب وجود الإنسان. ولكن، لكم من آلامٍ يسبّبها الإنسان، إزاء ألم لا مفرّ منه!

إنّ الصدفة في الولادة يكتنفها سرّ أعمق من الصدفة في الموت. لماذا ولدت في أوروبا؟ لماذا أنا أبيض؟ موفور الغذاء؟ موفور الحقوق؟ مدعوّ لحياة حرّة، مستقلّة نسبيّاً، وبمنأى عن التعذيب؟ لماذا أنا وليس عامل المنجم الكولومبي، الذي تملأ الديدان بطنه، والمشرّد من سكّان "برنامبوك"، والامرأة البنغاليّة من سكان "شيتاغونغ"، التي شوّه وجهَها حمض الأسيد؟

قبل أن تنتهي السنة التي سينشر خلالها هذا الكتاب، يكون قد مات 36 مليون إنسان، في آلام فظيعة، بالجوع، أو من جراء أمراض ترتبط مباشرة به. وبسبب النقص في الأدوية، سيكون قد استشهد عشرات الملايين من الأشخاص أيضاً، بسبب الأوبئة التي قهرها الطبّ من زمان بعيد، وتكون المياه الملوّثة قد دمّرت تسعة ملايين طفل دون العاشرة.

ويكون السكن غير الصحي، والفئران، واليأس والقذارة، يكون كلّ ذلك قد جعل الحياة لا تُطاق بالنسبة إلى ملايين الأمّهات، في الضواحي البائسة في "مانيلا" و"ليما" و"داكا" و"ريو دو جانيرو".

وتكون البطالة الدائمة والقلق بشأن الغد، قد دمّرا كرامة مئات الألوف من الآباء، في ضواحي "أولان باتور" و"سويتو".

لمَ هم، لا أنا؟

وكان من الممكن أن تكون كلّ من هذه الضحايا، زوجتي، ابني، أمي، صديقي، أناساً يملأون حياتي وأحبّهم...

إنّ هؤلاء الناس الذين يُقتَلون بعشرات الملايين كلّ عام، هم ضحايا ما يسمّيه "بابوف" (BABEUF) "القوانين الفظّة".

ولا شيء، سوى الصدفة في ولادتي، يفصلني عن هؤلاء المصلوبين!

كتب "مارا" (MARAT):

"إنّ الرأي يُؤسَّس على الجهل، والجهل يدعم الاستبداد دعماً شديداً".[2]

إنّ مهمّة المثقّف الأولى، هي الإعلام والكشف الصريح عن ممارسات "سادة الأرض". إنّ مصّاصي الدماء يخشون نور النهار، خشيتَهم للطاعون.

لنُصغِ إلى "مارا" (MARAT) مرة أخرى:

"إنّ حبّ البشر هو أساس حبّ العدالة، لأنّ فكرة العدل تنمو بالعاطفة، بقدر نموها بالعقل".[3]

إنّ وصف الحياة اليوميّة لأطفال الأنفاق في مدينة "أولان - باتور"، وآلام وصراعات المشرّدين في البرازيل، والفلاحين في بنغلادش، أو الأرامل في "التجريه"، يحفّز تفتّح الشعور بالعدالة لدى القارئ. وقد تُولَد من هذه اليقظة، ذات يوم، انتفاضة الضمائر في بلدان الشمال.

في ملعب كرة القدم الضخم، في مدينة "فيلا اوكليدس" (Vila Euclides)، وبدعوة من نقابة عمّال الحديد في مدينة "ساو برناردو"، تجمّع 80.000 مضرب عن العمل، بعد ظهر يوم 13 آذار من عام 1979. ولقد أشرت إلى ذلك في الفصل الذي خصصتُ به حديثي عن البرازيل. كانت حوّامات الشرطة السوداء تروح وتجيء، في السماء القاتمة، على ارتفاع منخفض، محدثةً صوتاً راعداً. وكانت تسعى لإخافة الجمهور.

كان المطر يهطل.

كـان "لـولا" واقفـاً علـى صـندوق شـاحنة توقّفـت فـوق العشـب، في منتصـف الملعـب. وكـان المضـربون ملـتفّين حولـه في صـفوف متراصّـة، مـع نسـائهم وأولادهـم. كـانوا كلّهـم واقفـين، تحـت الأمطـار الغزيـرة، وثيـابهم ملتصـقة بجلـودهم. كـانوا في منتـهى اليقظة، والجدّيّة والتوتّر...

كان رجال الشرطة السياسيّة قد صادروا مكبّرات الصوت.

يروي "فريي بيتو":

« كان "لولا" يتكلّم. الذين كانوا بالقرب منه ويسمعون صـوتَه، كانوا يلتفتون ويردّدون كلماته بصوت واحد، لمن كانوا يقفون خلفهم. وهكذا كانت جميع الصفوف تتناقل الكلمات المسموعة، وكـأني بهـم جوقة واحدة، حتى آخر الصفوف المحتشدة في الملعب الفسيح. »[4]

أنـا، لسـت بقائـد نقـابي، ولا بـزعيم حركـة تحـرّر، ولكـني مثقّـف، لتأثيره وسائل محدودة.

إنّ كتابي يطرح تشخيصاً.

إنّ تـدمير النظـام العـالمي المفـترس، هـو شـأن الشـعوب. وإنّ الحـرب من أجل العدالة الاجتماعيّة، لقادمة.

ما الذي سيصنع الانتصارات؟ والهـزائم؟ مـا هـو مـآل هـذه المعركـة الأخيرة؟ ما من أحد يمتلك اليوم الإجابات.

إلا أنّ هناك قناعةً تسكنني.

إنّ جميـع هـذه المعـارك القادمـة، سـتردّد صـدى دعـوة "غراكـوس بابوف" في 27 أيار عام 1797،[5] زعيم "مـؤامرة المتسـاوين"، الـذي حُمِـل إلى المقصلة وهو ينزف دماً، حيث قال:

« لتبدأ المعركة بشأن الفصل الخطير، فصل المساواة والملكية!

"وليقلب الشعب جميع المؤسّسات البربريّة القديمة!

"ولتكفّ حرب الغني ضدّ الفقير، عن اتّسامها بالشجاعة المطلقة من جهة، والجبانة المطلقة من جهة أخرى! » [...]

أجل، إنّي أكرّر ذلك، إنّ جميع الشرور قد بلغت أقصى مداها، ولم يعد بوسعها أن تزداد سوءاً. ولا يمكن إصلاحها، إلا بقلبها رأساً على عقب [...]

« لنحدّق في غاية المجتمع. لنحدّق في السعادة المشتركة،

"ولنأت بعد ألف عام، لنغيّر هذه القوانين الفظة! »

مراجع الخاتمة

---

[1] Louis Antoine de St.-Just، **المؤلفات الكاملة، ص 10**

[2] **جان– بول مارا: "نصوص مختارة" ص 21**

[3] **جان– بول مارا: المرجع نفسه ص 155**

[4] **راجع** Frei Betto: **"لولا، عامل في الرئاسة"، المرجع السابق.**

[5] **غراكوس بابوف: "مخطوطات ومطبوعات"، المرجع المذكور.**

رموز المنظمات الدولية

معهد نوفارتيس من أجل الأمراض المدارية......................... NITD

المؤتمر الدولي من أجل التجارة والتنمية...................... CNUCED

هيئة أساقفة البرازيل... CBB

منظمة التجارة العالمية.. OMC

منظمة الصحة العالمية... OMS

برنامج الغذاء العالمي.. PAM

منظمة العمل العالمية... OIT:

منظمة الهجرة العالمية.. OIM

منظمة الأمم المتحدة من أجل التغذية والزراعة................. FAO

حركة الفلاحين دون أرض... MST

منظمة الأمم المتحدة المختصة بمكافحة الايدز............. UNAIDS

الجبهة الشعبية لتحرير التيجريه................................ TPLF

لجنة اوكسفورد لمكافحة الجوع................................ OXFAM

المعهد الوطني للاستيطان والإصلاح الزراعي.................. INCRA

السلام الأخضر.. Green Peace

شبكة العمل الدولية لتغذية الأطفال الرضع.................... IBFAN

برنامج الأمم المتحدة للتنمية.................................. PNUD

منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية............................ OCDE

الفهرس

بمثابة تقديم.......................................5
مقدمة 7
أين الرجاء.......................................16
أضواء 19
مراجع المقدمة.......................................29

القسم الأول - الحق في السعادة
I– شبح الحرية.......................................31
II– الندرة المنظمة.......................................39
III– العنف البنيوي 50
IV– احتضار القانون.......................................61
V– البربرية ومرآتها 72
مراجع القسم الأول 79

القسم الثاني - في أسلحة الدمار الشامل
I– الدَّيــــن 83
II– الجوع.......................................116
مراجع القسم الثاني.......................................146

القسم الثالث - الحبشة: الإنهاك والتضامن
I– "عَلَم تسيهايه" 149
II– المجاعة الخضراء 161
III– المقاومة.......................................173
مراجع القسم الثالث 186

القسم الرابع - البرازيل: طُرُق التحرر

I– لولا 187
II– برنامج إلغاء الجوع.. 203
III– شبح سلفادور ألينديه 211
ملحق.. 231
مراجع القسم الرابع 234

القسم الخامس - إعادة بناء الإقطاع في العالم

I– الإقطاعيات الرأسمالية 235
II– الإفلات من العقاب.. 255
III– تحطيم المنافسة غير الشريفة لما هو حي.. 262
ملحق 274
IV– أخطبوط "فوفيه" (VEVEY) 275
V– تحطيم النقابات 283
VI– البقرات السمان خالدة.. 292
VII– الغطرسة.. 296
VIII– حقوق الإنسان 301
حقوق الإنسان أمر جيد.. 301
السوق خير منها 301
الحقوق.. 303
مراجع القسم الخامس 306
خاتمة - إعادة الكرة.. 307
مراجع الخاتمة.. 315
رموز المنظمات الدولية.. 316
الفهرس 317

صدر للمؤلف

1) **باللغة العربية:**

1. **عرب مسيحيون أو مولد إيمان**

مطبعة الأديب (دمشق) - 1969

2. **حول الإنجيل وإنجيل برنابا**

المطبعة البولسية (لبنان) - 1971

3. **المدينة المصلوبة (مسرحية)**

منشورات وزارة الثقافة - 1973

4. **الطريق إلى كوجو (مسرحية)**

منشورات اتحاد الكتاب العرب - 1976

5. **المجتمع والعنف (مترجم)**

منشورات وزارة الثقافة - 1976

6. **مجد الله هو الإنسان الحي**

بالتعاون مع أفراد أسرة الرعية الجامعية (دمشق) - 1977

7. **يقينان وسؤالان**

منشورات جيش التحرير الفلسطيني - 1979

8. **تاريخ المسرح في خمسة أجزاء (مترجم)**

منشورات وزارة الثقافة 1979- 1989

9. **فكر هيجل السياسي (مترجم)**

منشورات وزارة الثقافة - 1981

10. **وجبة الأباطرة (مسرحية)**

منشورات اتحاد الكتاب العرب - 1985

11. **شهود يهوه، من أين وإلى أين؟**

مطبعة دار العلم (دمشق) - 1991

12. **الصوفانية** (1982-1990)

مطبعة الحرية (لبنان) - 1991

13. **اذكروا الله**

(ترجمه عن الفرنسية أديب مصلح) المطبعة البولسية - 1995

14. **سيدة الصوفانية**

القاهرة - 1997

15. **ومن الكلمات بعضها**
المطبعة البولسية – 1997
16. **من أجل فلسطين**
دار عطية – بيروت 2004
17. **هروبي الأخير مع يسوع المسيح (مترجم عن الفرنسية)**
المطبعة البولسية – 2004
18. **أمن أجل فلسطين وحدها؟**
منشورات مركز الغد العربي للدراسات – 2006
19. **الصوفانية خلال** 25 **عاماً (ثلاثة مجلدات)**
دار المجد للطباعة والنشر – 2008
20. **تأملات**
دار المجد للطباعة والنشر – 2009
21. **تأملات في إنجيل القديس يوحنا**
دار المجد للطباعة والنشر – 2010
22. **مجموعة من العظات**
دار المجد للطباعة والنشر – 2010
23. **عندما يطلب البابا الغفران (مترجم عن الفرنسية)** – 2010
24. **مجموعة من العظات** – 2011
25. **قد يكون لي ما أقوله** – 2014.
26. **الأب الياس يعقوب (ملاك الساحل السوري)** = 2014

2- En Francais

1- **Soufanieh**
Chronique des apparitions et manifestations de Jésus et de Marie à Damas (1982-1990) Editions François - Xavier de Guibert. 1991. Paris.

2- **Souvenez - vous de Dieu**
Messages de Jésus et de Marie à Soufanieh.
Damas (1982-1990) Editions François - Xavier de Guibert. 1991. Paris.

3- SOUFANIEH En SYRIE et DANS LE MONDE
Damas - 2014.